دروس تمهيدية في الإمام المهدي عجل الله فرجه

لجنة التأليف في
مركز طيبة للفكر والمعرفة

مراجعة اللجنة العلمية في موقع مقالات

هوية الكتاب

اسم الكتاب..... دروس تمهيدية في الإمام المهدي عجل الله فرجه

تأليف..... لجنة التأليف في مركز طيبة للفكر والمعرفة

مراجعة..... اللجنة العلمية في موقع مقالات

الطبعة..... الأولىٰ – ١٤٤٨هـ

المطبعة..... دار البذرة

النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف خلق الله تبارك وتعالىٰ وأحبِّهم إليه وأكرمهم عليه أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين.

تعتبر قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه من أهم القضايا في الفكر الشيعي، حيث يمثِّل عجل الله فرجه الأمل والخلاص للمسلمين، بل لكلِّ البشرية، وأنَّ القضايا المعرفية المرتبطة به عجل الله فرجه هي من الموضوعات الهامة التي تحتاج إلىٰ دراسة وتحليل لما للمعرفة من قيمة لا تقدَّر بثمن.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «لَو يعلم الناسُ ما في فَضلِ مَعرفةِ الله عزوجل ما مَدُّوا أعينهم إلىٰ ما متَّع الله به الأعداء من زَهرَة هذه الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دُنيَاهم أَقَلَّ عندهُم مِمَّا يَطؤُونَهُ بأرجُلِهِم، وَلَنعموا بمعرفة الله عزوجل، وتلذَّذُوا به تَلَذُّذ من لم يَزَل في روضات الجنَّات مع أولياء الله.

إِنَّ معرفة الله عزوجل أُنْسٌ مِن كُلِّ وَحشةٍ، وصَاحِبٌ مِن كُلِّ وِحدَة، وَنُورٌ من كُلِّ ظُلمة، وقوَّةٌ مِن كُلِّ ضَعف، وشِفَاءٌ مِن كُلَّ سَقم»[1].

---

(١) الكافي: ٨ / ٢٤٧.

هذه قيمة المعرفة المرتبطة بالله تبارك وتعالىٰ، ومنها تنبع قيمة المعرفة المرتبطة بخاتم النبين وآله المنتجبين (صلوت الله وسلامه عليهم أجمعين) لأنَّهم الباب الذي فتحه الله سبحانه لمعرفته: «من عرفكم فقد عرف الله».

من هنا نجد ما كان يفعله سلمان مع أمير المؤمنين عليه السلام، حيث كان ملازماً لأمير المؤمنين عليه السلام، فكلَّما دخل الأصحاب المسجد وجدوا سلمان بجوار مولاه يشرب من معينه الصافي، فاتَّفقوا علىٰ أن يسبقوا سلمان إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام، فبكَّروا بالمجيء، وفعلاً لم يجدوا في الطريق إلَّا آثار أقدام الإمام عليه السلام، ففرحوا بذلك، ولكن عندما وصلوا المسجد وجدوا سلمان جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام فتفاجؤوا فقالوا: يا سلمان من أين أتيت؟ أَنَزَلت من السماء أم خرجت من الأرض؟

فقال سلمان: إنَّما جئت من حيث جئتم، فقالوا: فأين آثار أقدامك؟ فقال: إنِّي لمّا رأيت أقدام أمير المؤمنين عليه السلام وضعت أقدامي عليها لأنِّي أعلم أنَّه لا يضع قدماً ولا يرفعها إلَّا بحكمة وعلم[1].

ومن هذا المنطلق أعددنا هذه الدروس المتعلِّقة بشكل أساسي بمعرفة شيء بسيط من مقام إمام العصر الزمان عجل الله فرجه المبارك لعلَّنا ننال رضاه.

وإذا كان هناك فضل في إعدادها فإنَّه لله تبارك وتعالىٰ ولنبيِّه المختار صلى الله عليه وآله وآله الأطهار عليهم السلام ولسيدنا الأستاذ سماحة السيد أحمد الاشكوري، فمن فيضه اقتبسناها، نسأل الله أن يحفظه وأن ينفعنا بها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

والحمد لله ربِّ العالمين

الأربعاء/ ٢٨/ رمضان المبارك / ١٤٤٧هـ

---

(١) منقول من محاضرات للسيد عادل العلوي رحمه الله عن مقام الحوراء زينب عليها السلام.

الدرس الأوّل
قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ضرورة دينية

اتَّفق الفكر المعاصر في الآونة الأخيرة مع نظرية عالم الاجتماع الفيلسوف (أوغست كونت)[1] الذي وصف مرور العقل الإنساني بأطوار ثلاث[2] ابتدأت

---

(١) أوغست كونت: عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي، له بصمات واضحة فقد أرسىٰ المنهج العلمي وجعل من مبانيه، الملاحظة، وهو من أطلق اسم علم الاجتماع علىٰ العلم الحالي، اقترن اسم هذا العالم مع المذهب الوضعي الذي يعظم العلم ويرفض الميتافيزيقيا. ولد في باريس عام ١٧٩٨م – وتوفي فيها عام ١٨٥٧م.

(٢) **المرحة الأولىٰ: وهي المرحلة الدينية اللاهوتية**: يعتقد كونت بأنَّ العقل كان يفسِّر كلّ ما حوله من ظواهر عن طريق نسبتها إلىٰ الآلهة والأرواح الخفية وهي قوىٰ خارجة عن الظواهر نفسها.

أمَّا المرحلة الثانية: وهي المرحلة التجريدية الميتافيزيقية: فالعقل فيها كان يفسِّر الظواهر بمعاني مجرَّدة أو قوىٰ خفية أو إلىٰ ما لا يقوىٰ علىٰ إثباتها، فعلىٰ سبيل المثال أصبحوا يربطون مرض الشخص بوجود الجراثيم، لكن لم يشرحوا سبب وجودها أو كيفية العلاج، لذا من الممكن أن يستخدم الطرق الروحانية للعلاج لأنَّه في هذه المرحلة، ومن خلال البحث الميتافيزيقي يستطيع الاستنتاج فقط ولا توجد لديهم تفسيرات حقيقية.

أمَّا المرحلة الثالثة: المرحلة العلمية: أنَّ العقل يفسِّر الظواهر بنسبتها إلىٰ قوانين وضعية، فوصل العقل إلىٰ النضج الكامل وتخلَّىٰ عن تفسيرات المرحلتين السابقتين، فلا مجال لقوىٰ خارقة للطبيعة، فقل استخدام الدين في اكتساب المعرفة وأصبحت الأساليب العلمية هي المستخدمة، علىٰ سبيل المثال إذا مرض شخص فلا يتم تفسير سبب المرض بأنَّه بفعل قوة خارقة أو نتيجة ذنب اقترفه فعاقبه الله عليه علىٰ شكل مرض، بل يفسّر بشكل علمي وعقلائي.

بالفلسفة الدينية ثم انتقلت إلىٰ فلسفة تجريدية حتَّىٰ انتهت إلىٰ الفلسفة الواقعية، وهي ما أولاها القيمة والموضوعية.

وتعبِّر هذه الأطوار عن تفاعل الإنسان مع الغيب والمجرَّد، الذي إذا أردنا تسميته بمصداق معاصر بارز فإنَّه لا يتعدَّىٰ الشخصية المهدوية وقضيته، التي تفاعل معها الإنسان - علىٰ رأي أوغست - في مرحلة سابقة بنحو من الاهتمام والتقديس والتوجُّه الكلِّي، ثم توسَّع مدركه فبات يقلِّل من اهتمامه ويقترب من عَي حجمها الواقعي حتَّىٰ استقوىٰ بالعلم في تكامل رشده فصار ينظر إلىٰ العقيدة المهدوية بملامحها الباهتة العاجزة فَنَظَرها شاخت وهزلت.

ومرحلة شيخوخة الفكرة المهدوية هي ما عليه أنصار الفكر اللاديني الآن، ومقولتهم: لماذا نقرأ القضية المهدوية؟ ولماذا الاهتمام بها؟ ولماذا نتساءل عنها؟ وهي غاية ما تمثِّل الفكر الديني الذي استعاض عنه الإنسان بالتطوُّر العلمي والبحث التجريبي والتقدُّم التكنلوجي والتنوُّع الثقافي والتوسُّع المادي بمظاهره الحياتية المختلفة، فما جدوائية العقيدة المهدوية والدين؟ وقد أثبتت الحداثة عدم نفعها والحاجة لها في عهد التطوُّر والتمدُّن!!

ومن هنا لابدَّ أن نحلِّل نظرية شيخوخة وانتهاء فكرة الاعتقاد بالإمام المهدي عجل الله فرجه فنقول: لا شكَّ أنَّنا عندما نستذكر القضية المهدوية نجد توارد المعنىٰ الديني إلىٰ الذهن وكأنَّه يلتصق مع العنوان المهدوي، وليس ذلك إلَّا لتمثيله عجل الله فرجه الدين السماوي.

وعند إذن يصبح التصريح بعدم الفائدة وعدم جدوائية الاعتقاد بالقضية المهدوية في حقيقته عبارة أخرىٰ عن إنكار الدين واستنكار نفع الدين والحاجة

إليه في ظلِّ التطوُّر العلمي والعقل الإنساني فيرجع السؤال إلىٰ أنَّه ما الحاجة إلىٰ الدين وما نفع الدين؟

وللوقوف علىٰ إجابة في هذا الصدد لابدَّ من تمهيد أوَّلاً، فنقول:

في ظلِّ فرض الاستخفاف بالعقيدة المهدوية تتعيَّن ضرورتان:

أوَّلاً: إدراك أهمية الدين والتوقُّعات الإيجابية منه.

الثاني: إدراك الرابطة الواقعية بين الإمام المهدي عجل الله فرجه والدين السماوي.

فإذا انكشف أصالة الدين والحاجة إليه أوَّلاً ثم ارتباطه بشخصية معصومة تتمثَّل بالإمام المهدي عجل الله فرجه، فلا مناص من الاعتراف بالقضية المهدوية كأمر مفروغ عنه وأساسي في الحياة.

الضرورة الأولىٰ: إدراك أهمية الدين والتوقُّعات الإيجابية منه:

ونبدأ باستيضاح الضرورة الأولىٰ من خلال:

أوَّلاً: هل الدين ظاهرة أصيلة أو دخيلة علىٰ الحياة؟

وثانياً: كيف نتصوَّر حاجتنا إلىٰ الدين؟

أمَّا السؤال الأوَّل: فنحن ندَّعي أنَّ الدين ظاهرة أصيلة ودخيلة في حياة الإنسان، بل هي تشكِّل جزء من حياة الإنسان ونستطيع أن نذكر عدَّة شواهد علىٰ هذا المدَّعىٰ.

الشاهد الأوَّل: من خلال قراءة تاريخية للواقع الإنساني فمن خلال الاكتشافات العلمية الأركيولوجية[1] والتي هي عبارة عن علم الآثار ثبت نزوع

(١) علم الآثار.

الإنسان إلىٰ الدين حيث أفادت النقوش الصخرية كنقوش (طاسيلي ناجر)[١] في الجزائر (غوبكلي تيبي)[٢] في تركيا وحضارة (المايا)[٣] في أمريكا الجنوبية،

(١) تحتضن المنطقة أكثر من ١٥.٠٠٠ رسم ونقش صخري نُفذّت علىٰ جدران الكهوف والملاجئ الصخرية، وهي تمثِّل سجلاً بصرياً نادراً يوثِّق التغيُّرات المناخية التي شهدتها المنطقة، بما في ذلك مراحل الجفاف والرطوبة وهجرات الحيوانات الناتجة عنها.
كما توضِّح هذه الرسومات مراحل التطوُّر الاجتماعي والثقافي والروحي للإنسان الذي عاش في طاسيلي منذ ما لا يقل عن ٦.٠٠٠ سنة قبل الميلاد، فكل رسم ونقش ليس مجرَّد عمل فني، بل هو وثيقة تاريخية تسجل تفاصيل دقيقة عن التغيُّرات المناخية، أنماط الحياة، وحتَّىٰ المعتقدات الروحية التي سادت في هذه البقعة من الصحراء الكبرىٰ.

(٢) يصف البعض هذا المكان بأنَّه المكان الذي تجلَّت فيه الآلهة للمرة الأولىٰ عند الإنسان الأوَّل، إذ يعتقد المؤرِّخون ودارسي التاريخ أنَّ (غوبكلي تيبيGöbekli Tepe) هو أوَّل الأماكن المقدَّسة التي عمَّرها الإنسان في التاريخ، وأنَّ حجارته وآثاره المتبقية تحمل في نتوءاتها أسرار نشوء الحضارات والطقوس الدينية، ويخبرنا الموقع أنَّ سعي الإنسان الأوَّل وبحثه عن الآلهة والدين والطقوس التعبّدية وُجدت قبل نشوء المدن.
فالآثار المتبقية تُشير أنَّ من أنشأ المكان كانوا من الصيّادين الرحّل قبل أنْ يعرف البشر الزراعة والطبخ والاستقرار.
وبحسب رأي شميدت نفسه فإنَّ (المعبد بني أوَّلاً ثمّ بنيت المدينة).
وهي فرضية ثورية تتنافىٰ مع الكثير من الفرضيات التي تعتقد أنَّ الإنسان أوجد المدينة وعرف التطوُّر قبل أنْ يعرف الآلهة والطقوس العقائدية.

(٣) ظهرت حضارة المايا بحدود (٥٠٠ق.م) وتميَّزت عمارة وفنون المايا بروعة الضخامة والجمالية الشاقولية المتَّجهة إلىٰ السماء.
وكانوا يبنون معابدهم فوق أهرامات فسيحة مبنية من الحجر تحيط بها السلالم، ومزينة بأنواع الزخارف والمنحوتات التي تعكس مفاهيمهم الفكرية ومعتقداتهم الدينية.

و(وادي درعة)[١] في المغرب، و(تام جالي) في كازخستان، و(بوتاه) في أمريكا، وغيرها من الأماكن التي فيها قرائن ودلائل لتعلُّق الإنسان بالبعد الميتافيزيقي وحضور الدين في وجدانه، هذا الشاهد الأوَّل وهو عبارة عن الاكتشافات العلمية في علم الآثار.

الشاهد الثاني: شهادات متعدِّدة من مفكِّرين ومؤرِّخين من مختلف التوجُّهات والجنسيات يتَّفقون مع مضمون قول المؤرخ الإغريقي (بلو تارك)[٢]: (من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار، بلا مسارح، بلا ملوك، بلا ثروة، ولكن ليس هناك مدينة بلا معابد).

الشاهد الثالث: اعترافات علماء يمتازون بعدم التحيُّز للدين من قبيل عالم النفس (كارل) دكتوراه أمراض عقلية وعالم سيكولوجيا وفيلسوف سويسري كبير، له كتابات في الأديان والحضارات، يقول: (إنَّ للإنسان شعوراً فطرياً ونفساً باطنية طبيعية، والدين واحدة من تلك المحتويات الفطرية).

الفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس) يقول: (إنَّ المنشأ للكثير من الرغبات والميول الباطنية هي الأمور الطبيعية والعالم المادي، ولكن في نفس الوقت هناك

---

(١) وادي درعة في إقليم طاطا جنوب المغرب، امتاز بالعديد من مواقع الفن الصخري، إذ يحتوي علىٰ المئات من مواقع الفن الصخري التي تعتبر كشواهد مادية تعبر عن الحياة اليومية لإنسان العصر القديم في وسطه البيئي الغابر وعن معتقداته الدينية.

(٢) ولد في عهد الحاكم الروماني كلوديوس في منتصف القرن الأوَّل الميلادي بمدينة خيرونيا في بويوتيا، وتلقىٰ تعليمه علىٰ يد الفيلسوف أمونيوس، وأشهر ما كتبه مجموعة السير المتوازية ومجموعة من الرسائل المهمة أشهرها أقوال الملوك والقادة، وقد ترجَم فتح الله كتابه (سير متوازية) إلىٰ العربية، وصدر لأوَّل مرة عام (٢٠١٢م) عن منشورات دار الجمل في ثلاثة أجزاء ضخمة.

ميول ورغبات باطنية كثيرة منشأها العالم المعنوي، فالحب والوفاء، وهكذا كثير من الأمور أمور نفسية دينية كثيرة لا نراها تتوافق مع الحسابات المادية، إذاً هناك غرائز معنوية تربطنا بعالم آخر).

الشاهد الرابع: انسجام الدين مع الفطرة، أي أنَّ المنظومة الدينية بأبعادها العقائدية والأخلاقية والفقهية تتناسب في كلياتها مع الفطرة الإنسانية، فالتشريع ينسجم مع التكوين.

ومن هنا نجد أنَّ السيد العلامة الطباطبائي يشير إلىٰ هذه القضية يقول: (إنَّ من الواجب أن يتَّخذ الدين من اقتضاءات الخلق الإنسانية وينطبق التشريع علىٰ الفطرة والتكوين، وهذا هو المراد بكون الدين فطرياً، ويقيم علىٰ ذلك دليلاً علمياً)[1].

الشاهد الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

فيذكر العلامة الطباطبائي أنَّ هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي تهتف به الخلقة وتهدي إليه الفطرة الإلهية التي لا تبديل لها، فالأساس للسُنَّة الدينية هو البنية الإنسانية التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد.

لذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الدين يعيش في صميم الفرد وليس ظاهرة دخيلة علىٰ الحياة، بل أزيد من هذا نستطيع أن نقول للدين ثلاث محطات في حياة الإنسان.

---

(١) في الميزان: ج١٦، ص١٩٣.

المحطة الأولىٰ: وهي المحطة الفردية التي تقدَّمت وهي ظهور الدين في الحس الفردي حيث يجده الإنسان في أعماق نفسه وبمعزل عن تجارب الآخرين قوامه اتِّصال هذا المحدود بالمقدَّس الكلِّي ومنشأه ميل نفساني لا إرادي.

هذه المحطة الأولىٰ التي يتمظهر بها الدين فلا تجد أحد لا دين له حتَّىٰ أنَّ الملحد دينه الإلحاد، وحتَّىٰ أنَّ فرعون له دين الذي كان يعتقده لبني إسرائيل ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ (غافر: ٢٦).

أمَّا المحطة الثانية: فهي المحطة الجمعية والدين الجمعية حيث يأخذ الأفراد بنقل خبراتهم المنعزلة عن بعضهم إلىٰ بعض، في محاولة لتحقيق المشاركة والتعبير عن التجارب الخاصة في تجربة عامة، وكما أنَّ الفرد لا يمكن أن يكون بلا دين فالمجتمع أيضاً لا يمكن أن يكون بلا دين، ومن هنا تظهر الطقوس والشعائر والمهرجانات الدينية.

المحطة الثالثة: محطه القيادة الدينية حيث إنَّه لا يمكن حفظ الدين الجمعي أو الدين الاجتماعي إلَّا بالمؤسسة الدينية، هذه المؤسسة الدينية التي يعتليها البعض لسمات تؤهِّله إلىٰ ذلك لبيان التوجُّه الديني للمجتمع.

فنلاحظ من هذا أنَّ الدين قد ظهر بمظاهر ثلاثة: بالمظهر الفردي وبالمظهر المجتمعي وبمظهر القيادة الدينية.

والنتيجة التي نريد أن نأخذها من هذه التمظهرات للدين - الفردي والاجتماعي والقيادي - بيان مدىٰ تعلُّق الإنسان بهذه الظاهرة ومدىٰ اعتراف المجتمع العقلائي بها من جهة التعلُّق الديني ومن جهة الميل إلىٰ المجتمعية

فنستيقن أصالة الدين وكونه جزءاً لا ينفك عن فطرة وضمير ووجدان الإنسان ومشاعره في عقله الواعي واللاواعي، فتنتفي دعوىٰ دخالة الدين علىٰ الحياة، بل الدين أمر أصيل في ذات الإنسان.

وأمَّا السؤال الثاني: كيف نتصوَّر حاجتنا إلىٰ الدين؟

قد يقول قائل: سلَّمنا أنَّ الدين ضرورة إنسانية، ولكن يمكن استبداله في ظلِّ استفهام العقل عن ذلك قد تطلق إثارات توهم بموقف سلبي سابق فيطلب استبدال الدين بالمغاير الجديد من قبيل أنَّه إذا كانت حاجة الإنسان إلىٰ الدين لأجل معرفة الكون، فإنَّ العلوم الطبيعية والتجريبية تغني عن الدين، وإن كانت حاجة الإنسان إلىٰ الدين لأجل تنظيم علاقاته الاجتماعية، فإنَّ القانون الوضعي يمكن أن يتكفَّل بذلك ويغني الإنسان عن الدين وإن كانت حاجة الإنسان إلىٰ الدين لأجل تحقيق التوازن النفسي والاطمئنان، فإنَّ الإنسان من خلال بعض أنواع الموسيقىٰ والرياضات الروحية يستطيع تحقيق ذلك.

في مقام الجواب نقول: الدين حاجة أزلية ماسة لا يمكن أن يستغني عنها الإنسان ولا يمكن أن يقوم مقامها شيء، وهناك ثلاث حاجات أساسية للدين.

الحاجة الأولىٰ: وهي الحاجة المعرفية:

وهذه الحاجة تتمثَّل في حبِّ المعرفة وحبِّ الكمال وحبِّ البقاء، فمثلاً أنَّ هناك أسئلة تلاحق الإنسان منذ أن تفتحت مداركه الفكرية والتي يعبر عنها الأسئلة الوجودية أو الأسئلة الكونية الكبرىٰ التي تلاحق الإنسان من أين وإلىٰ أين ولماذا، سؤال عن المبدأ وسؤال عن المنتهىٰ وسؤال عن الحكمة والهدف، فهذه الأسئلة لا يمكن ولا يستطيع العلم الطبيعي أو التجريبي أن يجيب عن

هذه الأسئلة، لذا فأصحاب النزعة والمنهج المادي يحاولون إقصاء هذه الأسئلة، فأحد المنظِّرين لحركة الإلحاد لما يُسأل: ما هو الهدف من وجودنا؟ يقول: هذه أسئلة فارغة، فهذا إقصاء لهذا السؤال لأنَّه لا يجد جواباً عن ذلك فيقول: كلّ ما لا يستطيع العلم معرفته لا يستطيع الإنسان معرفته، والحال أنَّها أسئلة ملازمة للإنسان.

ويتفرَّع علىٰ هذه الحاجة:

أوَّلاً: قدرة الدين علىٰ إعطاء قيمة للحياة وبإجراء مقارنة بين رؤيتين مادية إحداهما ودينية الأخرىٰ نستظهر التفوُّق للنظرة الدينية، يقول العالم النفساني (أريك فروم): (لا يشعر الإنسان المعاصر بالأمان، بل يشعر في أكثر أوقاته بالحيرة والضياع، وهو يعمل بشكل دائم، ولكنَّه يشعر بعبثية ما يفعله بشكل مستمر).

وثانياً: تحقيق طموح الخلود، فإنَّ تخليص الإنسان من عرق التفكير بالموت لا يمكن إلَّا للفكر الديني.

وثالثاً: معالجة شبح القلق من المستقبل المجهول، فالإنسان معبَّأ بوحشة المرض والفقر والفقدان والحرمان، والدين يسهم في تخفيف ذلك من خلال التأسيس لقاعدة إيمانية تتقوَّم علىٰ ثقة بقدرة كبيرة ورحيمة مسيطرة علىٰ مخدرات العالم.

ورابعاً: الخلاص من الوحدة وهو هاجس يصيب بعض الفئات العمرية ولأسباب مختلفة، ولكن المتديِّن يكسر هذا الشعور بالخلوة إلىٰ الله (سبحانه وتعالىٰ) وذكره المريح للنفس: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

الحاجة الثانية: للدين وهي الحاجة الأخلاقية:

اجتمعت كلمة المفكِّرين والباحثين علىٰ مرِّ التاريخ أنَّ حياة المجتمع لا تستقيم إلَّا بالقيم الأخلاقية، ورغم المصادر المعرفية المتعدِّدة للتشريع الأخلاقي فهناك مثلاً الأقدميين من اليونان وغيرهم في علم الأخلاق ويشير السيد العلامة رحمه الله[1] إلىٰ أنَّ القرآن لم يستعمل هذا المسلك الذي بناءه علىٰ انتخاب الممدوح عند عامة الناس عن المذموم عندهم والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه، ولكن يتميَّز الدين علىٰ غيره من مصادر تشريعها لأسباب عدَّة:

الأوَّل: أنَّه لا يحصل الاطمئنان واليقين بإصابة الحقيقة الأخلاقية إلَّا بعصمة المصدر، ولا يكون كذلك إلَّا الخالق المطلق ومن ارتبط به من خلال وحيه.

وثانياً: ينفرد الدين بتحديد ملاك الخلق الذي يجعله فضيلاً أو رذيلاً بالمعنىٰ المطلوب، والتحرُّز عن ما ينافيه، وكذلك يتميَّز الدين بتحديد مفردات الحسن والقبح والفضيلة والرذيلة والمعايير الدخيلة في تحديد ماهيتها بنحو دقيق.

وثالثاً: أنَّ الدين يكشف عن غاية الأخلاق بتأثير كل فعل علىٰ الإنسان وفي جميع العوالم التي يمر بها.

ورابعاً: أنَّ الدين يوجد الضامن لتطبيق الأخلاق وهي عناصر الحث والترغيب والترهيب من قبيل الثواب والعقاب والاعتقاد بالرقابة الإلهية علىٰ كل حالات الفرد.

---

(١) ج١، ص٣٥٥.

وخامساً: أنَّ الدين يسوق المفردات الأخلاقية من خلال الأُسوة الحسنة الصالحة ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

وهنا يطرح بعضهم بأنَّنا لأجل الوصول إلىٰ الأخلاق لا نحتاج إلىٰ الدين لأنَّ الأخلاق مغروسة داخل النفس البشرية والدليل علىٰ أنَّها مغروسة داخل النفس البشرية أنَّك تلتقي بآخرين لا يؤمنون بدين، ولكنهم يتَّصفون بأخلاق، مما يعني أنَّ الإنسان ليس بحاجة إلىٰ الدين.

ولكن لا نقبل ذلك لأنَّ الحاجة للدين من خلال ثلاث زوايا:

الزاوية الأولىٰ: تشخيص أنَّ هذا الفعل أخلاقي أو غير أخلاقي لأنَّ القضايا الأخلاقية قسمان: هناك قضايا أخلاقية كلية كالعدل حسن، وهناك قضايا أخلاقية جزئية مثل ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، هذا عدل أو ليس بعدل في القضايا الأخلاقية الكلية العدل حسن، الظلم قبيح، نعم هنا لا نحتاج إلىٰ الدين لأنَّها قضايا مغروسة في فطرة الإنسان، أمَّا الجزئية فنحتاج إلىٰ الدين لتشخيص القضية الأخلاقية الجزئية وإلَّا نجد الخلاف في أنَّه ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أنَّه البعض يقول هذا ظلم وبعض يقول هذا عدل.

الزاوية الثانية: أنَّ الإنسان عندما يكون عنده دين يكون مدعاة للاتِّصاف بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الصفات الرذيلة كالعجب والرياء ونحو ذلك، فإذا كنت تؤمن بدين فالدين يدفعك نحو الأخلاق الفاضلة ويحرِّك نحوها ويبعدك عن الأخلاق الرذيلة كالتكبر والرياء والعجب ونحو ذلك.

الزاوية الثالثة: صحيح أنَّ اللاديني قد تكون عنده أخلاق، ولكن ما هو هدفه من التحلِّي بهذه الأخلاق؟ اللاديني قد تكون أخلاقه أخلاق تجارية، أنت

تذهب إلىٰ شخص في المتجر وإذا ترىٰ الابتسامة تملأ وجهه ولسانه ينقط عسلاً، ولكن هذا الإنسان نفسه في البيت مع أُسرته ومع عياله أسد ضاري، فهذه أخلاق تجارية لأجل تبرير تجارته[1].

(١) محاولات فصل الدين عن الأخلاق: إمَّا بشأن محاولات الفكر البشري - المنقطع عن الوحي - للإجابة عن المفاهيم الأخلاقية دون التمسُّك بالدين؛ فإنَّها في الواقع محاولات بقيت حبيسة الفشل إلىٰ يومنا هذا! وأصبح غالبها نظريات لم يقرّ بها كثير من نفس علماء الغرب، وذلك لأنَّ قبول النسبية وفقدان المبدأ الملزِم للإنسان في سلوكه لا ينتج ببداهة إلَّا هدماً للأخلاق، وهذا ما أثبتته التجربة في الغرب بوضوح.
لقد حاول الإلحاد المعاصر أنسنة الأخلاق باستخدام نظريات الفلسفة البشرية التي تمحور الغربي منها حول نظرية التطوُّر الداروييني، والنفعية الأخلاقية، إلَّا أنَّها لم تنتج إلَّا فشلاً ذريعاً؛ فالنفعية الأخلاقية التي أسَّسها الفيلسوف البريطاني جيرمي بنثام والتي تربط خير الفرد بخير الجماعة، وتقوم علىٰ مبدأ اللَّذة وتجنُّب الألم، والتي طوَّرها هربرت سبنسر ودمجها مع نظرية التطوُّر، لقد خرجت لنا بنتيجة مفادها: (إنَّ الأخلاق تقدَّم علىٰ مبدأ الملاءمة بين حياة الإنسان وقوانينها الأساسية؛ فينطلق الإنسان ليدرك أنَّ منفعته تزداد بالتعاون مع إخوانه، لكن هذه الأخيرة لا تستند إلىٰ فكرة الواجب الديني الميتافيزيقي، وإنَّما إلىٰ فكرة التطوُّر بمعناها العضوي القائم علىٰ تبادل المنفعة من أجل البقاء)، وعلىٰ الرغم من أنَّه لا يمتلك هؤلاء برهاناً يمكن التدليل به علىٰ أنَّ اللَّذة والمنفعة المادية هي الغاية العظمىٰ لكلِّ نشاط إنساني إلَّا أنَّ صلب المشكلة يكمن في معايير معرفة اللَّذة والألم، وهنا تظهر النسبية لديهم بأوضح صورها لتفسد علىٰ المنظِّر الغربي عملية أنسنة الأخلاق.
والداروينية التي تنتهي إلىٰ الاعتراف بأنَّ الإنسان (وتحت واجهة الوعي المحترمة، مع نظامه الأخلاقي المنضبط ونياته الحسنة، تكمن فيه القوىٰ الغريزية الفجة للحياة كحيوانات المحيطات الهائلة والغابات التي تفترس وتدمّر إلىٰ ما لا نهاية)، كان أبوها الأوَّل في شكٍّ من قدرات عقل الإنسان بالأساس؛ فقد عبَّر عن مشاعره في بعض رسائله قائلاً: إنَّ شكاً فظيعاً ينتابني دائماً وبشكل متكرّر حول قناعات عقل الإنسان والتي بدورها تطوَّرت من عقول كائنات أدنىٰ.←

←هل هذه القناعات تحمل أيّ قيمة أو تستحق أدنىٰ ثقة؟
هل من أحد يثق بقناعات عقل القرد؟
هل أنَّ عقلاً كهذا يحمل قناعات أصلاً؟!
فما الحاجة إذاً للمنطق ولأنسنة الأخلاق بناء علىٰ قدرات الإنسان العقلية؟
والحال أنَّ الأساس نفسه موضع شك وريب وسؤال؟!
ألا يدفعنا ذلك إلىٰ القول بأنَّ الضوابط المنطقية إن هي إلَّا سمة عارضة للنوع البشري، وأنَّها قد تكون مختلفة ومتغيِّرة في سياق هذا التطوُّر في مستقبل الإنسان؟ وأمام هذا التشكيك هزت الدراوينية رأسها في حيرة خرقاء!!
في الواقع أنَّ النسبية الأخلاقية تعرَّف بأنَّها: (القول بأنَّ الأفعال الصائبة أخلاقياً تختلف من ثقافة إلىٰ أخرىٰ، وليس هناك صواب مطلق في مجال الأخلاق.. والتي ينظر إليها أنصارها باعتبارها رحابة في الأفق.. تؤدِّي حتماً إلىٰ التشكُّك فيما إذا كان هناك صواب مطلق حقاً في مجال الأخلاق).
وعلىٰ الرغم من وضوح العلاقة بين أنسنة الأخلاق وبين النسبية الأخلاقية، إلَّا أنَّ منظِّري المذهب الإنساني في الغرب تفطَّنوا لخطورة هذا الأمر، وحاولوا أن يتبرؤوا من مذهب النسبية الأخلاقية.. يقول (ستيفن لو) أحد أشهر منظري المذهب الإنساني: (كثيراً ما يتم تصوير الإنسانويين المعاصرين علىٰ نحو مبالغ فيه علىٰ يد معارضيهم علىٰ أنَّهم مؤيِّديون للنسبوية، ولا سيّما النسبوية الأخلاقية.. إلَّا أنَّ الإنسانويون معارضون للنسبوية عامّة وللنسبوية الأخلاقية خاصة).
ولكن في الحقيقة لم يستطع ستيفن لو – فضلاً عن غيره – إقامة أي حجّة تدحض ادِّعاء النسبوية هذا، بل إنَّ التأمُّل الدقيق لا يوصلنا إلَّا إلىٰ هذه النتيجة الواضحة.
ولذلك يتَّسق مايكل روس الفيلسوف الملحد الشهير مع هذه النتائج ويذهب إلىٰ آخر نتائج هذا الالتزام ليقول: إنَّ الأخلاق ليست سوىٰ وهم يساعدنا علىٰ البقاء والتكاثر.
ولا عجب من هذا، فإنَّ المغالاة في النسبية يقود إلىٰ العدمية، بما يترتَّب عليه من خسارة فضيلة اليقين ومنزلة الإحسان، والإغراق في الارتياب والحيرة واللاحسم.
وعلىٰ الرغم من أنَّ ديفيد هيوم – وهو فيلسوف ذو أهمية خاصة لدىٰ فلاسفة الإنسانوية كما قال ستيفن لو– يرىٰ أنَّ المعتقدات الأخلاقية غير قابلة أساساً للتبرير بالاحتكام إلىٰ العقل أو الخبرة؛ مؤكِّداً أنَّه لا ينافي العقل أنِّي أفضّل تدمير العالم بأسره علىٰ أن ←

← يخدش إصبعي، إلَّا أنَّ الإنسانويين يصرّون علىٰ إنكار الزعم القائل بأنَّه لا يمكن وجود قيمة أخلاقية بدون دين وإله، وأنَّ البشر لن يكونوا أخياراً دون الإله أو دون دين يرشدهم...

وبانتظار بيان المنهج الإنساني في كيفية وضع منهج أخلاقي وتحديد القيم الأخلاقية علىٰ أساس إنساني، يجيب ستيفن لو عن سؤال: (كيف يتأتىٰ لنا معرفة الصحيح والخاطئ)؟ قائلاً: يجب علينا أن نقرِّر بأنفسنا الصحيح والخاطئ، لا أن نعهد بهذا الأمر إلىٰ سلطة دينية! و(شئت أم أبيت، لا مفرّ من أداء دور الإله)، وبهذا يكشف ستيفن لو عن فكرة الإله الخفي، ويعترف بضرورة الإيمان بدين ثابت من حيث لا يشعر، ولكن ماذا حدث عندما لعب الإنسان دور الإله؟ هل تحسَّنت حياة الإنسان؟

(يعد صلب سؤال الأخلاق هو: ماذا ينبغي أن نفعل)؟ وهذا السؤال في الحقيقة يشكِّل كابوساً يراود الإنسانية منذ قرَّرت القيام لوحدها والتخلِّي عن الإله.

وإذا عدنا للتاريخ وهو خير مخبر، فالتاريخ (ليس معرفة وتأمُّلاً فحسب)، نجد أنَّ الإنسان وقع في حيرة واضطراب وعاد ناكصاً علىٰ عقبيه بعد هذه الخطوة.

إنَّ فلاسفة الفكر البشري - بعد فقدهم للدين- قد أدركوا جيّداً أنَّهم ملزمون بالعثور علىٰ أساس آخر يضمن التزام الإنسان بالأخلاق، ليحمل الناس علىٰ السلوك الكريم بوصفهم مواطنين وأزواجاً وآباء وأبناء، ولكنّهم لم يعثروا عليه، ولم يكونوا إطلاقاً واثقين من إمكان السيطرة علىٰ هذا الحيوان البشري دون ضوابط أخلاقية دينية.

فقد انتهىٰ فولتير وروسو إلىٰ الاعتراف بضرورة الدين لتحقُّق الأخلاق، أمَّا ديدرو ففي النصف الثاني من حياته فكر مليّاً في وضع أخلاقيات طبيعية، ثمّ اعترف بفشله؛ فقال: (إنِّي لم أجرؤ علىٰ أن أخط أوَّل سطر)، ثم تساءل ديورانت قائلاً: (ولنسأل الآن أيّ ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات علىٰ المعتقدات الدينية؟ وفي جوابنا عن هذا السؤال يجب ألا نصوِّر النصف الأوَّل من القرن الثامن عشر في صورة مثالية.

لقد قال الفيلسوف والأديب الفرنسي فونتنيل قبيل موته عام ١٧٥٧م: إنَّه يتمنّىٰ لو مدَّ في أجَله ستون سنة أخرىٰ ليرىٰ النهاية التي تنتهي إليها الخيانة الزوجية المستشرية والخلاعة وتحلل جميع العلاقات، كما قال: (ولربما يقول فلاسفة العلمانية والحداثة ←

←إنَّهم فشلوا في التفكير إلىٰ حدٍّ كبير، ولكنهم علىٰ أيِّ حال كانوا مسئولين بقدر ما استخفوا بأثر الدين والتقاليد في ضبط الغرائز الحيوانية للبشر.

ودونك هذه الحقيقة المربكة: (لم يكن القرن العشرون عصر سلطة الدين لكن كان مروّعاً.. إنَّ لينين، استالين، هتلر، ماؤو، وغيرهم... هؤلاء لا يمكن أن يحسبوا ضمن القادة الدينيين للبشرية، وأيضاً لا يمكن لأحد أن يجادل في أنَّ فظائع القرن العشرين كانت غير متوقّعة.. نعم جاءت كالصدمة إلَّا أنَّها لم تكن مفاجئة؛ فقد هتف إيفان كارمازوف: إن لم يكن الله موجوداً فكلّ شيء مباح.

وذلك خلال القرن التاسع عشر، وبينما كان المعتقد الديني ينحسر خارج مؤسّسات الثقافة الغربية، انتاب أهل التفكير إحساس مزعج بأنَّ انحساره مؤذّن بظهور شر عظيم في العالم، وقد كانوا محقّين في هذا! فما الذي بقي لكي يجعل الناس أخياراً؟ لا شيء.

هذا جواب التجربة التاريخية والتفكير العادي الذي أعياه القلق).

وهكذا بقي الإنسان المعاصر – المبتعد عن الدين – يعيش أزمة الشعور بالحاجة الماسّة إلىٰ قيم تعطي حياته مفهوماً ومعنىٰ، وممّا لا شك فيه أنَّ المنبع الوحيد الذي يستطيع أن يستمد منه قيمة إنَّما هو الإيمان الديني الصحيح.

سؤال يطرح نفسه: هل يعني هذا أنَّ الإنسان لا يمكن أن يكون خيِّراً وخلوقاً دون أن يؤمن؟

لقد أجاب المفكر البوسني الشهير علي عزت بيجوفيتش عن هذا السؤال قديماً، وقال مقولته الشهيرة: (يوجد ملحدون علىٰ أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي؛ والسبب هو أنَّ أخلاقيات اللاديني ترجع في مصدرها إلىٰ الدين.. دين ظهر في الماضي ثم اختفىٰ في عالم النسيان، ولكنه ترك بصماته قوية علىٰ الأشياء المحيطة).

بهذه الكلمات يوضِّح لنا بيجوفيتش إشكالية عميقة تتمثَّل بقضية الإلزام الخلقي، والذي يقصد به جانب الإلزام والتكليف في الأخلاق، فالأخلاق ليس مجرَّد التصنُّع بما يفرح الآخر أو بحث عن نتائج سارّة أو غايات سعيدة أو خبرات نافعة، بل هو قانون يلتزم به بنو الإنسان.

ولابدَّ للشخص المفكِّر أن يواجه عاجلاً أم آجلاً تلك المشكلة التي هي أصعب المشكلات الأخلاقية جميعاً، وأعني بها: من أين تأتي قوّة الإلزام الخلقي؟ إنَّ أيّ إلزام يتضمَّن ضرورة قيام شخص ما بعمل شيء، بحاجة إلىٰ مصدر لهذه الضرورة فإن ←

الحاجة الثالثة: الحاجة التشريعية والقانونية:

الإنسان كائنٌ اجتماعي يستطيع العيش مع غيره بشكل طبيعي، هذه طبيعة الإنسان هكذا، لمّا يعيش مع غيره يحدث هناك تنافس علىٰ المنافع، هذه أرض خصبة أنا أريدها وأنت تريدها، وهذا ماء وفير أنا أريده وأنت تريده، وهذه ثروة

←كان الإنسان يمكنه أن يطبّق هذه القواعد الأخلاقية في حال الرخاء، فإنَّه لن يضمن استمرار العمل بها في حال الشدّة إلَّا إذا عرف مصدر الإلزام بها واعتقد به، وكان إلزاماً حقيقياً وإيماناً كاملاً لا نسبياً.

والإلزام الأخلاقي عند المؤمن: (حالة مركّبة من المعاني العقلية والمعرفية ولوازمها العاطفية، فبعضها راجع إلىٰ مصدر الأخلاق وبعضها راجع إلىٰ طبيعة الأفعال الموجودة وبعضها راجع إلىٰ الآثار المترتّبة عليه، ولقد حاول كثير من غير المؤمنين أن ينشئوا مرجعاً يحدِّد لهم الإلزام الأخلاقي في المجتمعات الإنسانية، كقولهم: إنَّ المجتمع له سلطة علىٰ الناس وأخلاقهم أو إنَّ المنفعة هي التي تدفعهم للالتزام بالأخلاق إلَّا أنَّها باءت بالفشل.

ويرجع هذا الفشل إلىٰ إنكار وجود الله سبحانه وتعالىٰ ومصدرية تشريعه لضوابط الأخلاق؛ فإنَّ إنكار الله تعالىٰ - ولو بالفكر فقط- سيفكِّك جميع الأشياء بالتأكيد.. كما صرَّح بذلك جون لوك وقال إيمانويل كانط: (شيئان لا يفتآن يبعثان في النفس الإعجاب والروعة: السماء المرصّعة بالنجوم من فوقي، والقانون الخلقي في باطني).

وفي الختام يمكن إيجاز أهمّ ما قدَّمناه في هذه الإجابة بأنَّ (نسبية الأخلاق) تعدّ الركن الركين لأنسنة الأخلاق لدىٰ فلاسفة الإلحاد، وهي التي تنتج عدم ضمان التزام الإنسان بالمبادئ الأخلاقية العامّة والخاصّة، ولا يخفىٰ أنَّ القول بنسبية الأخلاق له تبعات كارثية علىٰ الإنسان ومجتمعه، منها: (إخلاء المسؤولية) فمن ينكر ثبوت الضوابط الأخلاقية سوف لا يعترف ولا يقبل مسؤوليته تجاه أيّ سلوك سلبي يصدر منه؛ لأنَّه يفسِّره بطريقة تبرّره له وتنفعه تمسُّكاً بالنسبية، وهذا في نفسه يخالف أساس ضرورة التقنين في المجتمع الإنساني، ولك أن تتصوَّر عالمنا من دون ضوابط وقوانين!! [المصدر: مركز الأبحاث العقائدية].

أنا أريدها وأنت تريدها، ما هو الناظم الذي ينظم العلاقة بيننا ويشرِّع القوانين التي تجعل هذا الإنسان يعيش حياته الاجتماعية بسلام؟

نحن نقدِّم نظرية أنَّ الدين هو الذي يصنع ذلك بالنحو الأعلىٰ والأفضل، يقنِّن القوانين، يشرِّع التشريعات، يعطي الدساتير، ويجعل الناس يمشون عليها.

وهذا قد يثير سؤال: نحن نرىٰ أنَّ في بعض البلاد الغربية يقولون لك: نحن ناس علمانيون، لا نعتمد علىٰ الدين في دساتيرنا ولا أنظمتنا، ومع ذلك عندهم أنظمة وقوانين راقية وحياتهم الاجتماعية حياة متقدِّمة، فإذن لا حاجة إلىٰ الدين.

جواب ذلك: آخر ما وصل إليه الإنسان في الغرب وفي غيره هو نتاج عقلي، جرَّب الإنسان الفوضىٰ خلال فترات زمنية مختلفة، انتهىٰ العقلاء في هذا المجتمع البشري إلىٰ أنَّ النظام هو الذي يصون المصالح فتركوا الفوضىٰ لصالح النظام.

جرَّبوا التظالم فيما بينهم، واحد يظلم الثاني، رأوا أنَّ ثمنه باهظاً فانتهوا إلىٰ أنَّ العدالة هي التي تصون الحقوق فقرَّروا العدالة كقانون، وعلىٰ هذا المعدل.

وهذا الذي انتهىٰ إليه المجتمع البشري بعد تجارب وبعد محاولات وبعد تضحيات وبعد مرور السنوات قالته الأديان السماوية من زمان، قالت: (الله الله في نظم أمركم)، قالت: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ (النحل: ٩٠)، فآخر ما وصل إليه عقلاء البشر هو أوَّل ما جاء به الأنبياء والأديان من دون تجارب من دون مذابح من دون خسائر.

وإلىٰ هذا يشير أحد الفيزيائيين العظماء الألمان اسمه (ماكس ويبر) متوفىٰ سنة ١٩١٨م معروف في الفيزياء يقول هذا المعنىٰ: (إنَّ جميع المثل العالية

الموجودة في الحضارة الغربية من نظام واتِّحاد واقتصاد وسياسة وعلم واستقلال؛ كل هذه القيم العالية لها جذور في الديانة المسيحية).

نحن نقول هذا! والديانة المسيحية الموجودة في الغرب ليست هي الديانة الكاملة وإنَّما حرِّفت نسبياً، ومع ذلك أنتجت هذه القيم العالية، فكيف لو كان هؤلاء لديهم الديانة الأصلية؟ وكيف لو كان لديهم الديانة الكاملة وهي ديانة الإسلام؟ فإذا كان وجود لهذه الأنظمة في البلاد المتقدِّمة فهذا لا يعني أنَّها بمعزل عن الدين، فما انتهوا إليه أخيراً بعد محاولات وتجارب وتضحيات هو أوَّل ما بدأ به الأنبياء من دون هذه التجارب ومن دون هذه التضحيات.

وهنا تكمن حاجة أخرىٰ، وهي أنَّ الدين يعطي الباعثية نحو الخير، والزاجرية عن الشر.

فإنَّ التجارب البشرية التي انتهت إلىٰ سن القوانين لحفظ النظام، لا فائدة فيها ما لم تخلق الواعز الذاتي والنفسي للالتزام بالنظام العام، وهذا ما لا تعطيه القوانين الوضعية، لكن نجده بارزاً في الدين.

(وفي الواقع فإنَّ الدين علىٰ الإجمال من خلال الجامع في نصوصه ومضامينه وغاياته وافٍ بما يتوقع منه في مجال التقنين للإنسان من حيث الإرشاد إلىٰ المنحىٰ الفطري في التقنين، والتنبيه علىٰ الأصول العامة.

وجملة من التفاصيل المنبِّهة علىٰ الاتِّجاهات الصائبة، والإحالة في سائر الأمور إلىٰ المذاق الارتكازي العقلائي الذي يجده الناس من أنفسهم عند التأمُّل،

ويستطيع النخبة منهم من صياغته علىٰ شكل مواد قانونية، كما يعوَّل عليه الفقهاء في غير العبادات من الأبواب الفقهية)[1].

وعوداً علىٰ ما بدأناه من بيان ضرورتين لاستعظام العقيدة المهدوية ونفي تسخيفها، نذكر الضرورة الثانية وهي:

الضرورة الثانية: إدراك الرابطة الواقعية بين الإمام المهدي عجل الله فرجه والدين السماوي:

إذا انتهينا من خلال ما ذكرنا من أهمية وضرورة الدين، سينتقل العقل مباشرة إلىٰ وسيلة تسويق ذلك النظام السماوي الدقيق من مصدرها اللاهوتي إلىٰ مخاطبها الناسوتي، وإحراز الأمانة العلمية والعملية لعصمة الرسالة من أي خطأ متصوَّر، ولا يكون ذلك إلَّا من خلال الفرد المعصوم الذي تنتخبه السماء خاصة لطهارة صلبه وروحه وقوة عزمه وخلوصه، ولا ينطبق ذلك إلَّا علىٰ شخص الرسول صلى الله عليه وآله ويليه الإمام عليه السلام ليكمل مهمته ووظيفته في حمل الأمانة وتبليغها وحمايتها من التحريف والتشويه وإيصال كل فرد من المجتمع إليها.

وبذلك تكون الحاجة إلىٰ الإمام المهدي عجل الله فرجه حاجة ثابتة ومستمرة لا يمكن الاستعاضة عنها بأيِّ تطوير أو تحوير، ومن رفع يده عن ذلك فقد تنصَّل عن حاجته النفسية والروحية والعقلية، واتَّبع خَطل الرأي.

* * *

(١) راجع كتاب: اتِّجاه الدين في مناحي الحياة - السيد محمد باقر السيستاني: ص٤٧٧-٥٢١، للوقوف بنحو تفصيلي للموضوع.

الدرس الثاني

قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ضرورة إنسانية بل فطرية

تقدَّم أنَّ قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ضرورية تلازم ضرورة الدين كما تقدَّم، والآن نريد أن نقول إنَّ قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ضرورة إنسانية، بل فطرية، وأنَّها مرتبطة بالفكر الإنساني.

فظهور الإيمان بفكرة حتمية ظهور المنقذ العالمي في الفكر الإنساني عموماً يكشف عن وجود أُسس متينة قوية تستند إليها، تنطلق من الفطرة الإنسانية، بمعنىٰ أنَّها تعبِّر عن حاجة فطرية عامة يشترك فيها بنو الإنسان عموماً، وهذه الحاجة تقوم علىٰ ما جُبل عليه الإنسان من تطلُّع مستمر للكمال بأشمل صوره، وأنَّ ظهور المنقذ العالمي وإقامة دولته العادلة في اليوم الموعود يُعبِّر عن وصول المجتمع البشري إلىٰ كماله المنشود.

الآن نريد أن نبيِّن كيف ارتبطت قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه بالفكر البشري الديني واللاديني ضمن محاور:

المحور الأوَّل: نظرية نهاية التاريخ:

مقدمة:

يعتبر مصطلح (نهاية التاريخ - نهاية الكون - نهاية العالم) من المصطلحات المعاصرة التي تبدأ من تسعينات القرن العشرين وتمتد تداعياتها إلىٰ القرن الحالي

شاغلةً الفكر الإنساني لِما يحمله من مضامين مهمة حول المستقبل الإنساني وما يرافقه من أحداث معقَّدة ومرهقة وقاسية من جهة وانفراج وخلاص من جهة أخرىٰ للاتِّجاه نحو الاستقرار والرفاهية العادلة.

مبادئ تصورية:

(نهاية) استعملت - غالباً - كلمة نهاية في الفلسفة للدلالة علىٰ الغاية والوصول إلىٰ هدف أو نقطة ما، ويمكن القول إنَّ الفكر الديني يرىٰ أنَّ هناك هدفاً يبلغه مسار التاريخ ليحقِّق بذلك غايته (استقرار وسعادة الإنسان في الأرض)، وقد تابعه طلائع الفكر التنويري بطابع عقلاني غير ديني.

ويمكن القول في تعريف التاريخ هو تلك المسيرة البشرية من بدايات الخلق وحتَّىٰ البعث ورحلة الإنسان ما بين المبدأ والمنتهىٰ هي التاريخ.

نهاية (التاريخ، الكون، العالم): ويقصد به الحقبة الزمنية التي تسبق يوم القيامة - بالمعتقد الديني -، وهي الفترة التي تشهد اضطرابات سياسية واقتصادية وفكرية حتَّىٰ يستقر الأمر للصالح الإنساني العام عبر رؤية كونية وأيديولوجية واحدة.

ويمكن القول: إنَّ مصطلح النهاية ناظرٌ إلىٰ النقطة التي يصل فيها الوضع العالمي لينتهي من أفكار وأيديولوجيات ونزاعات ويبدأ علىٰ أساس صيغة أخيرة وشاملة لتاريخ البشر للاتِّجاه نحو عالمية التكامل والاتِّفاق والحكم الواحد (فهي النتيجة والأمور النهائية التي ستؤول إليها الأُمَّة والإنسانية).

وعلىٰ ضوء ذلك نرصد معنىٰ النهاية في الفكر الديني واللاديني بالنحو التالي:

أوَّلاً: نهاية التاريخ في الأديان السماوية:

١ - نهاية العالم في اليهودية[١] ويُقصد به آخر الأيَّام، وهو يشير إلىٰ مجموعة المعتقدات والآراء الخاصة بما سيحدث في آخر الأيَّام أو الأزمان، سواء ما يتعلَّق منها ببني إسرائيل، أو بالعالم، أو بالإنسانية جميعاً.

٢ - نهاية العالم في المسيحية[٢]: الأخرويات أو العقيدة عن الأمور الأخيرة، يعني: الأفكار السائدة عن أي حقبة من نهاية العالم المجيء الثاني والمصير الأبدي للبشر.

٣ - نهاية العالم في الإسلام: وتتبلور في تيارين السني والشيعي: وقد جاء وصف النهاية في الفكر الإسلامي كوصف ليوم القيامة الذي عبَّر عنه القرآن الكريم في لفيفٍ من آياته، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، وكقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (الفجر: ٢١).

فهناك مراحل ومواصفات مهولة يذكرها كتاب الله العزيز في تأكيد نهاية الدنيا والتحذير مما بعد ذلك لمدخلية عمل الإنسان في تحديد ما يمكن أن يلقاه فيه، إلَّا أنَّ الفكر الإسلامي حمل أيضاً أحداثاً تسبقُ الساعة يمكن وصفها بالانقلاب التاريخي الذي سيشهد أحداث كونية استثنائية وغير كونية منشأها ظهور المنقذ - الإمام المهدي عجل الله فرجه - مع اختلاف لقراءتين - الشيعة والسُنَّة - لشخصيته وأوصافه ووظائفه عجل الله فرجه.

---

(١) مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية: مجلد١٥، العدد٢ (نهاية العالم في اليهودية والمسيحية - الملك الالفي أنموذجاً).

(٢) صموئيل حبيب وآخرون - دائرة المعارف الكتابية: ج١، ص٩٧، مجلة البحوث العلمية للدراسات (المصدر السابق).

وهذه هي رؤية التيار التقليدي للفكر الإسلامي، وأمَّا ما يخص التيار التنويري منه فسنذكره ضمن البحث القادم.

ثانيًا: نهاية التاريخ في غير الأديان السماوية:

ويتمخَّض ضمن مراحل تاريخية يمكن تقسيمها بالنحو التالي:

١ - التاريخ القديم:

الذي قدَّم فيه أفلاطون[١] نظرية (المدينة الفاضلة) والتي تعتمد علىٰ تأسيس المجتمع البشري علىٰ المُثل والقيم والفطرة، فتكون تعاملاتهم مبنية علىٰ التفاهم وقبول الآخر وتبادل المنافع بالعمل المشترك علىٰ أساس الوظائف المحدَّدة لكلِّ فئة دون تنازع وتنافر، واعتماد مبدأ الملكية العامة، ليشترك الجميع في عنوان الوحدة الإنسانية.

٢ - التاريخ الحديث:

وكانت فكرة نهاية التاريخ تترنَّح حول حكومة القانون الوضعي لحسم الصراعات البشرية والسيطرة عليها بهيمنته علىٰ أُسس أيديولوجية معيَّنة، وفي ذلك قُدِّمت أطروحات تختار كل منها أيديولوجية تناسبها:

نهاية التاريخ عند (كانط):

لقد حاول (إيمانوئيل كانط) في دراسته نظرة في التاريخ العام بالمعنىٰ العالمي التفكير في التاريخ الشمولي للإنسانية الذي يرىٰ من خلاله وجود حركة منتظمة

---

(١) أفلاطون: وهو فيلسوف وأديب وقانوني يوناني عام (٤٢٧ ٣٤٧ ق.م)، وقد أسَّس أكاديمية خاصة للأعمال الفلسفية، ووضع تصوراً ممنهجاً لبعض المفاهيم وعلاقتها مع علم الميتافيزيقيا (كالأخلاق، وعلم النفس)، وتوسّع أيضاً في مجالات أخرىٰ غير الفلسفة كالنواحي الرياضية والعلمية.

في التاريخ الإنساني تتحرَّك نحوه غاية تسعىٰ من خلالها تحقيق الحرية الإنسانية، فهو يرىٰ أنَّنا إذا أخذنا بعين الاعتبار تاريخ كل المجتمعات والعصور والحضارات فإنَّ هناك عقلاً كونياً يتطلَّع باستمرار نحو تقدُّم الإنسان وتحقيق الحكومة العالمية التي تتحقَّق من خلالها الحرية والعدالة بموجب السلطة العليا للقانون الذي يمثِّله الدستور.

ويذكر (كانط) أنَّ غاية النوع الإنساني هي الوصول إلىٰ مجتمع مدني يحكمه قانون عام، إذ يقول: المشكلة الكبرىٰ للنوع الإنساني والتي أرغمته الطبيعة علىٰ أن يجد لها حلًّا، هي الوصول إلىٰ تكوين مجتمع مدني يحكمه قانون عام[1].

نهاية التاريخ عند (هيجل):

يقول: إنَّ الهدف النهائي للعالم هو وعي حرية الروح، ولكن أحداً لم يعرف أو لم يعانِ بالأحرىٰ كما نعرف ونعاني في عصرنا أن لا تعين الذي تتَّسم به هذه الحرية.

فيتَّضح جليًّا أنَّ نصوص (هيجل) عن التاريخ العام ومساره جاءت مرتبطة بفكرة، ومبيِّن أنَّ التاريخ ينتهي بوعي حرية الروح وأنَّه لابدَّ من أن ينتهي هذا المسار إلىٰ تحقيق الروح لأهدافها في الوصول إلىٰ الكمال المنشود.

نهاية التاريخ عند (ماركس):

إنَّ النهاية الصحيحة إنَّما تنعقد بالفكر الشيوعي وإزاحة الرأسمالية، حيث تختفي الطبقات، ومن ثم يختفي الصراع ولا توجد حاجة إلىٰ الدولة، بل تستحوذ الطبقة الشعبية لإدارة الأشياء تحت عنوان الأُمّة الواحدة.

---

(١) نظرة في التاريخ العام بالمعنىٰ العالمي - ترجمة عبد الرحمن بدوي (إيمانوئيل كانط): ص٥٣.

٣ - التاريخ المعاصر:

ويمكن تمثيل (نهاية التاريخ) في هذه المرحلة علىٰ النحو التالي:

وفق دعوىٰ المنظِّر المعاصر (فوكاياما)[١] القائل: (إنَّه قد ظهر توافق مدهش في السنوات الأخيرة يتعلَّق بالديمقراطية الليبرالية كنظام حكم، لانهيار الأيديولوجيات المنافسة - كالنظام الملكي الوراثي والفاشية وأخيراً الشيوعية - وقد أشرتُ فضلاً عن ذلك إلىٰ أنَّ الديمقراطية الليبرالية بإمكانها أن تشكِّل فعلاً (منتهىٰ التطوُّر الأيديولوجي للإنسانية)، والشكل النهائي لأيِّ فكر إنساني، أي أنَّها من هذه الزاوية نهاية التاريخ)[٢]، ويظهر جلياً أنَّ العالم يتَّجه نحو التسليم إلىٰ العلمانية الليبرالية لتكون الخيار الأفضل الوحيد للبشرية[٣].

---

(١) (ولد ٢٧ أكتوبر ١٩٥٢) هو عالم وفيلسوف واقتصادي سياسي، مؤلف، وأستاذ جامعي أميركي. اشتهر بكتابه نهاية التاريخ والإنسان الأخير الصادر عام ١٩٩٢، والذي جادل فيه بأنَّ انتشار الديمقراطيات الليبرالية والرأسمالية والسوق الحرة في أنحاء العالم قد يشير إلىٰ نقطة النهاية للتطور الاجتماعي والثقافي والسياسي للإنسان.

(٢) (فوكاياما، فرنسيس) - نهاية التاريخ والإنسان الأخير - ترجمة فؤاد شاهين وآخرون: ص٢.

(٣) سيناريوهات العظيم:

يصل البعض إلىٰ فكرة اليأس من وصول البشرية إلىٰ غاية واضحة توافق الأمل الإنساني في تحقيق العدالة والاستقرار الهنيء في الاجتماع الإنساني، مما يدفعها إلىٰ القول ببقاء الاضطرابات الراهنة وصراع الحضارات ومحاولة غلبة إحداها علىٰ الأخرىٰ حتَّىٰ وقوع النهاية الطبيعية لِما ابتدأه الكون وفق أحدث تفسير له بالانفجار العظيم، إذ تشير العلوم الطبيعية إلىٰ ضرورة أفول نجم تلك البداية العظيمة بحدث مسانخ لها وبنحو الانطواء والنهاية، فكانت الفرضيات العلمية المتصوَّرة بالنحو التالي:

١ - التمزُّق العظيم: وتعتقد بصيرورة أجزاء الذرة - المكون الرئيسي في تكوين المادة - إلىٰ عدم القدرة علىٰ التماسك وداعوية التشتُّت والتفرُّق والتمزُّق، بسبب تساوي كثافة ←

المحور الثاني: ظهور المصلح في الفكر الإنساني اللاديني:

الملاحظ أنَّ الايمان بحتمية ظهور المصلح العالمي ودولته العادلة التي تضع فيها الحرب أوزارها ويعم السلام والعدل في العالم لا يختص بالأديان السماوية بل يشمل المدارس الفكرية والفلسفية غير الدينية أيضاً، فنجد في التراث الفكري الإنساني الكثير من التصريحات بهذه الحتمية، فمثلاً يقول المفكر البريطاني الشهير (برتراند راسل): (إنَّ العالم في انتظار مصلح يُوحِّده تحت لواء واحد وشعار واحد)[1].

← الكون لكثافته الحرجة، فإنَّه مستمر بالتوسُّع المتسارع مما يدفع بالمجرات بعيداً بعضها عن البعض الآخر بسرعة فائقة، وسينعقد سرعته تدريجياً حتَّىٰ إذا أصبحت كثافته أعظم سيتوقف توسعه ويبدأ الكون بالانهيار علىٰ نفسه.

٢ - التجمُّد العظيم: ويُسمىٰ أيضاً بـ(موت الحرارة)، حيث تتشتَّت الحرارة بسبب سرعة توسع الكون ثم يستمر الكون بالبرود حتَّىٰ تصفّر الحرارة في جميع أجزاء الكون مما يُعجِز أجزاء الكون علىٰ الوصول إلىٰ موادها الخام لتستمر بالعمل وعندئذٍ يموت الكون وينتهي.

٣ - الانسحاق العظيم: إذ يصبح معدّل كثافة الكون كافياً لإيقاف التوسُّع وتبدأ عملية الانهيار الذاتي، ويعتمد هذا السيناريو علىٰ الطبيعة الهندسية المغلقة (كسطح كرة للكون)، وقد يكون سبب هذا الانقلاب إمَّا انقلاب في تأثير التوسع الحالي للمادة المظلمة، أو كنتيجة للجاذبية التي تجمع أكحلية الزمكان إلىٰ نقطة واحدة.

٤ - الشفط العظيم: ويمكن توضيح الفكرة بتشبيه الكون بفقاعة في إناء من الماء المغلي مما يمكِّن الفقاعات الأخرىٰ أن يصطدم بعضها بالآخر فينتج نهاية الفقاعة، فكذلك الكون إذا صار المبنىٰ علىٰ صيرورة الكون المشهود جزء من أكوان متعدِّدة.

(١) المهدي الموعود ودفع الشبهات عنه - للسيد عبد الرضا الشهرستاني: ٦.

ويقول العالم الفيزياوي المعروف (ألبرت اينشتاين) صاحب النظرية النسبية: (إنَّ اليوم الذي يسود العالمَ كلّه فيه السلام والصفاء ويكونُ الناس متحابين متآخين ليس ببعيد)[١].

وأدق وأصرح من هذا وذاك ما قاله المفكر الإيرلندي المشهور (برناردشو)، فقد بشَّر بصراحة بحتمية ظهور المصلح وبلزوم أن يكون عمره طويلاً يسبق ظهوره؛ بما يقترب من عقيدة الإمامية في طول عمر الإمام المهدي عجل الله فرجه؛ ويرىٰ ذلك ضرورياً لإقامة الدولة الموعودة، قال في كتابه (الإنسان السوبرمان) - وحسب ما نقله عنه الدكتور عباس محمود العقاد في كتابه عن برناردشو - في وصف المصلح بأنَّه:

(إنسانٌ حيٌّ ذو بنية جسدية صحيحة وطاقة عقلية خارقة، إنسانٌ أعلىٰ يترقَّىٰ إليه هذا الإنسان الأدنىٰ بعد جهد طويل، وأنَّه يطول عمُرهُ حتَّىٰ ينيف علىٰ ثلاثمائة سنة، ويستطيع أن ينتفع بما استجمعه من أطوار العصور وما استجمعه من أطوار حياته الطويلة)[٢].

المحور الثالث: ظهور المصلح في الديانات غير الإسلام:

أوَّلاً: لمَّا نقول (أديان) ليس بالضرورة الأديان الإلهية يعني المسيحية والإسلام واليهودية لا، بل كلّ ما دان به الإنسان واعتقد به الإنسان سواء كان إلهياً أو غير إلهياً.

وثانياً: لمَّا نراجع التاريخ البشري بشكل عام نجد الأديان التي جاء في موروثها الديني من قريب أو بعيد فكرة المنجي الموعود هي ثمانية وهي كما يلي:

---

(١) المهدي الموعود ودفع الشبهات عنه - للسيد عبد الرضا الشهرستاني: ٦.
(٢) برناردشو - لعباس محمود العقاد: ١٢٤-١٢٥.

الزرادشتية التي هي أقدمها تقريباً لأنَّه قبل ١٠٠٠ إلىٰ ١٢٠٠ قبل الميلاد، الهندوسية البوذائية والكنفشيوسية والتائوية التي هذه معروفة بالأديان الصينية، واليهودية والمسيحية والإسلام فهه ثمانية.

هذه الأديان بالمعنىٰ العام من الدين لا الدين الإلهي، يعني كلّ ما دان به الإنسان بالمعنىٰ الذي حكاه الله سبحانه عن فرعون: ﴿إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ (غافر: ٢٦)، لأنَّه كان يعتقد هذا الذي يقوله للناس هو ما الدين الذي لابدَّ أن يدينون به.

المهم الأديان الرئيسية ثمانية، الزرادشتية الهندوسية، الأديان الصينية الثلاثة، والأديان الإبراهيمية المعروفة اليهودية والمسيحية والإسلام، وبشكل إجمالي في هذه الأديان عموماً، جاءت هناك كلمات مرتبطة بالمنجي الموعود أو بنظرية إقامة العدل الإلهي ونشير إلىٰ بعض النصوص في هذه الديانات:

ففي الديانة اليهودية:

جاء في سفر التكوين: (لقد سمعت دعاءك بخصوص إسماعيل، ها أنا أباركه وأثمره وأجعله كبيراً بما ماد، واثني عشر إماماً يكونون من نسله وسيكون أُمَّة عظيمة).

وجاء في التوراة في سفر أشعيا:

(سيخرج حاكم من سلالة يَسّىٰ، ويحكم فرع من أصوله، يحلُ عليه روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الله، فيفرح بمخافة الله، ولا يقضي بحسب ما يراه بعينيه، ولا يحكم بحسب ما يسمعه بأذنيه، إنَّما يقضي للفقراء بالعدل، ويحكم لمساكين الأرض بالإنصاف...).

وفي الديانة المسيحية:

ففي إنجيل لوقا:

(وستحدث علامات في الشمس والقمر والنجوم ويصيب الأُمم في ضيق شديد... ويغمىٰ علىٰ الناس من الخوف ومن توقع ما سيحل بالعالم، لأنَّ الإجرام السماوية ترتج ثم يرون إنساناً نجيباً آتياً في سحابة بكلِّ عزة وجلال، فعندما تبدأ هذه الحوادث قفوا وارفعوا رؤوسكم لأنَّ خلاصكم قريب).

وقد وردت فقرات كثيرة في العهد القديم تبشِّر بالمنقذ، وما نذكره إنَّما هو نزرٌ من قليل:

בראשית ٤٩ -١٠:

(לא יסור שבט מיהודה ומחקק מבין רגליו עד כי-יבוא שלוה ולו יקהת עמים).

وترجمة الآية بحسب المصادر العبرية: (لا يزول الحاكم والمشرِّع من نسل يهوذا حتَّىٰ يأتي الذي له تخضع الشعوب).

وجاء عن الكتب الدينية للهندوس: في أواخر الجك الرابع - أي الدورة الرابعة - يتَّجه أهل الأرض إلىٰ الفساد ويكفر أكثرهم ويرتكبون المعاصي الكبيرة ويحكمهم الأرذلون، والناس يومئذٍ أشبه بالذئاب يأكل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً، ويفسد الكهنة ورجال الدين، والحق يكون مع اللصوص، ويُحتَقَر المتَّقون الزاهدون، هناك يأتي برهمن كلا - أي رجل الدين الشجاع - فيطهِّر الأرض بسيفه القاطع من المفسدين والأرجاس ويحفظ الطيبين والأطهار...).

ويعتقد البوذيون: (أنَّ في كل زمان تظهر شخصيات كاملة ليعلِّموا أتباعهم المحبَّة والصبر والتضحية ويعلِّمونهم تعاليم بوذا، وهؤلاء بدورهم يرشدون الناس...).

ويعتقد المجوس: (أنَّ في آخر الزمان يظهر شخص اسمه: (اشيزريكا) ويظهر معه شخص آخر اسمه (بتياره) - أي الدجال - فيفسد في الأرض عشرين عاماً ثم يحكم الأرض (اشيزريكا) فيحيي العدل ويبيد الظلم ويخضع له الحكام والسلاطين، فترحل الفتن والمصائب إلىٰ الأبد ليحل محلَّها الراحة والأمان...).

فالإجماع علىٰ حتمية ظهور المصلح العالمي مقترنٌ بالإيمان بأنَّ ظهوره يأتي بعد غيبة طويلة، فقد آمن اليهود بعودة عزير أو منحاس بن العازر بن هارون، وآمن النصارىٰ بغيبة المسيح وعودته.

وينتظر مسيحيو الأحباش عودة ملكهم (تيودور) كمهدي في آخر الزمان.

وكذلك الهنود آمنوا بعودة فيشنوا.

المحور الرابع: ظهور المصلح في الإسلام:

أمَّا في الفكر الشيعي فأشهر من نار علىٰ عَلَم، وأمَّا في الفكر السُنِّي:

جاء في البخاري في باب نزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[1].

وعن أمِّ سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»[2].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج٦، ص٥٦٩.

(٢) أبو داود السجستاني - سنن أبي داود - كتاب المهدي عليه السلام: ج٢، ص٣١٠.

قال ابن القيم: إنَّه رجلٌ من أهل بيت النبي، يخرج في آخر الزمان وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً، وأكثر الأحاديث علىٰ هذا تدل[١].

النتيجة: أنَّه وجدنا اشتراك الأديان السماوية - بفكرها التقليدي والتنويري - مع ما يقابلها من الفكر الوضعي - باستثناء البعض[٢] في قبول المخلِّص والمنقذ الذي سيتَّجه بالمجتمع العالمي نحو الأمن والاستقرار وتمكين نصيباً من العدالة فيه، نعم تمثَّل المخلِّص في الأديان السماوية - بفكرها التقليدي - بالرجل الصالح، وبالأيديولوجية ومنهج وضعي معيَّن - كالليبرالية - في مقابل ذلك الفكر التقليدي للأديان السماوية.

فيكون العنوان المشترك الجامع هو:

١ - ضرورة بلوغ نهاية التاريخ غاية الكمال للإنسان - وإن اختلفوا في مصداقه -.

٢ - ضرورة ظهور المصلح - وإن اختلفوا في مصداقه - لتحقيق ذلك الهدف.

ظهور المصلح في فكر السيد الشهيد الصدر قدس سره:

يقول العلامة الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره: (ليس المهدي عليه السلام تجسيداً لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب، بل هو عنوانٌ لطموح اتَّجهت إليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها، وصياغة لإلهام فطري أدرك الناس من

(١) المنار المنيف - لابن القيم: ص١٥١.
(٢) سيناريوهات العظيم.

خلاله – علىٰ تنوُّع عقائدهم ووسائلهم إلىٰ الغيب – أنَّ للإنسانية يوماً موعوداً علىٰ الأرض تحقّق فيه رسالات السماء مغزاها الكبير وهدفها النهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان علىٰ مرِّ التاريخ استقرارها وطمأنينتها بعد عناء طويل.

بل لم يقتصر هذا الشعور الغيبي، والمستقبل المنتظر علىٰ المؤمنين دينياً بالغيب، بل امتد إلىٰ غيرهم أيضاً وانعكس حتَّىٰ علىٰ أشد الأيديولوجيات والاتِّجاهات رفضاً للغيب، كالمادية الجدلية التي فسَّرت التاريخ علىٰ أساس التناقضات وآمنت بيوم موعود، تُصفَّىٰ فيه كلّ تلك التناقضات ويسودُ فيه الوئامُ والسلامُ.

وهكذا نجد أنَّ التجربة النفسية لهذا الشعور والتي مارستها الإنسانية علىٰ مرِّ الزمن من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين بني الإنسان)[1].

والملاحظ في النص المتقدِّم أنَّ الشهيد الصدر قدس سره يريد أنْ يستشهد علىٰ فطرية العقيدة المهدوية بعموميتها عند جميع الملل والنحل، ولكي يكون هذا الأمر واضحاً ننقل بعض الكلمات، ولكن في القسم الثاني من هذا الكتاب، والتي تدلِّل علىٰ عمومية الاعتقاد، وبالتالي كونه من قبيل الإلهام الفطري عند بني البشر.

ويبيِّن أنَّ فكرة المهدي أقدم من الإسلام وأوسع منه، بقوله: (فإنَّ معالمها التفصيلية التي حدَّدها الإسلام جاءت أكثر إشباعاً لكلِّ الطموحات التي انشدَّت إلىٰ هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الديني.

---

(١) الصدر، السيد محمد باقر، بحث حول المهدي عجل الله فرجه: ص٧-٨.

إذن فالإيمان بالفكرة التي يجسِّدها المهدي الموعود هي من أكثر وأشد الأفكار انتشاراً بين بني الإنسان كافة، لأنَّها تستند إلىٰ فطرة التطلُّع للكمال بأشمل صوره، أي أنَّها تعبِّر عن حاجة فطرية، ولذلك فتحقُّقها حتمي؛ لأنَّ الفطرة لا تطلب ما هو غير موجود كما هو معلوم.

ظهور المصلح في فكر السيد العلامة الطباطبائي رحمه الله:

يقول السيد العلامة رحمه الله: (وفقاً لقانون الهداية العامة الجارية في جميع أنواع الكائنات، فالنوع الإنساني منه مجهَّز بحكم الضرورة بقوة (قوة الوحي والنبوة) ترشده إلىٰ الكمال الإنساني والسعادة النوعية، وبديهي أنَّ الكمال والسعادة لو لم يكونا أمرين ممكنين للإنسان الذي تعتبر حياته حياة اجتماعية، لكان أصل التجهيز لغواً وباطلاً، ولا يوجد لغو في الخلقة مطلقاً.

وبعبارة أخرىٰ، أنَّ البشر منذ أن وجد علىٰ ظهر البسيطة كان يهدف إلىٰ حياة اجتماعية مقرونة بالسعادة، وكان يعيش لغرض الوصول إلىٰ هذه المرحلة، ولم تتحقَّق هذه الأمنية في الخارج، لما مُني الإنسان نفسه بهذه الأمنية.

فلو لم يكن هناك غذاء لم يكن هناك جوع، وإذا لم يكن هناك ماء، لم يكن عطش، وإذا لم يكن تناسل، لم تكن علاقة جنسية.

فعلىٰ هذا وبحكم الضرورة (الجبر) فإنَّ مستقبل العالم سيكشف عن يوم يهيمن فيه العدل والقسط علىٰ المجتمع البشري، ويتعايش أبناء العالم في صلح وصفاء ومودَّة ومحبَّة، تسودهم الفضيلة والكمال.

وطبيعي أنَّ استقرار مثل هذه الحالة بيد الإنسان نفسه، والقائد لمثل هذا المجتمع سيكون منجي العالم البشري، وعلىٰ حدِّ تعبير الروايات سيكون (المهدي عجل الله فرجه).

ونجد الأديان والمذاهب المختلفة القائمة في العالم مثل الوثنية، واليهودية والمسيحية والمجوسية والإسلام تبشِّر بمصلح ومنج للبشرية، وإن اختلف في تصوِّره، وما حديث النبي الكريم صلى الله عليه وآله المتَّفق عليه: «المهدي من ولدي» إلَّا إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ[1].

النتيجة التي ننتهي إليها أنَّ قضية المنقذ والمصلح وقيام دولة العدل قضية عاشت في أعماق الفكر البشري والفطرة الإنسانية.

* * *

(١) الشيعة في الإسلام: ٢٨٩.

الدرس الثالث

محاكمة النظريات في تشخيص المنقذ وبيان أرجحها

بعد أن تقدَّم أنَّ المنقذ والمصلح ضرورة بشرية، بل قضية فطرية، وهذه قضية اشتركت فيها النظريات الوضعية والأديان السماوية، نأتي الآن لتشخيص صلاحية وعدم صلاحية هذه النظريات الوضعية والأديان في تقديم المنقذ والمصلح للعالم فنقول:

المنقذ في الفكر الوضعي:

جليٌّ الفرق بين الأديان السماوية الآنفة وبين غيرها كالفكر الوضعي الذي يشخِّص المخلِّص في الأيديولوجيات الوضعية، والبون شاسع بينهما إذ يُرتجىٰ خالق السماوات والأرض ومن فيهما في إعداد وإرسال ما يروي ظمأ مخلوقه الضعيف – الإنسان – في تحصيل حقوقه والعدل والإنصاف في شأنه، أو يأمل من ذلك الخائر العاجز أن يعثر علىٰ ضالَّته بذاتياته التي لا تنفك عن النقص والمحدودية.

ونكتفي ببيان عدم صلاحية النظريات الوضعية في تقديم المنقذ لإنقاذ المجتمع والوصول إلىٰ السعادة بما ذكره فلاسفة ومفكِّري الغرب.

الدكتور (ألكسيس كاريل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول): (إنَّ الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنَّها لا تلائمنا، فقد أنشئت

دون أيَّة معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنَّها تولَّدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلىٰ الرغم من أنَّها أنشئت لمجهوداتنا، إلَّا أنَّها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا)[١].

المفكِّر (لاموني): (إنَّ الجنس البشري بكامله يمشي بخطىٰ حثيثة إلىٰ الهلاك، إنَّه في النزاع الأخير، كذلك الإنسان الجريح المسكين الذي لا يرجىٰ له شفاء، فكثرة الأخطاء في حضارتنا تجرّها إلىٰ الغرق)[٢].

(ماكنيل): (إنَّ الحضارة الغربية في الطور الأخير من أطوار حياتها)[٣].

الكاتب الإنجليزي (كولن ولسون) في كتابه (اللامنتمي): (إنَّ الحضارة المعاصرة حضارة ذات تطوُّر ميكانيكي عال، استمر ثلاثة قرون يصاحبه فراغ كبير لا تعرف الحضارة كيف تنفقه)[٤].

(برناردشو): (كنت أعرف دائماً أنَّ الحضارة تحتاج إلىٰ دين، وأنَّ حياتها أو موتها يتوقَّفان علىٰ ذلك)[٥].

المؤرِّخ الأمريكي (ويليام ديورانت): (انهيار منظومة القيم الدينية والأخلاقية في طليعة أسباب سقوط الحضارات)، ومن مقولاته الشهيرة: (الحضارات العظيمة لا تنهزم إلَّا عندما تدمِّر نفسها من داخلها).

---

(١) الإنسان ذلك المجهول: ص٣٨.
(٢) الإسلام ومستقبل البشرية: ص١٥-١٦.
(٣) المصدر السابق: ص١٩.
(٤) الإسلام ومستقبل البشرية - د. عبد الله عزام: ص١٦.
(٥) سقوط الحضارة - كولن ولسن: ص٣٩٦.

وتحدَّث (جون فوستر دالاس) وزير خارجية أمريكا الأسبق في كتابه (حرب أم سلام) عن إفلاس الحضارة الغربية، وسبب ذلك: (نقص الإيمان الصحيح القوي، وهو النقص الذي لا يعوِّضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثُرت اختراعاتهم)[1].

رئيس أكاديمية نيويورك السابق الذي يقول: (إنَّ حضارتنا تنتحر لغياب الوازع الديني، وسوف يجيء يوم قريب، يتحوَّل فيه النظام إلىٰ فوضىٰ، وينعدم التوازن وضبط النفس، ويتفشَّىٰ الشر في كلِّ مكان، ويبدو أنَّ الأمور لن تستقر إلَّا بالعودة إلىٰ الله)[2].

ومن هنا نجد القرآن الكريم يؤشِّر إلىٰ أنَّ هذه الأعمال التي تكون بعيدة عنه (سبحانه وتعالىٰ) ما هي إلَّا سراب.

قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّىٰ إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ (النور: ٣٩).

إذن نستطيع من هذا أنَّ نقول: عدم صلاحية النظريات الوضعية للقيام بهذه المهمة والوصول إلىٰ دولة العدل.

فيبقىٰ الكلام في النظريات الدينية وبشكل مختصر نقول:

أوَّلاً: أنَّ الديانات - غير الإسلام - الموجودة الآن بالفعل فهي قد انحرفت انحرافاً كبيراً عن الصواب، وهذا ما تجده بشكل واضح فيما تصوّره من صفات لله (سبحانه وتعالىٰ) ومن صفات لأنبيائه ومن تعاليم باطلة.

---

(١) المستقبل لهذا الدين: ص٦٧-٦٨.

(٢) الله أو الدمار: ص٢٠٩.

فإن قلت: إنَّه توجد التوراة الحقيقية ويوجد الإنجيل الحقيقي ويخرج عند قيام دولة الحق.

فنقول: إنَّ مقتضىٰ تكامل الأديان وخاتميتها بالدين الإسلامي الذي جاء به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله هو عدم كفاية تلك التعاليم الموجودة في التوراة والإنجيل لإيصال المجتمع إلىٰ الهدف المنشود والكمال الذي رسمه الله (سبحانه وتعالىٰ) لعباده، فمثلاً قد ورد بكون المهدي خاتم الأئمة وأنَّ عيسىٰ عليه السلام ينزل في وقت ظهوره فيصلِّي خلفه[1]، فنقول:

المخلِّص في الديانة اليهودية:

أمَّا اليهود فيعتقدون أنَّ المخلِّص الموعود هو من بني إسرائيل، وأنَّه من نسل النبي داود عليه السلام، وقالوا: إنَّ هذا المخلِّص - والذي أسموه بالمسيح - سوف يخرج في آخر الزمان، فيقيم العدل ويُصلح ما فسد من أخلاق الناس وسلوكياتهم، وتنعم الأرض بعد مجيئه بالخير والبركات.

ولم يحدِّد اليهود معالم شخصية هذا المخلِّص ولا مكان ظهوره، كما أحاطوه بالغموض واكتفوا بالقول: إنَّهم ينتظرون هذا المخلِّص ليكشف هو عن نفسه عند ظهوره، وهذا الموقف من اليهود له أسبابه الخاصة الكامنة في أنفسهم، لأنَّ ما جاء في أسفارهم لا يتَّفق مع رغباتهم وأهوائهم في كون هذا المخلِّص يعود إليهم نسباً، يعتقد اليهود بأنَّهم (شعب الله المختار)، وأنَّ عقيدة المخلِّص أصيلة في الديانة اليهودية قد أكَّدت عليها كتبهم المقدَّسة عن طريقِ العديد من التنبؤات

(١) كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق: ج١، ص٢٢.

والرؤىٰ، نعم ذكروا أنَّه المخلِّص الموعود هو من بني إسرائيل، وأنَّه من نسل النبي داود عليه السلام.

وعلىٰ الرغم من ذلك فقد جاءت بعض النصوص واضحة المعالم، بيِّنة الحجة، كما في الفقرة (٢٠) من الفصل (١٧) من سفر التكوين وفيه: (لقد سمعت دعاءك بخصوص إسماعيل، ها أنا أباركه وأثمره وأجعله كبيراً (أو عظيماً) بما ماد واثني عشر إماماً يكونون من نسله، وسيكون أُمَّة عظيمة)[1].

فهم يجدون نصوص أسفارهم تُعيِّن شخصيةً لا تمت إليهم بصلة، لا من الناحية العقائدية ولا من الناحية النسبية، فهو ابن النبي الموعود في آخر الزمان الذي تدين جميع البشرية بدينه، ويكون هذا النبي من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وليس هو من نسل إسحاق كما كانوا يتمنَّون، فتعمَّدوا إلىٰ إخفاء الكثير من معالم هاتين الشخصيتين وأحاطوهما بالرموز والكنايات كي لا يتعرَّف عليهما غيرهم من الأُمم.

إذن التناقضات اليهودية في تقديم المنقذ بالإضافة لما ذكرناه أوَّلاً، وما ذكروه من نصوص تطابق ما عند الدين الإسلامي في شخص المنقذ يبطل ما اعتقدوه في تحديد هوية المنقذ.

المخلِّص في الديانة المسيحية:

إنَّ معالم المخلِّص ينتزعها اليهود والنصارىٰ مع تأويل بما يناسبهم من كتاب جمع النصارىٰ فيه كتب وأسفار اليهود وكتبهم وأسفارهم، وأطلقوا علىٰ الأوَّل العهد القديم وعلىٰ الثاني العهد الجديد، ليكوِّن العهدين كتابهم المقدَّس.

---

(١) كتاب بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار: ص٥٥.

في عقيدة كلّ من اليهود والنصارىٰ أنَّ المخلِّص منهم، وأسموه اليهود بالمسيح وقال النصارىٰ: إنَّ المسيح هو عيسىٰ بن مريم وأسموه بالسيد المسيح.

ولما كانت شخصية المنقذ في الفكر المسيحي متميِّزة في أصل المبدأ – وذلك بتعيين المنقذ بعيسىٰ عليه السلام وهو نبي متَّصل بالسماء فيكون جديراً بتمثيل ذلك الدور الإصلاحي، وبخلافهم اليهود الذين فرضوه شخصية مبهمة ومتكرِّرة علىٰ طول الخط التاريخي، ولم يأخذوا فيها شرط التميُّز والارتباط بالسماء، وأنَّ مشروع الإنقاذ ينحصر باليهود فهو منجٍ لهم علىٰ الخصوص، فلم تؤخذ أطروحتهم بنظر الاعتبار والمقبولية – عن غيرها من الأديان السماوية الأخرىٰ، فكان حريًّا بتقديمها للمقارنة.

وعلىٰ ذلك الأساس نطرح مشروع المخلِّص ضمن الفكر المسيحي بالنحو التالي:

١ – يعتقد المسيح أنَّ المنقذ هو النبي عيسىٰ عليه السلام وبذلك لا يكون له نسب من جهة الأب لينتسب إليه.

٢ – لم تتعرَّض مصادر المسيح بتفصيل معالم شخصية النبي عيسىٰ عليه السلام إلَّا بنحو إجمالي لذكر خصوصياته ومميِّزاته، ومن بين ذلك ما ذكروه في صفاته الظاهرية، فقد جاء في قاموس الكتاب المقدَّس لـ(جيمز هاكس): كان عيسىٰ معتدل القامة، ذو شعر أشقر مسرّح، له جبهة مستوية ناعمة، ليس في وجهه علامات فارقة، وكان لون وجهه مائلاً إلىٰ الحمرة وعيناه زرقاوتان.

وأمَّا صفاته الأخلاقية فقد كان قليل الكلام ولم يرتكب الذنب صغيره أو كبيره ولم يترك الأولىٰ.

وكانت تعاليمه روحانية، وكان يحترم القوانين الحكومية ومخالفاً للنشاطات المسلحة التي تقف بالضد من الدولة، فقد كان يمانع مقارعة السياسيين ومتنفِّراً من الحرب وإراقة الدماء والعنف، فكان من طبعه التنازل عن حقِّه حقناً للدماء وإقراراً للسلام.

وكان عيسىٰ عليه السلام شديد التواضع وزاهداً وورعاً كثير العبادة، وكان يفرّ من النساء ومعاشرتهن.

٣ - سيقوم النبي عيسىٰ عليه السلام في التصوُّر المسيحي بمشروع كبير وهو تشكيل حكومة عالمية مبادئها إنجيلية.

سيقوم عيسىٰ عليه السلام بتخليص كلّ الناس من الظلم ويرفع التشتُّت والاضطراب، ويحقِّق الرخاء الاقتصادي.

٤ - كل الأناجيل تعتقد ببشرية عيسىٰ عليه السلام ولكنَّها تعتقد أيضاً بأنَّه حاز علىٰ مقام الألوهية وأنَّه أزلي، ولهذا فإنَّه يفعل فعل الله ويتكلَّم كلامه سبحانه، وقد ابتُدعت هذه الصفات في كتابات (بولس).

ومن الواضح رفض العقل لهذا المعنىٰ من المقامات، وقد قام الدليل البرهاني علىٰ ذلك كما أكَّدت الأدلة النقلية الموثَّقة علىٰ نسب المنقذ وأنَّه من نسل نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وخصوصيات مشروعه العالمي بنشر التوحيد ورسالة الإسلام وإذابة عناصر الفساد والفرقة.

وإذا كان هذا منطق الديانة اليهودية والمسيحية فما تصوّره غيرهما من الهندوسية وغيرها فهو أبعد.

النتيجة التي ننتهي إليها هو أنَّ الذي يقوم بهذه المهمة من إصلاح المجتمع وقيام دولة العدل الإلهي هو الدين الإسلامي.

* * *

الدرس الرابع

المنقذ في الفكر الإسلامي

كان الكلام في فوارق النظريات الدينية واتَّضح عدم قدرة النظريات الوضعية ولا الديانة اليهودية والمسيحية والهندوسية ونحوها علىٰ تشخيص المنقذ، فانحصر تقديم شخص المنقذ بالفكر الإسلامي.

ولما كان تمخُّض الفكر الإسلامي في تيارين (السُنِّي والشيعي) اقتضت المنهجية العلمية الانتهاء من المقارنة بينهما أوَّلاً لترشيح أحدهما ممثِّلاً للإسلام ومعنوناً به.

فما هي تلك المميِّزات بين المدرستين (السنية والشيعية) في ملاحظة المنقذ؟

يشترك أبناء العامة مع الشيعة في نسب المنقذ للاعتقاد بنبوة نبي الإسلام محمد ﷺ فقد ورد في مصادرهم: عن أُمِّ سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»[1].

وقال الخطابي: العترة ولد الرجل لصلبه[2].

---

(١) أبو داوود (٤٢٨٦)، وابن ماجة (٤٠٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٤٠-٢.

(٢) عون المعبود - كتاب المهدي عليه السلام: ص٢٩١.

وقد ورد عنهم قولهم: (اعلم أنَّ أحاديث المهدي بلغت حدِّ التواتر المعنوي، وهو اتِّفاق الأحاديث في المعنىٰ مع اختلاف في اللفظ، وهو قسيم التواتر اللفظي.

واعلم أنَّنا متعبِّدون بالإيمان بالمهدي، وبما صحَّ من اسمه ونسبه، وصفاته وبمبايعته ونحن أحياء، وقد يعكِّر علىٰ هذه المسألة، وهي خروج المهدي، حديث: (لا مهدي إلَّا عيسىٰ ابن مريم)، فكيف الجمع بين هذا وذاك؟

فيجاب عن ذلك: بأنَّ حديث (لا مهدي إلَّا عيسىٰ) حديث ضعيف، وعلىٰ فرض صحَّته يكون معنىٰ الحديث أي لا مهدي كامل إلَّا عيسىٰ، ولا شكَّ أنَّ عيسىٰ عليه السلام أكمل في الهداية من المهدي، فيكون النفي المراد في الحديث نفي كمال، لا نفي وجود، هذا مع افتراض سلامة الحديث...)[1].

أمّا ما يرتبط بالفوارق:

فحيث تعتقد الإمامية بضرورة خروج المنقذ استناداً إلىٰ غفير من الأدلة القرآنية والروائية:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ (القصص: ٥).

(وهي توضِّح قانوناً كلياً لجميع العصور والقرون ولجميع الأُمم والأقوام... فهي بشارة في صدد انتصار الحق علىٰ الباطل والإيمان علىٰ الكفر...)[2].

---

(١) الصراط السوي في سؤالات الصحابة للنبي أبو البراء محمد بن عبد المنعم آل علاوة.

(٢) تفسير الأمثل - ناصر مكارم الشيرازي: ج١٢، ص١٧٥.

وقوله تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

وكلمة ﴿الأَرْضَ﴾ تطلق علىٰ مجموع الكرة الأرضية، وتشمل كافّة أنحاء العالم إلّا أن تكون هناك قرينة خاصّة في الأمر، ومع أنَّ البعض احتمل أن يكون المراد وراثة كلّ الأرض في القيامة، إلّا أنَّ ظاهر كلمة الأرض عند ما تذكر بشكل مطلق تعني أرض هذا العالم.

ولفظ (الإرث) - كما أشرنا إلىٰ ذلك سابقاً - يعني انتقال الشيء إلىٰ شخص بدون معاملة وأخذ وعطاء، وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن أحياناً بمعنىٰ تسلُّط وانتصار قوم صالحين علىٰ قوم طالحين، والسيطرة علىٰ مواهبهم[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥).

وهناك آيات أُخر يمنع ضيق المقام من استعراضها، وإليك أيضاً بعض الروايات المباركات في هذا السياق:

عن النبي ﷺ: «إنَّ هذا الأمر لا ينقضي حتَّىٰ يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كُلُهم من قريش»[2].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ج١٠، ص٢٥٤.

(٢) الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان - سير أعلام النبلاء: ج٣، ص١٨٧-١٨٨.

وعنه صلى الله عليه وآله: «يخرج المهدي وعلىٰ رأسه غمامة فيها ملك ينادي: هذا خليفة الله المهدي فاتَّبعوه»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله: (... ترتفع رايات سود في المشرق فيسألون الحق فلا يعطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون، فمن أدركه منكم ومن أعقابكم فليأتِ إمام أهل بيتي ولو حبواً علىٰ الثلج، فإنَّها رايات هدىٰ يدفعونها إلىٰ رجلٍ من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، فيملك الأرض، فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً...)[٢].

إلَّا أنَّ ارتباطهم - الإمامية - بشخص المنقذ إنَّما هو علىٰ نحو ارتباط عقدي يتضمَّن منظومة متكاملة متناسقة مترابطة تؤلف بمجموعها عنوان الإمامة ليكون أصلاً لمذهبهم وتترتَّب عليه جملة من اللوازم العملية.

فالفارق الجوهري بين الشيعة والسنة في قضية المنقذ ونهاية التاريخ هو أنَّ ذلك المنقذ يمثِّل الإمامة - القائمة علىٰ أدلة عقلية ونقلية في جميع شؤوناتها فليراجع علم الكلام للوقوف علىٰ ذلك - فهو:

١ - (الإمام) بمعنىٰ: ذلك المنصب الإلهي - الثابت بالتعيين السماوي وإخبار الوحي له عليه السلام وليس بالاختيار والانتخاب البشري - الذي يمثِّل الزعامة وقيادة المجتمع خلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في شؤون الدين والدنيا.

---

(١) القندوزي - ينابيع المودة: ج٣، ص٤٤٧.

(٢) سنن ابن ماجة: ج٢، ص٥١٨؛ المستدرك علىٰ الصحيحين (صنعاء مكتبة الجامع الكبير (الغربية)): ج٤، ص٤٦٤.

٢ - (المعصوم) فمن شروط الإمامة الحصانة من كل ذنب وخطأ وبنحو الإطلاق، فهو خليفة النبي صلى الله عليه وآله في التبليغ وبيان التشريع وهداية الناس - فهو المرجع العلمي والأخلاقي - فيتعيَّن أن يكون مصوناً من الذنب والخطأ حتَّىٰ يعتمد الناس عليه وليس ذلك إلَّا بعد الوثوق التام مما يستدعي اتِّباعه ويتوقَّف ذلك علىٰ عصمته المطلقة ومع عدم ذلك نقض لغرض المولىٰ تبارك وتعالىٰ ويجل عن ذلك لحكمته.

٣ - (الأفضلية) وهي إحدىٰ الشروط الأساسية للإمام، إذ إنَّ كل الكمالات النفسية والبدنية - كالتقوىٰ والشجاعة والكرم إلخ من الفضائل - وبأعلىٰ مراتبها متوفِّرة فيه دون غيره - لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأُمَّة أحد ولا يسوىٰ بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً... -[1]، ويدل عليه قاعدة القبح والترجيح بلا مرجّح -كتقديم المفضول علىٰ الفاضل- والدليل النقلي.

٤ - (العلم اللدني) فإنَّ الإمام عليه السلام بالإضافة إلىٰ ما يأخذه عن النبي صلى الله عليه وآله بنحو مباشر أو غير مباشر فإنَّ له مصدر آخر للعلم يُلقىٰ إليه بنحو الإلهام والتحدُّث، وهو المقوِّم للعصمة.

٥ - (الولاية): بمعنىٰ أنَّ الإمام عليه السلام له الوصاية ومالكية التدبير في نحوين:

التكوين: ليكون له عليه السلام الوصاية وقدرة التصرُّف في جميع أجزاء التكوين.

التشريع: فهو الكافل لجميع شؤون الدين - من البيان والتفسير للقرآن الكريم والسُنَّة الشريفة، والتفسير - التشريع -.

---

(١) نهج البلاغة - خطب أمير المؤمنين عليه السلام: ج١، ص٣٠.

٦ - (الحجية): فإنَّ قوله عليه السلام وفعله وسكوته حجَّة في حقِّ كلِّ مسلم، وله لزوم الطاعة والتسليم.

كما لرسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥).

٧ - (الخاتمية): تلاحق نظرية الإمامية في المنقذ منظومة متكاملة متناسقة من المواصفات الذاتية للمنقذ وهي عين التركيبة الملاحظة عندهم في نبي الإسلام صلى الله عليه وآله إذ لماذا كان النبي محمداً صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء؟ وماذا تمثّل وتعني الخاتمية؟ وما هي مزايا هذا الخاتم عن غيره ليتولّىٰ هو دون غيره الخاتمية؟

فهل يمكن تصوُّر الخاتمية منحة إلهية عشوائية، أو هي حِكمية؟

وهل هي جبرية أو اختيارية؟ وهل تمَّت تنشئتها وفق تخطيط إلهي مسبق أو أنَّ الظروف الطبيعية اتِّفاقاً أنشأتها؟

إنَّ النتائج المعرفية لهذه الاستفهامات - وسيأتي بحثها - هي عينها تأتي في المهدوية لتمثِّل الفارق الجوهري بين الفكر الشيعي وغيره مطلقاً، إذ نعتقد أنَّ الإمام خليفة النبي في جميع مقاماته وشؤوناته ومهامِّه ما خلا الوحي.

فالإمام المهدي عجل الله فرجه هو خاتم الأوصياء، عن إبراهيم بن محمد العلوي، قال: حدَّثني طريف أبو نصر، قال: دخلتُ علىٰ صاحب الزمان فقال: «عليَّ بالصندل الأحمر»، فأتيته، ثم قال: «أتعرفني»؟ فقلتُ: نعم؟ قال: «من أنا»؟ فقلت: أنت سيدي وابن سيدي، فقال: «ليس عن هذا سألتك»، قال طريف:

فقلت: جعلتُ فداك فسِّر لي، قال: «أنا خاتم الأوصياء وبي يدفع الله البلاء عن أهلي وشيعتي»[١].

فالإمام المهدي عجل الله فرجه هو مجلىٰ من المجالي التي لا تحصىٰ للحقيقة المحمدية، فكان عجل الله فرجه الخاتم للأولياء، بمعنىٰ أنَّه المظهر الكامل لتلك الحقيقة، والذي تتجلَّىٰ فيه علىٰ أكمل تمثيل وبنحو يظهر فيه الإرث المحمدي ظهوراً تاماً (إرثاً مباشراً) لعلم الباطن والظاهر علىٰ السواء، نعم النبي صلى الله عليه وآله خاتم الولاية العامة بالأصالة والإمام المهدي عجل الله فرجه خاتم الولاية العامة بالتبع.

أمَّا المدرسة السُنية فتتعامَل مع المنقذ علىٰ أساس الشخصية التي تعكس إرادة السماء في تحقيق كلمة التوحيد والعدل، بغض النظر عن المواصفات الذاتية لها، فهو الأداة التي لا ارتباط تكويني بينها وبين الوظيفة التي تبتغيها السماء[٢].

وفي سياق الصفات الشخصية للمنقذ ورد علىٰ لسانهم:

... خلاصة صفات المهدي عليه السلام... كما ورد في صحيح السُنَّة[٣].

١ - اسمه محمد واسم أبيه عبد الله.

٢ - إنَّه هاشمي من آل البيت من ولد فاطمة[٤].

---

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج٥٢، ص٣٠.

(٢) وفي خصوص الوظيفة الموكَّلة إلىٰ خليفة الله علىٰ خلقه مميزات بين المدرستين، ومنها أنَّ اختيار شخص المستخلف عشوائي غير حكمي وإنَّما وفق العلم الإلهي فقط مما يسجل إشكال واضح علىٰ المدرسة السنية في القدح بصفات الخالق سبحانه.

(٣) للاطِّلاع علىٰ الأحاديث النبوية المستشهد بها في انتزاع الصفات المذكورة، راجع مجلة البيضاني العلمية - صفات المهدي وصفات ظهوره وزمانه - الحلقة رقم ٦، بقلم الدكتور صادق بن محمد البيضاني.

(٤) يرجِّح البعض من أهل السُنَّة كون المهدي من سلالة الإمام الحسن عليه السلام، وكنيته أبو عبد الله.

٣ - إنَّه يملك سبع سنين ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

٤ - إنَّ لقبه المهدي بمعنىٰ الذي هداه وأصلحه علىٰ الهدىٰ...

كما يلقِّبه البعض بالفاطمي لكونه من ولد فاطمة... كما لا يصح حديث بأنَّه خليفة الله... وأمّا قول ابن حجر الهيثمي عن المهدي[1]: (جعل الله القائم بالخلافة الحق عند شدَّة الحاجة إليها من ولده ليملأ الأرض عدلاً، فلا يعني اللقب، وإنَّما يُطلق علىٰ كلِّ خليفة عدل... ومن هؤلاء القائمين بالخلافة: الخلفاء الراشدون الأربعة وعمر بن عبد العزيز والمهدي ونحوهم.

٥ - إنَّ الله يصلحه في ليلة للحديث عن النبي ومعناه: «المهدي منا أهل البيت يصلحه في ليلة»[2].

يتوب عليه ويوفقه ويلهمه رشده بعد أن لم يكن كذلك.

٦ - إنَّ خلافته تكون علىٰ منهاج النبوة... إذ ستكون شرعية بمثل ما كانت عليه في زمن النبوة.

٧ - إنَّه ينزل في زمانه عيسىٰ فيصلِّي المهدي بعيسىٰ...

ونتساءل عند هذه النقطة في دلالة صلاة النبي عيسىٰ عليه السلام وهو من أولي العزم - خلف الإمام المهدي عجل الله فرجه، فهل تدلُّ علىٰ مفضولية المأموم وأفضلية الإمام؟ يظهر أنَّ في الفكر السُنِّي خلاف ذلك!

---

(١) الصواعق المحرقة: ص١٦٧.

(٢) صحيح ابن ماجة: الرقم ٣٣١٦.

فقد ورد عنهم:

(وقد يعكِّر علىٰ هذه المسألة، وهي خروج المهدي، حديث: (لا مهدي إلَّا عيسىٰ بن مريم) فكيف الجمع بين هذا وذاك؟ فيُجاب عن ذلك: بأنَّ حديث: (لا مهدي إلَّا عيسىٰ) حديث ضعيف، وعلىٰ فرض صحَّته يكون معنىٰ الحديث: (أي لا مهدي كامل إلَّا عيسىٰ، ولا شك أنَّ عيسىٰ عليه السلام أكمل في الهداية من المهدي، فيكون النفي المراد في الحديث نفي كمال لا نفي وجود)[1].

٨ - إنَّ الاعتقاد بالمهدوية من فروع الدين الذي يستلزم العمل وليس من الأصول الذي يبنىٰ عليه الإيمان.

٩ - غالبية أهل السُنَّة ينكرون ولادة الإمام المهدي عجل الله فرجه ويقولون إنَّه سيولد في نهاية التاريخ.

ومن خلال ما ذُكر تتَّضح معالم المهدوية في الفكر السُنِّي، وهي بالنحو التالي:

أ - تتَّجه نهاية التاريخ - بنحو الضرورة - إلىٰ شخص يختاره[2] الله سبحانه ليحقِّق الوعد الإلهي، وهو رجل ينتسب إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله ومن ولد فاطمة عليها السلام.

---

(١) كتاب الصراط السوي في سؤالات الصحابة للنبي - أبو البراء محمد بن عبد المنعم آل علاوة.

(٢) يوجد تهافت واضح في المباني العقدية والفقهية للمدرسة السنية! إذ كيف أنَّ الخلفاء السابقون علىٰ المهدي إنَّما تمَّ تعيينهم بالانتخاب والشورىٰ واستثني من ذلك تعيين المهدي وكان من خلال التنصيب الإلهي واختياره سبحانه؟
فإنَّه بحسب أحاديثهم المعتمدة لديهم كما في عبارة (يبعثه الله) دلالة واضحة علىٰ أنَّ أمر المهدي بيد الله سبحانه واختياره منه تبارك وتعالىٰ، راجع حديث: (الخلفاء من بعدي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش) فهو حديث متواتر، روته الصحاح: والمسانيد - ←

ب - ويكون ذلك بعد أن يولد في تلك الحقبة المعيَّنة في علم الله تعالىٰ.

ج - وهو رجلٌ كسائر الناس لا ميزة له عليهم، حتَّىٰ أنَّه لا يعلم أنَّه المهدي.

وفي الحديث: «المهدي منَّا أهل البيت يصلحه في ليلة» - وهو المعتمد عندهم - دلالة واضحة علىٰ هذا المعنىٰ، فهو رجل غير معصوم، ولا رابطة خاصة عنده مع السماء، ويعيش ظرفه بنحو اعتيادي، فلا مانع في حقِّه من الذنب والضعف والخطأ في التفكير والسلوك، ولذلك فإنَّ الله تعالىٰ يتدخَّل بعد تصدِّيه ليحسن حاله ويوفِّقه للصواب.

ولعلَّنا نتساءل عن مدىٰ إمكانية هكذا شخصية للتصدِّي للمهمّات وإصلاح العالَم؟!

ولماذا خصَّه الله سبحانه بوظيفة المنقذ دون غيره؟

ولماذا لا يتكرَّر المنقذ في التاريخ البشري ولو علىٰ مستوىٰ الاستقبال والاحتضان المناطقي، أوالقومي، أو الحزبي، لتحقيق الاستقرار والعدالة بنحو جزئي؟ إذ إنَّ فرض هلاكه يمكن تعويضه بنسخة مثيلة له!

إذن لا ترابط أو تناسق بين فكرة المنقذ وإحالته إلىٰ نهاية متأخِّرة جداً من تاريخ البشرية المأساوي والمعاناتي ثم إيجاده - فظهوره - ليمسك بزمام العالم لتمثيل نهايته بحكم الله وإقامة العدل.

←راجع صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف ٩-١٠١، كذلك راجع صحيح مسلم كتاب الأمارة باب الاستخلاف٤- ٦، كذلك راجع مسند أحمد ٥: ٩٠-٩٣-٩٧.

أمَّا المهدوية في الفكر الإمامي فقد ارتسمت معالمها - بالدليل النقلي والعقلي - فيه بالنحو التالي:

شخصية إلهية أنجبتها الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لتتناولها العناية الإلهية لمزاياها الذاتية التكوينية، فتضع أقدامها علىٰ أعتاب الإمامة بخطوات ثابتة من العصمة المطلقة والعلم اللدني فاستحقَّت مقام الولاية العامة علىٰ الأُمَّة وعنوان الإمامة - ذلك الأصل العقائدي بحيثياته الخاصة - فتشخَّصت بنحو فارد وخاتِم لسلسلة الأئمة من صلب النبي ﷺ، فلا يُتصوَّر في حقِّه التكرار، ولا يمكن الاستيعاض عنه، ولذلك ادَّخرته يد الغيب إلىٰ حين استعداد البشرية لقبول أطروحته الربانية، وعند ظهوره سيكون قادر علىٰ علاج أزمات العالم، وقيادته لتمتُّعه بمزايا فكرية وعقلية وعلمية ونفسية وأخلاقية ومقاماتية، ولتسديد سماوي لا يعجزه شيء، ولا يغلبه غالب ذلك لأنَّ حكمة الإله تستدعي الهدفية في الخلق ببلوغ تحفته ومحور التكوين - الإنسان - إلىٰ مدارك الكمال، ولا يكون ذلك إلَّا في ظلِّ بيئة عادلة صالحة ضمن قانون إلهي - دقيق وعميق الأبعاد في تحرِّي المصالح ودرء المفاسد - وقوة تنفيذية - خالصة من معايب الهوىٰ والشخصنة والجهل والضعف-.

وبعد تلك المقارنة يتَّضح رجاحة الفكر الإمامي علىٰ السُنِّي في احتضان المهدوية.

* * *

الدرس الخامس

موقعية قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في المنظومة المعرفية الدينية (١)

إنَّ قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه مرتبطة بقضية الإمامة، من هنا ينفتح الطريق لنعرف موقعية الإمامة في المنظومة المعرفية الدينية.

ولكن من باب المقدِّمة لهذا البحث نقف عند معنىٰ المتديِّن وأهمية الأصل العقائدي.

إضاءة: المقصود من المتديِّن:

يعنىٰ من الدين منظومة الأفكار والقيم والمعتقدات، وهو عبارة عن الحقائق الشاملة للعقائد والسلوكيات والمظاهر الدنيوية بما لها من ارتباط بنتائج أخروية.

أمَّا التديُّن فهو الخضوع العقدي والنفسي والسلوكي لتلك المنظومة الدينية والامتثال لها.

ويمكن أن يكون له أنواع ومظاهر، إلَّا أنَّ المقصود في عنوان البحث هو ما ذكرناه.

مقدمة:

قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

الَّذِي ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً...﴾ (النور: ٥٥)، أنَّ الأصل في العقيدة المهدوية ظهور الإسلام علىٰ جميع الأديان واستقرار مسيرة العالم إلىٰ حكومة السماء، لتكون خلافة الأرض نصيب المؤمنين، ونصيب الخوف الفناء، والظلم الاندثار، والعدل الانبساط والاقتدار ليتحقَّق الطموح الإنساني وغاية بعثة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ (الحديد: ٢٥).

وبهذا الأصل يتمسَّك المتديِّن الإمامي كقيمة مقدَّسة لا يقبل الانفكاك عنها، لتنظِّم فكرياته بنحو العقيدة وتفاعلاته مع ظروف وأحداث بنحو الوازع الديني!

فيقرأ هذا التناغم والانسجام بينها بلحن الأحجية التي تستدعي التفسير المنطقي، مما يتعيَّن التحليل الجذري لكشف ذلك، ولهذا الغرض عُقد البحث ضمن محاور ستة.

المحور الأوَّل: هل القضية الإمامة تاريخية أو فقهية أو عقدية؟

١ ـ التاريخية:

بمعنىٰ قراءة الإمامة من خلال المنهج التاريخي الذي يتابع الماضي لتسجيل الأحداث وبكلِّ جوانبها.

فقد يقال: إنَّ البحث عن الخلافة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يرجع لبّه إلىٰ أمر تاريخي قد مضىٰ زمنه، وهو أنَّ الخليفة بعد النبي هل هو الإمام أمير المؤمنين أو أبو بكر، وماذا يفيد المؤمنين البحث حول هذا الأمر الذي لا يرجع إليهم بشيء في حياتهم الحاضرة، أَوَليس من الحرّي ترك هذا البحث حفظاً للوحدة، إذن

فلنترك التاريخ لحاله ولنترك الخلافات التي وقعت في صدر الإسلام ونجعل الحكم فيها هو الله (سبحانه وتعالىٰ) هو يحكم بين عباده وبين صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة، وما بالنا نشغل أنفسنا بهذه القضية.

وهكذا قراءة الظاهرة المهدوية من خلال المنهج التاريخي الذي يتابع الماضي لتسجيل الأحداث وبكلِّ جوانبها - كظروف ولادته وغيبته بنمطية الصغرىٰ والكبرىٰ وما رافقهما من إلخ - لتُلحَظ كعلاقات للاستخلاف، وأخبار ظهوره المبارك ملابسات وشخصيات، وتصدِّيه متأثِّرة ومؤثِّرة علىٰ المجتمع بأطيافه المتنوِّعة لتنعكس بنحو ما علىٰ مؤيِّديها ورافضيها.

فتُلحظ المهدوية كشخص مَثَّلَ ظاهرة ارتبط بها المجتمع ليتفاعل بعضهم معها علىٰ فرض واقعيتها لِما تحمله من مشروع مؤثِّر في الوجدان الإنساني، ولا شكَّ أنَّ هكذا قراءة تعجز عن تفسير منطقي لارتباط وثيق بها.

فنقول في مقام الجواب: إنَّا معكم إذا كانت قضية الإمامة هي قضية سياسية أو قضية تاريخية الحق مع هذه الدعوىٰ أنَّه فلنتركها جانباً.

لكن النزاع حول الإمامة ليس نزاعاً سياسياً وليس نزاعاً تاريخياً، كما يريد البعض أن يصوِّر القضية أنَّها قضية مرتبطة بعمق التاريخ والدين.

٢ - الفقهية:

اجتمعت كلمة أبناء العامة علىٰ كون الإمامة من فروع الدين يعني مسألة من المسائل الفقهية حيث يقسمون المسائل الدينية إلىٰ أصول الدين وإلىٰ فروع الدين، فالإمامة عند علماء أهل السُنَّة تعد من الفروع، ونكتفي بنقل قول بعض أعلامهم لبيان رؤيتهم في ذلك.

الغزالي: في الاعتقاد خلاصة فتاواه العقائدية يقول: (اعلم أنَّ النظر في الإمامة ليس من المهمات وليس أيضاً من فن المعقولات، بل من الفقهيات...)[١].

قال الآمدي: (واعلم أنَّ الكلام في الإمامة أصول الديانات، ولا من الأمور اللابديات بحيث لا يسع المكلَّف الإعراض عنها والجهل بها، بل لعمري أنَّ المعرض عنها لأرجىٰ من الواغل فيها، فإنَّها قلَّما تنفك عن التعصُّب والأهواء...)[٢].

وقال التفتازاني: (لا نزاع في أنَّ مباحث الإمامة بعلم الفروع أليق، لرجوعها إلىٰ أنَّ القيام بالإمامة، ونصب الإمام الموصوف بالصفات المخصوصة من فروض الكفايات...)[٣].

والقول إنَّ الإمامة فرع يترتَّب عليه آثار:

١ - اعتبار قضية الإمامة حدث تاريخي ينحصر الاهتمام به بالمعاصرين له دون غيرهم.

٢ - ليست الإمامة فعل الله سبحانه، بل فعل المجتمع، فتأتي عناوين البيعة والانتخاب.

في شرح المواقف للإيجي ليست من أصول الديانات (الإمامة) والعقائد خلافاً للشيعة، بل هي عندنا من الفروع المتعلِّقة بأفعال المكلفين... انتهىٰ[٤]،

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد: ص٢٣٤.

(٢) المواقف: ص٣٩٥ .

(٣) شرح المقاصد: ج٢.

(٤) المواقف بشرحه للجرجاني ٨ / ٣٤٤ مطبعة السعادة بمصر/ ط١/ ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧م.

وواضح التعريف أنَّه إذا صارت من أفعال المكلَّفين فهي من الفروع أمَّا إذا أردنا أن تكون من الأصول لابدَّ أن تكون من أفعال غير المكلَّفين.

٣- عدم اتِّفاق الملَّة علىٰ مواصفات الإمام لأنَّه أمر مرتبط بتشخيص الأفراد مما يوجب عدم ضبط تشخيص المصداق.

٤ - لا يستدعي عدم الاعتقاد بالإمامة الكفر.

٣- العقدية:

ترتبط العقيدة بأصل الدين وتتميَّز عن أحكامه بأنَّ جحودها يوجب الخروج عنه، فيتعيَّن العناية بها وبتميُّزها للتحرُّز من إدخال ما ليس من الدين فيه، فينتهي ذلك إلىٰ صياغة دين باطل!

ومن المعلوم أنَّ النجاة في يوم القيامة مرهون بالدين الحق، فمن آمن بالله سبحانه واليوم الآخر لا يمكنه عدم الاكتراث لذلك.

سؤال: ما هي الثمرة المترتِّبة علىٰ تمييز أنَّ هذه المسألة كلامية أو هذه المسألة فقهية؟

الثمرة الأولىٰ: الفارق في المنهج: فإنَّه المنهج الذي يتبع في الأبحاث الكلامية والعقائدية كاملاً يختلف عن المنهج الذي يتبع في الأبحاث الفقهية، مثاله الواضح أنَّ خبر الثقة حجَّة في المباحث الفقهية ولكن خبر الثقة ليس حجَّة في المباحث العقائدية، إذن يوجد منهجان المنهج في الأبحاث الفقهية عرفيٌّ نقليٌّ، أمّا المنهج في الأبحاث العقائدية والإيمانية دقيٌّ وقطع ويقين، فالفارق كبير بين هذا المنهج وذلك المنهج.

الثمرة الثانية: يفرق العلماء المسلمين بين المسائل المرتبطة بأفعال القلوب والمسائل المرتبطة بأفعال الجوارح.

الثمرة الثالثة: هو أنَّ المطلوب في الأمور العقائدية هو اليقين ولا أقل المطلوب فيها الاطمئنان، أمّا في الأمور الفرعية يكفي الظن، وخبر الواحد يفيد الظن في أحسن الحالات، أمَّا في العقائد لا يكفي الظن والتخمين والاحتمال.

الثمرة الرابعة: وهي أهم الثمرات أنَّ الأصل في قبول الأعمال وعدم قبولها ومقدار الثواب عليها، مرتبطٌ بأفعال القلوب بالإيمان، يعني أمير المؤمنين عليه السلام الصلاة الواجب عليه كانت ١٧ ركعة، شهر رمضان هو يصوم الشهر ونحن نصوم، من حيث العمل الجوارحي لا يوجد فرق، إذن النية والإخلاص القلبي جعل ضربة علي عليه السلام يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين، ومن هنا تجدون أئمة أهل البيت عليهم السلام ركَّزوا علىٰ مسألة المعرفة والتصديق، فالبعد العقدي هو الذي يعطي القيمة، ولذا أنتم تجدون القرآن الكريم عشرات الموارد، مرةً يقول: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ (الأنعام: ١٦٠)، وأخرىٰ يقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ[1] أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)، إذن الله يضاعف الواحد بعشرة وأخرىٰ يضاعف الواحد بسبعمائة، وأخرىٰ ﴿وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ وأخرىٰ ﴿وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

سؤال: بماذا الله يميِّز بين خلقه؟ علىٰ أساس المعرفة علىٰ أساس الإيمان والتصديق، ولهذا ذيل الآية قالت: ﴿واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني يعلم ما في قلوبكم ماذا أنتم نويتم، أي درجة من المعرفة والإخلاص؟ هذا بعد الله يعلمه، ومن هنا

---

(١) طبعاً الإنفاق له خصوصية لو هذا مثال؟ لا أي عملٍ قمت به سواء كان إنفاقاً سواءٌ كان صوماً، حجّاً، زكاة، أي عملٍ صالحٍ، قلت: لماذا الإنفاق لأهمية الإنفاق.

تظهر أهمية أن نتعرَّف أنَّ الإمامة من المسائل الفرعية أو أنَّ الإمامة من المسائل العقائدية والإيمانية.

وأمَّا نظرية الإمامية في الإمامة:

فهي مسألة كلامية عقائدية بإجماع كلمتهم، ولكنهم انقسموا فيها إلىٰ:

١ - القائل بأنَّها أصل دين (وهو الرأي المشهور)، ونصنِّفهم ثلاثة:

أ - المتقدِّمين: الشيخ يوسف البحراني[١]، والشيخ الصدوق[٢]، والمفيد[٣]، والشريف الرضي[٤]، والعلامة الحلِّي[٥].

ب - وأيضاً أيَّد هذا القول المتأخِّرين أمثال: السيد نور الله التستري وملا صالح المازندراني، والشيخ الأنصاري، والهمداني، والملا السبزواري.

المحقِّق اللاهيجي قدس سره بعد نقل كلام شارح المقاصد الذي قال: إنَّ مباحث الإمامة أليق بعلم الفروع، حيث قال: إنَّ جمهور الإمامية اعتقدوا بأنَّ الإمامة من أصول الدين لأنَّهم علموا أنَّ بقاء الدين والشريعة موقوف علىٰ وجود الإمام، كما أنَّ حدوث الشريعة موقوف علىٰ وجود النبي، فحاجة الدين إلىٰ الإمام بمنزلة حاجته إلىٰ النبي[٦].

---

(١) الحدائق الناضرة.
(٢) الهداية: ص٧.
(٣) المقنعة: ص٣٢.
(٤) الرسائل: ج١، ص١٦٦.
(٥) شرح فص الياقوت: ص٦.
(٦) گوهر مراد: ص٣٣٣.

ح – ومن المعاصرين المؤيِّدين فكانوا:

محمد حسن المظفر[١]، محمد رضا المظفر يقول: عقيدتنا في الإمامة: نعتقد أنَّ الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلَّا بالاعتقاد بها[٢].

وآخرين أمثال هاشم الطهراني وباقر النجفي والمرعشي النجفي.

٢ – القائل بأنَّها أصل مذهب: وهو ما ذهب إليه:

السيد الخميني، الشيخ المطهري، العلامة الطباطبائي.

يقول السيد الخميني رحمه الله: إنَّ الإمامة بالمعنىٰ الذي عند الإمامية ليست من ضروريات الدين، فإنَّها عبارة عن أمور واضحة بديهية عند جميع طبقات المسلمين، ولعلَّ الضرورة عند كثير علىٰ خلافها فضلاً عن كونها ضرورة، نعم هي من أصول المذهب، ومنكرها خارج عنه لا عن الإسلام)[٣].

وفيما هاهنا ملاحظات ثلاث:

الأولىٰ: ما هو الأثر المترتَّب علىٰ كلٍّ من الرأيين؟

الثانية: لماذا وقع الاختلاف؟

الثالثة: ما هي قراءة كلٍّ منهما للدليل؟

وأمّا الأولىٰ: ويمكن إجمال المطلب في فرق أساسي بينهما يلازم كلّ منهما، فكونها أصل يلازم إنكارها إنكار ضرورة دينية أثره يعمُ الدنيا والآخرة.

وكونها فرع يلازم الاعتراف بها درجة إيمانية تفوق درجة الإسلام، مقرَّبة إلىٰ الله تعالىٰ مما تحقّق الثواب والنعيم الأخروي.

---

(١) دلائل الصدق لنهج الحق: ج٢، ص١٠.

(٢) عقائد الإمامية – الشيخ محمد رضا المظفر – ص٦٥.

(٣) كتاب الطهارة – السيد الخميني: ج٣، ص٣٢٥.

وأمَّا الثانية: فالاختلاف تبع قراءة الدليل، ولكلِّ رأيٍ نظرٌ وتحليل ينسجم مع مدركاته وقناعاته.

وأمَّا الثالثة: فقد اعتمد الرأي الأوَّل علىٰ مجموعة أدلة، ومنها:

١- ما ورد في لسان الروايات من مفاهيم المخالف والمرتد الملتصقة بالمنكر، وكونها ضرورة دينية.

٢- الإجماع وقاعدة اللطف المعتمدة عند المتكلِّمين، وغير ذلك من الأدلة.

وردّه الرأي الثاني:

اعتماد ما ورد في القرآن الكريم من شروط الإسلام وكفاية تحقُّق النجاة بهما ما لم تقم عليه الحجَّة، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والألفاظ الروائية الآنفة فيمكن تفسيرها بوجه آخر ينسجم مع كمال الإسلام والإيمان والأفضلية وزيادة القرب من الله سبحانه.

وفي الكلام تفصيل يمنع اختصار البحث من بيانه.

* * *

الدرس السادس

موقعية قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في المنظومة المعرفية الدينية (٢)

المحور الثاني: هل تستدعي المهدوية علم تقليدي أو تحقيقي؟

إذا كانت المهدوية ظاهرة عقائدية فكرية تتقوَّم بالتصوُّر والتصديق ولا ترتبط بالفقه والفعل والعمل[١]، فلا مناص عندئذٍ من السؤال التالي:

ما نوع العلم المتعلِّق بها؟ وهل مردّه العلم الحصولي، الناتج من اتِّباع المتخصِّصين بالقضية المهدوية؟ أو يتعيَّن علمٌ خاص مصدره البحث والتأمُّل والبرهان؟ أم يكفي الظن؟

في المسألة أقوال:

الرأي الأوَّل[٢]: وجوب معرفة الإمام: - الذي له مقام الإمامة وفق شروطها - بالدليل لا بالتقليد، وبعبارة أخرىٰ يذهب إلىٰ عدم صحَّة الاتِّباع والاعتماد علىٰ الآخر لتحصيل العلم فيه: فقال تعالىٰ: ﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٢-٢٣).

---

(١) المقصود هو تصور المهدوية والتصديق بها ثم الإذعان لها كفكر وعقيدة، وليس ما يستتبع ذلك الفكر من نشاط وعمل وسلوك وإلَّا فإنَّ كل عمل يتقدّمه فكر.

(٢) وهو للعلامة الحلي في كتابه شرح الباب الحادي عشر.

فذمَّ سبحانه التقليد في الاعتقاد وحثَّ علىٰ النظر والاستدلال بقوله تعالىٰ: ﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٤).

فهذا الرأي لا يصحِّح التقليد في الأصول سواء كان أصل ديني أو مذهبي، فيتعيَّن علىٰ كلِّ فرد النظر والاجتهاد فيها.

الرأي الثاني[١]: ويذهب إلىٰ كفاية الظن فهو معتبر في معرفة الإمام فلا ضرورة بالاعتقاد الجازم به، ووفق ذلك يُصحِّح الاعتماد علىٰ قول الآخر وتحصيل العلم التقليدي.

الرأي الثالث[٢]: ويفرِّق بين نحوين من الاتِّباع لتحصيل العلم، أحدهما تقليد لا يفيدُ إلَّا الظن، والآخر تقليد يفيد الاطمئنان فيما استحصله من العلم، كالفارق بين تقليد المجتهد في الفروع الذي لا يُعنىٰ بتحقيق الاطمئنان في نفس المقلِّد، وبين تقليد المتخصِّص في إثبات وجود الله سبحانه بالدليل والبرهان مما يولِّد اليقين والاطمئنان في نفس المقلّد بواسطة ذلك الدليل، وهذا لا تثريب عليه بخلاف الأوَّل.

والدليل عليه هو سيرة المتشرِّعة حيث اعتمدوا علىٰ أهل التخصُّص في اعتناق معتقداتهم، وبطلان ذلك فيه محذور التكفير والتفسيق الممتنع بالإجماع.

---

(١) وهو رأي بعض أعلام المذهب كالمقدس الأردبيلي والشيخ البهائي والعلامة المجلسي والفيض الكاشاني قدس سرهم.

(٢) وهو رأي الشيخ الأنصاري قدس سره في كتابه الرسائل والسيد السبزواري قدس سره وزعيم الطائفة السيد الخوئي قدس سره وغيرهم من الأعلام المعاصرين.

وينبغي التنبُّه إلىٰ تأكيد القرآن الكريم علىٰ تحصيل إذعان النفس وتسليم القلب فيما دانت به، وهو فعل التصديق العميق والاعتقاد، ويمكن تحصيله بالوقوف علىٰ قول أهل الاختصاص والبرهان، وبذلك لا ضرورة في اختلاف منشأ التصديق والاطمئنان النفسي فقد يكون منشأه العقل النظري الشخصي، وقد يكون منشأه العقل النظري التخصصي.

يقول السيد الخوئي[1]: (قد عرفت أنَّ التقليد هو الاستناد إلىٰ فتوىٰ الغير في مقام العمل، والوجه في وجوبه علىٰ ما قدَّمناه استقلال العقل بوجوب دفع الضرر المحتمل بمعنىٰ العقاب، ولا يتأتَّىٰ هذا فيما اعتبر فيه اليقين والاعتقاد كما في الأصول كالتوحيد والنبوة والمعاد، لوضوح أنَّه لا عمل في تلك الأمور حتَّىٰ يستند فيها إلىٰ قول الغير أو لا يستند، فإنَّ المطلوب فيها هو اليقين والاعتقاد ونحوهما مما لا يمكن أن يحصل بالتقليد فلا معنىٰ له في مثلها، بل لو عقد القلب - في تلك الأمور - علىٰ ما يقوله الغير لم يكتفِ به بوجه، إذ المعتبر في الأصول إنَّما هو اليقين والعرفان والاعتقاد، وشيء من ذلك لا يتحقَّق بعقد القلب علىٰ ما يقوله الغير، بل هذا هو القدر المتيقَّن مما دلَّ علىٰ ذمِّ التقليد واتِّباع قول الغير في الأصول، كقوله (عزَّ من قائل): ﴿إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣).

نعم، هناك كلام آخر في أنَّه إذا حصل له اليقين من قول الغير يكتفىٰ به في الأصول أو يعتبر أن يكون اليقين فيها مستنداً إلىٰ الدليل والبرهان؟ إلَّا أنَّه أمر آخر أجنبي عما نحن بصدده، وإن كان الصحيح جواز الاكتفاء به، إذ المطلوب

(١) التنقيح في شرح العروة الوثقىٰ - التقليد: ج١، ص٣٤٩.

في الاعتقاديات هو العلم واليقين بلا فرق في ذلك بين أسبابهما وطرقهما، بل حصول اليقين من قول الغير يرجع في الحقيقة إلىٰ اليقين بالبرهان لأنَّه يتشكَّل عند المكلَّف حينئذٍ صغرىٰ وكبرىٰ، فيقول: هذا ما أخبر به أو اعتقده جماعة، وما أخبر به جماعة فهو حق ونتيجتهما أنَّ ذلك الأمر حق فيحصل فيه اليقين بأخبارهم)[1].

ويقول السيد السيستاني[2]: (لابدَّ أن تكون عقيدة المسلم في باب أصول الدين عن بصيرة ووعي، فلا يمكن أن يقلِّد غيره فيها، بمعنىٰ أن يقبل قول غيره بها لمجرَّد أنَّه يقول بها، ولكن من اعتقد بالعقائد الحقّة عن تقليد وأظهر معتقده هذا – وإن لم يكن يقينه عن بصيرة – فهو مؤمن وتجري في حقِّه أحكام الإيمان).

---

(١) يقول: ليس كذلك، ليس المقصود من أنَّه لا يجوز التقليد وعدم قبول رأي الغير مطلقاً، بل نقول: لا يجوز الاعتماد علىٰ رأي الغير في أصول الدين إذا لم يفد اليقين، أمَّا إذا كلام الغير أفاد اليقين فهو حجة فأنت عندما تسمع كلام العالم يقول يقيناً هو لم يقله اعتباطاً، بل هو عنده دليل فيحصل عندك يقين من قوله ولا حاجة إلىٰ أن تبحث عن الدليل، فالصحيح جواز الاكتفاء به يعني باليقين الحاصل من رأي الغير ولا حاجة إلىٰ الاجتهاد، إذاً المطلوب في الاعتقاديات هو العلم واليقين.

ففي الأعم الأغلب العلم المطلوب هو الجزم بثبوت المحمول للموضوع، سواء كان هناك علم باستحالة الانفكاك أم لم يكن، نعم ذاك وظيفة المتخصِّص، أمَّا عموم الناس فهذا القدر من العلم واليقين يكفي، فليس المراد من اليقين هنا اليقين الاصطلاحي في المنطق، بل المراد من اليقين هنا والعلم هنا القطع الذي ذكر في علم الأصول في قبال الظن والشك، لأنَّ القطع واليقين في علم الأصول شيء واليقين والعلم والقطع في المنطق شيء آخر، وقد يقع الخلط بينهما فيقول السيد: إذ المطلوب في الاعتقاديات هو العلم واليقين بلا فرق في ذلك بين أسبابهما وطرقهما بحصول اليقين من قول الغير.

(٢) الاستفتاءات موقع السيد السيستاني دام ظله.

المحور الثالث: هل يكفي العلم بالإمامة والإمام أم لابدَّ من الإيمان؟

ولأجل بيان هذا المطلب لابدَّ أن نقف علىٰ عدَّة مطالب:

المطلب الأوَّل: الفرق بين العلم والإيمان فنستطيع التفريق بينهما بعدَّة وجوه:

الوجه الأوَّل: من خلال التعريف: فأكثر أعلام الشيعة فسَّروا الإيمان بالتصديق القلبي.

وقد عرَّفت الأشاعرة التصديق القلبي بعقد القلب بالذي عُلِمَ من خبر المخبر.

وأمَّا العلم فقد عُرِّف بأنَّه: حضور المعلوم لدىٰ العالِم إمَّا حضوراً بالمباشرة أو بغيرها.

إنَّ الإيمان شيء وراء العلم، ففي الاصطلاح المنطقي عندنا تصديق، والمراد بالتصديق في علم المنطق يعني العلم بأنَّ المحمول ثابتٌ للموضوع، هذا نسمِّيه قضية تصديقية، ولكن عندنا تصديق كلامي غير التصديق المنطقي، التصديق الكلامي أن تؤمن بأنَّ تلك القضية المصدَّق بها منطقياً أنَّك تعقد القلب عليها، فإذن يوجد عقدان: عقدٌ منطقي بين المحمول والموضوع، وعقد كلامي وهو بين محتوىٰ التصديق المنطقي وبين النفس[1].

---

(١) ولهذا تجدون القرآن الكريم يقول: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤)، يعني من الناحية العلمية يوجد تصديق، ولكن من الناحية الإيمانية لا يوجد تصديق، فلهذا ليصير عندكم خلط بين التصديق المنطقي والتصديق الكلامي.

فالعلم عبارة عن عقد بين الموضوع والمحمول، وثبوت الثاني للأوَّل جزماً، ويستحيل أن لا يكون كذلك، أمَّا الإيمان فهو يحمل في حقيقته عقداً آخراً طرفاه، القلب ومحتوىٰ، هذه القضية المركبة من الموضوع والمحمول، أو قل: عقد بين القلب والالتزام بتلك القضية خارجاً.

الوجه الثاني: لبيان الفرق من خلال القرآن: فالقرآن الكريم وذلك باستعراضه لنحوين متغايرين من المعرفة: إحداهما عقلية الحاصلة بالعلم الحصولي، والأخرىٰ قلبية وهي الإيمانية يفرق بينهما في آيات كثيرة.

الآية الأولىٰ: آية خمسة وعشرين من سورة محمّد صلى الله عليه وآله، انظروا إلىٰ الآية المباركة، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبارِهِمْ﴾، إذن القرآن الكريم يقول: إنَّ بعض الناس ارتدُّوا علىٰ أدبارهم، يعني هؤلاء من المرتدِّين، وكانوا يعلمون الحق، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ (محمد صلى الله عليه وآله: ٢٥)، إذن كانوا يعلمون الهدىٰ، ولكن ارتدُّوا، إذن يمكن أن يكون الإنسان عالماً ومع ذلك مرتداً، إذن ينفك الإيمان عن العلم، هذه صريح الآية المباركة، قالت: يمكن أن يكون الإنسان مرتد مع أنَّه قد تبيَّن وعَلِم بالهدىٰ، إذن العلم شيء والإيمان شيء آخر، هذه الآية الأولىٰ.

الآية الثانية: في سورة النمل الآية أربعة عشر، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤)، مع أنَّه كان علىٰ يقين وكان علىٰ علم، ومع ذلك كان جاحداً، والجحود في قبال الإيمان مع أنَّه القرآن يقول: علىٰ يقين، ولكن كان جاحد، إذن الآية ميَّزت بين الإيمان والعلم واليقين والمعرفة، إذن ليس كلَّما وجد العلم واليقين بالضرورة يوجد الإيمان، قد يوجد الإيمان وقد يوجد الجحود، كما أشارت الآية المباركة.

الآية الثالثة: وهي الآية ثلاث وعشرين من سورة الجاثية، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ﴾، بعد أوضح من هذا لا تجد في القرآن: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٣)، صريحة الآية مع أنَّه كان ضالاً، إذن ليس

بالضرورة كل من كان عالماً أو تبيَّن له الهدىٰ أو كان علىٰ يقين يكون مؤمناً، فقد يكون عالماً وقد يكون علىٰ يقين وتبيَّن له الهدىٰ ومع ذلك هو جاحد وكافر وضال وعلىٰ غير هدىٰ.

إذن نستكشف من هذه الآيات المباركة أنَّ العلم شيء والإيمان شيء آخر.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «الكفر في كتاب الله... فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية والجحود علىٰ معرفته، وهو أن يجحد الجاحد وهو يَعلم أنَّه حق قد استقرّ عنده...»[1].

الوجه الثالث: لبيان الفرق بين العلم والإيمان: أنَّ من الممكن أن يحصل العلم بشيء بأدلة قاطعة ولكن القلب لا يسلِّم بها، فيكون العلم من غير فائدة ولا يفضي إلىٰ حالة الإيمان، وقد ساق السيد الخميني رحمه الله مثالاً محسوساً يوضِّح الفرق بين العلم والإيمان، إذ قال: (أنتم أدركتم بعقولكم أنَّ الميت لا يستطيع أن يضر أحداً، وأنَّ جميع الأموات في العالم ليس لهم حس ولا حركة بقدر ذبابة، وأنَّ جميع القوىٰ الجسمانية والنفسانية قد فارقته، ولكن حيث إنَّ القلب لم يتقبَّل هذا الأمر ولم يسلم أمره للعقل، فإنَّكم لا تقدرون علىٰ مبيت ليلة مظلمة واحدة مع ميت)[2].

الوجه الرابع: أنَّ الإيمان أمرٌ كسبي لا يتم إلَّا باختيار المصدِّق، وبخلافه العلم فهو حاصل - أحياناً - بنحو قهري لا إرادي:

إنَّ العلم ليس اختيارياً بخلاف الإيمان، أنت إذا قام عندك الدليل لابدَّ أن يحصل لك التصديق، إذا نظرت إلىٰ شيء تحصل لك صورة في الذهن لا تستطيع

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) - الشيخ حرّ العاملي: ج١، ص٣٢.

(٢) الأربعون حديثاً -الرياء- للسيد الإمام الخميني قدس سره.

أن تقول للذهن لا تأخذ صورة، إذا سمعت رقم اثنين بإضافة اثنين يحصل لك علم بأنَّه أربعة، إذا سمعت اجتماع النقيضين يحصل لك علم بأنَّه ممتنع، وهكذا فالعلم أمر غير اختياري بخلاف الإيمان، فإنَّه أمر اختياري، ولهذا تجد القرآن الكريم يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ (النساء: ١٣٦)، والأمر لا يصح إلَّا في مورد الاختيار، إذن العلم أمر غير اختياري والإيمان أمر اختياري، فأنت من حقِّك أن تؤمن وتستطيع أن تؤمن وتستطيع أن لا تؤمن بخلافه في العلم.

المطلب الثاني: العلاقة بين العلم والإيمان:

اتَّضح من خلال البحث السابق أنَّه لا ملازمة ذاتية بين القبول العقلي والتصديق المنطقي بمضمون القضية العقائدية والإيمان بها بنحو قبولها والميل القلبي لها، والصحيح أنَّه عندما يتمكَّن العقل من إثبات حقيقة من الحقائق الإيمانية، ولم يكن للقلب تعلُّق بما يخالف تلك الحقيقة، فإنَّ القلب سوف يجد ذلك الميل والتعلُّق، ودليل هذه الواقعية أنَّ للقلب مجالاً وساحة أعلىٰ وأعمق وأوسع من ساحة العقل.. فتحقّق الإيمان وحصوله مرتبطان بأسباب وعوامل متعدِّدة من غير الممكن بيان الإيمان وشرحه بدون نظر إليها..

النتيجة التي يمكن استخلاصها: أنَّه إذا توافرت شروط تحقُّق الإيمان فبالمعرفة الظنية يتحقَّق أيضاً، ولكن إذا لم تتحقَّق هذه الشروط فلن يتحقَّق الإيمان ولو باليقين المنطقي أيضاً.. وأنَّ دور المعارف اليقينية والظنية كمعارف مفهومية في تحقُّق الإيمان يرجع إلىٰ مقدار تأثيرها في لفت الإنسان إلىٰ المعرفة والقضايا الدينية ومن خلال رفع بعض الشبهات والموانع الذهنية الفكرية أو أنَّها تُستخدم بعد تحقُّق الإيمان في التوجيه والتعليل العقلائي له..

ويتَّضح أيضاً نتيجة هذا التحليل التمايز بين الإيمان ونظام الاعتقادات الديني، فالإيمان نوع إقبال قلبي علىٰ شيء أو شخص، بينما نظام المعتقدات الدينية هو عبارة عن نظام من المفاهيم الاعتقادية الذي يتشكَّل حول محور الإيمان.

المطلب الثالث: هل متعلّق قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه العلم أم الإيمان؟

بعد الوقوف علىٰ المائز بين العلم والإيمان نصل إلىٰ المحطة اللاحقة وهي أنَّ المطلوب في القضايا الدينية مجرَّد العلم والتصديق المنطقي أو أنَّ المطلوب فيها الإيمان والتصديق الكلامي؟

من الواضح من خلال الآيات القرآنية والروايات أنَّها ندبت إلىٰ تحقيق الإيمان، ولم تكتفِ بالعلم، ولذلك نجد القرآن الكريم ذمَّ مَن حصل له اليقين والعلم ولكن لم يحصل له الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤)، فلم يكتفِ القرآن الكريم منهم بحصول العلم مع الجحود، إذن المطلوب في القضايا الدينية ولا أقل الاعتقادية هو الإيمان ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ (النساء: ١٣٦)، ونحو ذلك من الآيات التي تدعو إلىٰ الإيمان.

إذن لا يُتصوَّر مجانبة الأصول العقائدية الإيمان وكفاية العلم بها لتأخذ مكانتها الواقعية في وجدان الإنسان كما أراد لها الخالق تبارك وتعالىٰ.

المحور الرابع: ما هو أقل ما يحقِّق الإيمان؟

وللجواب عن هذا السؤال نبيِّن أوَّلاً حقيقة الإيمان؟

اختلفت آراء الأعلام فيه، وهي بالنحو التالي:

١ – الإيمان هو معرفة بالقلب فقط وإن أظهر الكفر باللسان.

٢ – الإيمان هو إقرار المتعلّق باللسان وإن كفر به القلب.

٣ – الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان.

٤ – الإيمان معرفة بالقلب وإقرارٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

فما هو الراجح من هذه الأقوال؟

فنسب إلىٰ الكرّامية أنَّهم فسَّروا الإيمان بالإقرار باللسان فقط، واستدلّوا عليه بقوله صلى الله عليه وآله: «أمرت أن أُقاتل الناس حتَّىٰ يقولوا: لا إله إلَّا الله، محمّد رسول الله»[1].

وردَّ بأنَّ معنىٰ القول في كلامه: حتَّىٰ يقولوا، هو الإذعان والإيمان، وإطلاق القول علىٰ الاعتقاد والإذعان شائع، وأيضاً الإيمان أمر قلبي يحتاج إثباته إلىٰ مظهر وهو الإقرار باللسان في الغالب.

وذهبت المعتزلة والخوارج إلىٰ أنَّ العمل بالجوارح مقوِّم للإيمان والفاقد له ليس بمؤمن بتاتاً، إلَّا أنَّهما اختلفا، فالخوارج يرون الفاقد كافراً، والمعتزلة يقولون: إنَّه ليس بمؤمن ولا كافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين، وممّا استدلوا به قوله تعالىٰ: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣).

إذ المراد من الإيمان في الآية هو صلاتهم إلىٰ بيت المقدس قبل النسخ.

وردَّ بأنَّ الاستعمال أعمّ من الحقيقة، ولا شكَّ أنَّ العمل أثر الإيمان، ومن الشائع إطلاق اسم السبب علىٰ المسبّب، والقرينة علىٰ ذلك الآيات المتضافرة الدالة علىٰ أنَّ الإيمان فعل القلب وأنَّ العمل متفرِّع عليه، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٥٣.

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾، وبدلالة العطف التي تستدعي المغايرة (بين الإيمان والعمل الصالح) يظهر أنَّ العمل لا يدخل في حقيقة الإيمان بل هو كمال له.

نعم، هذا لا يقتضي عدم العلاقة، بل يوجد بينهما ارتباط وعلاقة اللازم وملزومه، ويؤكِّد الإمام الصادق عليه السلام قاعدة التلازم بين الإيمان والعمل، فيقول: «ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكن الإيمان ما خلص في القلوب وصدَّقته الأعمال»[١]، وبملاحظة تعريف العلامة للإيمان يظهر أنَّ للإيمان لوازم عمليّة، وأنَّ العمل الخارجيّ وإن لم يكن هو الإيمان نفسه ولكنَّه مبرز للإيمان القلبيّ ومصدق له.

وذهب بعض المتكلِّمين إلىٰ أنَّ الإيمان مركَّب من الإذعان بالقلب والإقرار باللسان، وهو مختار المحقِّق الطوسي في تجريد العقائد، والعلّامة الحلّي في نهج المسترشدين، وقال الفاضل المقداد:

قال بعض أصحابنا الإمامية والأشعرية: إنَّه التصديق القلبي فقط، واختاره ابن نوبخت وكمال الدين ميثم في قواعده، وهو الأقرب لما قلناه من أنَّه لغة التصديق، ولما ورد نسبته إلىٰ القلب، عرفنا أنَّ المراد به التصديق القلبي، لا أي تصديق كان... ويكون النطق باللسان مبيِّناً لظهوره، والأعمال الصالحات ثمرات مؤكِّدة له[٢].

ويتَّضح مما تقدَّم مدخلية القلب في تحقُّق الإيمان فهو أُسُّه ومحلّه، وأمَّا اللِّسان فإن أمسك لتقيَّة أو مانع قهري يضطر إليه فلا مانع من تحقُّق الإيمان الذي استوطن القلب، وإلَّا يتعيَّن فيه الإظهار، وهو علىٰ كلِّ حال لازم أعم.

---

(١) تحف العقول: ٣٧٠.

(٢) إرشاد الطالبين: ٤٤٢.

وبعد هذا نرجع إلىٰ محل كلامنا حيث قلنا إنَّه لا يُتصوَّر مجانبة الأصول العقائدية الإيمان، فلابدَّ فيها من عقد القلب فيأتي السؤال ما هو متعلّق الإيمان الذي يجب عقد القلب عليه ليتحقَّق الإيمان الشرعي، لأنَّه من الواضح أنَّ مجرَّد عقد القلب علىٰ أي أمر ليس هو المطلوب في الشريعة، بل هناك أمور دعت الشريعة إلىٰ عقد القلب عليه، وبها يكون الإنسان مؤمناً شرعياً لا مؤمناً بالمعنىٰ اللغوي للإيمان وهو عقد القلب.

إذن هناك مقامان من البحث:

الأوَّل: معنىٰ وماهية مفهوم الإيمان وهو عقد القلب ويقابله الإسلام وهو الإقرار باللِّسان بدون عقد القلب.

الثاني: بماذا يتحقَّق الإيمان المطلوب وما هو متعلَّق الإيمان، وبعبارة أخرىٰ إذا عقد الإنسان قلبه علىٰ بعض الأمور الدينية قد يكون مؤمناً بالمعنىٰ اللغوي، ولكنه لا يكون مؤمناً شرعياً، بل مسلم، إذن مجرَّد الإقرار باللِّسان وعقد القلب علىٰ بعض القضايا الدينية لا يخرج الشخص إلىٰ درجة الإيمان المطلوب – الذي به قبول الأعمال وعليه تدور دائرة الثواب – ما لم يتضمَّن الحد الأدنىٰ من الاعتقادات التي يجب عقد القلب عليها.

إذن الايمان علىٰ مراتب، الدرجة الأولىٰ بمعنىٰ عقد القلب، والدرجة الثانية وهي المطلوبة وهي محل قبول الأعمال ومحل الثواب، إذن المطلوب في هذه المرتبة لا فقط عقد القلب، بل عقد القلب علىٰ شيء معيَّن.

ومن هنا نسأل: ما هو أقل ما ينبغي للإنسان أن يعقد القلب عليه ليصل إلىٰ هذه المرتبة من الإيمان؟

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ أوَّل ما يُسأل عنه العبد إذا وقف بين يدي الله عز وجل الصلوات المفروضات، وعن الزكاة المفروضة، وعن الصيام المفروض، وعن الحج المفروض، وعن ولايتنا أهل البيت، فإن أقرَّ بولايتنا ثم مات عليها قبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجّه، وإن لم يقر بولايتنا بين يدي الله جل جلاله لم يقبل الله عز وجل منه شيئاً من أعماله»[1].

وعن سفيان بن المسط، قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن الإسلام والإيمان، ما الفرق بينهما؟ فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثم التقيا في الطريق وقد أزف من الرجل الرحيل، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «كأنَّه قد أزف منك رحيل»؟ فقال: نعم، فقال: «فالقني في البيت»، فلقيه فسأله عن الإسلام والإيمان ما الفرق بينهما؟ فقال: «الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس، شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، فهذا الإسلام»، وقال: «الإيمان معرفة هذا الأمر، مع هذا فإن أقرَّ بها - بأصول الإسلام - ولم يعرف هذا الأمر كان مسلماً وكان ضالاً»[2]،[3].

---

(١) بحار الأنوار (مؤسسة الوفاء) - العلامة المجلسي: ج٢٧، ص١٦٧.

(٢) ويظهر من الرواية أنَّ بين الإيمان والإسلام فرقاً، وهو اعتبار اعتقاد الولاية في الإيمان، وذكر الأعمال إمَّا بناء على اشتراط الإيمان بالأعمال أو المراد الاعتقاد بها، ويرشد إليه قوله: (فإن أقرَّ بها)، أو الغرض بيان العقائد وجل الأعمال المشتركة بين أهل الإسلام والإيمان، والوصف بالضلال وعدم إطلاق الكفر عليهم إمَّا للتقية في الجملة، أو لعدم توهُّم كونهم في الأحكام الدنيوية في حكم الكفار.

(٣) المصدر: أصول الكافي - ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني: ج٢، ص٢٤.

عن سليم بن قيس، قال: سمعت علياً (صلوات الله عليه) يقول وأتاه رجل فقال له: ما أدنىٰ ما يكون به العبد مؤمناً، وأدنىٰ ما يكون به العبد كافراً، وأدنىٰ ما يكون به العبد ضالاً؟ فقال له: «قد سألت فافهم الجواب: أمَّا أدنىٰ ما يكون به العبد مؤمناً أن يعرفه الله تبارك وتعالىٰ نفسه فيقرّ له بالطاعة، ويعرفه نبيَّه صلى الله عليه وآله فيقرّ له بالطاعة، ويعرفه إمامه وحجته في أرضه وشاهده علىٰ خلقه فيقر له بالطاعة»، قلت له: يا أمير المؤمنين إن جهل جميع الأشياء إلَّا ما وصفت؟ قال: «نعم إذا أمر أطاع وإذا نهىٰ انتهىٰ»[1].

ونستشف من الكلام السابق أنَّ أوَّل مرتبة من مراتبه تتضمَّن قضية الولاية والإيمان بقضية الإمام المهدي عجل الله فرجه.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّكم لا تكونون صالحين حتَّىٰ تعرفوا، ولا تعرفون حتَّىٰ تصدّقوا، ولا تصدّقون حتَّىٰ تسلموا أبواباً أربعة لا يصلح أوّلها إلَّا بآخرها، ضلَّ أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهاً بعيداً، إنَّ الله تبارك وتعالىٰ لا يقبل إلَّا العمل الصالح، ولا يتقبَّل الله إلَّا بالوفاء بالشروط والعهود، ومن وفىٰ الله بشروطه واستكمل ما وصف في عهده نال ما عنده واستكمل وعده، إنَّ الله عز وجل أخبر العباد بطريق الهدىٰ وشرع لهم فيها المنار، وأخبرهم كيف يسلكون، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فمن اتَّقىٰ الله عز وجل فيما أمره لقي الله عز وجل مؤمناً بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله، هيهات هيهات فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا وظنّوا أنَّهم آمنوا، وأشركوا من حيث لا يعلمون أنَّه من أتىٰ البيوت من

(١) المصدر: أصول الكافي: ج٢، ص٤١٤.

أبوابها اهتدىٰ ومن أخذ في غيرها سلك طريق الردىٰ، وصل الله طاعة ولي أمره بطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله وهو الإقرار بما نزل من عند الله تعالىٰ...» إلخ[1].

فنجد أنَّه ركيزة من ركائز تحقُّق الحد الأدنىٰ في الإيمان هي قضية الإيمان بالإمام المهدي عجل الله فرجه، ومن هنا يأتي هذا السؤال وهو أنَّه ما هو الأثر المترتّب علىٰ عدم الإيمان بقضية الإمام المهدي عجل الله فرجه، ومن هنا جاء التفريق بين الإسلام والإيمان في كلمات الأعلام والآثار المترتبة علىٰ ذلك.

وفي هذا الصدد آراء: منها ما ذكره الشيخ محمد هادي آل راضي، ويطابقه رأي المرجع السيد الخوئي، فيقول: هناك عنوانين متداولين في النصوص الشرعية... وهما الإسلام والإيمان.

أمَّا الإسلام فيُطلق ويراد به أحد معنيين:

المعنىٰ الأوَّل: الإقرار الظاهري بالشهادتين فقط وإن لم يقترن بالتصديق والإذعان القلبي... وهو المعبَّر عنه في بعض الكلمات بالإسلام الظاهري، وتترتَّب عليه جملة من الآثار الدنيوية مثل حقن الدماء... وجواز النكاح واستحقاق الميراث... من دون لزوم التفتيش عن الباطن، وهل يعتقد واقعاً بما قاله وأقرَّ به أو لا...

وهذا المعنىٰ هو المراد غالباً من الإسلام في الروايات...

ومنه يظهر أنَّ الإسلام بهذا المعنىٰ يدخل فيه كل الفرق الإسلامية ممن يظهر الشهادتين إذا لم يصدر منه ما ينافي الإقرار بهما...

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٤٤٥.

المعنىٰ الثاني: الإسلام الواقعي وهو التصديق والإيمان القلبي بالأصول الأساسية للإسلام بما فيها الإمامة والولاية مع إظهار ذلك... ويترتَّب علىٰ ذلك جميع الآثار الدنيوية للإسلام بالمعنىٰ الأوَّل مضافاً إلىٰ آثار أخروية مثل صحة الأعمال واستحقاق الثواب عليها وعدم الخلود في النار ونحو ذلك.

فالمعتبر في الإسلام الواقعي مضافاً إلىٰ الإقرار بالشهادتين أمران:

١ - التصديق والإذعان القلبي.

٢ - الاعتقاد بالأصول الأساسية للإسلام كالإمامة والعدل فلا يكفي الاعتقاد بالتوحيد والنبوة فقط.

ومنه يظهر: أنَّ الأصول الخمسة المعروفة كلّها أصول دين وأصول للإسلام الواقعي ويُطلب من كلّ مكلّف الاعتقاد بها جميعاً، وأنَّ الاعتقاد ببعضها فقط لا يُصيِّر المكلّف مسلماً واقعياً، انتهىٰ[1].

ومن الآراء المعتبرة: رأي سماحة المرجع الأعلىٰ السيد السيستاني دام ظله، ومحل الشاهد فيما نحن فيه هو علم المخالف بالإمامة والتنكُّر القلبي لها، فهل القضية مانعة جمعٍ - الإسلام وعدم الإيمان -؟

ويذهب إلىٰ: يعتبر المسلم غير الاثنا عشري مسلماً واقعاً وظاهراً - والكلام في الأحكام الفقهية ولوازم تأثيرها في الأمور الدنيوية -، وبذلك فإنَّ عبادته من صلاته وصومه وحجّه تكون مجزية ومبرئة لذمَّته من التكليف بها إذا كانت مستوفية للشروط - كما إذا قصد الحج واتِّفاقاً عمل بشروط صحَّته وفق المذهب

---

(١) المصدر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية - الشيخ محمد هادي آل راضي - بحث ضروريات الدين والمذهب.

الإمامي، فإنَّه محكوم بالصحة واقعاً وإن كانت عقيدته ناقصة وفاقدة لبعض الضروريات، وكذلك الحال مثلاً في عقد نكاحه فإنَّه محكوم بالصحة واقعاً، وغير ذلك من الأحكام الفقهية التي يحكم غيره من الفقهاء بفسادها الواقعي وصحَّتها الظاهرية مما يستدعي إعادتها علىٰ فرض استبصاره - فلا فرق بين الشيعة وجميع المسلمين في أنَّ الجميع مسلم واقعاً وظاهراً - بلحاظ الأثر الدنيوي وأمّا الأخروي فرأيه كالسيد الخوئي سواء.

وهذا الرأي لا يخص السيد السيستاني دام ظله، بل سبقه أستاذه السيد البروجردي وأستاذه السيد الكوهكمري قدس سرهما، وكذلك الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره[1].

المحور الخامس: ما هو متعلّق الإيمان بالمهدوية؟ معرفة هوية أو وصفية؟

يعتمد الارتباط بين طرفين - وإن كان أحدهما دانٍ والآخر عالٍ كما في الباري تبارك وتعالىٰ ومخلوقه أو وليّه الأعظم صلى الله عليه وآله ومولاه - علىٰ طبيعة المواصفات والخصوصيات التي يتمتَّع بها المراد الاتِّصال به، لتحديد العنوان والمعنون.

فيتعيَّن تحديد العنوان المناسب للعلاقة المتصوّرة بالإمام المهدي عجل الله فرجه، فهل هو صاحب؟ أو ناصر؟ أو محب؟ أو مطيع؟ أو معين؟ أو هو الولي الواجب الطاعة صاحب مقام الخلافة والولاية التشريعية والتكوينية؟

---

(١) كلام السيد منير الخباز، مع تصرُّف توضيحي.

ونستعرض مواصفاته عجل الله فرجه مدعوماً بالأدلة ليتَّضح العنوان المناسب المنعقد:

هو محمد بن الإمام الحسن العسكري عليهما السلام، ويرجع نسبه إلىٰ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد توفي الإمام العسكري عليه السلام وله من العمر خمس سنوات، وهناك نصوص كثيرة عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام في إمامته، ومنها:

عن الباقر عليه السلام: «ولد للحسين عليه السلام تسعة أئمة تاسعهم القائم»[1].

وذكر أحمد بن إسحاق الأشعري: دخلت علىٰ أبي محمد الحسن العسكري وأنا أريد أن أسأله عن الخلف من بعده، فقال لي مبتدئاً: «يا أحمد بن إسحاق، إنَّ الله تبارك وتعالىٰ لم يخل الأرض منذ خلق آدم ولا يخليها إلىٰ أن تقوم الساعة من حجَّةٍ علىٰ خلقه...»، فقلت له: يا بن رسول الله فمن الخليفة والإمام بعدك؟ فنهض مسرعاً فدخل البيت ثم خرج علىٰ عاتقه غلام كأنَّ وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين، وقال: «يا أحمد بن إسحاق، لولا كرامتك علىٰ الله وعلىٰ حججه ما عرضتُ عليك ابني هذا، إنَّه سمِّي رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيّه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يا أحمد بن إسحاق مثله في هذه الأُمَّة مثل الخضر ومثله مثل ذي القرنين، والله ليغيبنَّ غيبة لا ينجو من الهلكة فيها إلَّا من ثبته الله علىٰ القول بإمامتهم ووفقه للدعاء بتعجيل الفرج».

قال أحمد بن إسحاق: فقلت له: يا مولاي فهل من علامة يطمئن إليها قلبي؟

---

(١) الكافي: ج١، باب الاثني عشر والنص عليهم، ح١٥.

فنطق الغلام بلسان عربي فصيح، فقال: «أنا بقية الله في أرضه والمنتقم من أعدائه، فلا تطلب أثراً بعد عين يا أحمد بن إسحاق»[١].

أمَّا ما ورد في كتاب الله العزيز فقد وردت ما يقارب (٥٠٠) آية اعتمد في تفسيرها المفسِّرون علىٰ روايات الأئمة عليهم السلام، وخصَّ العلامة المجلسي في المجلد (٥١) من كتاب بحار الأنوار فصلاً بهذه الآيات سمَّاه (باب الآيات المؤولة بقيام القائم) وجمع فيه (٧٧) آية ضمن (٦٦) حديثاً حول دولة الإمام المهدي عجل الله فرجه، ووفق هذا الوصف والخصوصية فإنَّ متعلّق الإيمان بالمهدوية هو كونه إماماً مفترض الطاعة والخضوع والسيادة والولاية في عالم الثبوت والإثبات.

المحور السادس: ما حكم غير المؤمن بالإمام المهدي عجل الله فرجه:

من القضايا الفكرية الخطيرة هي تداعيات عدم قبول القضية المهدوية للمآل إلىٰ الكفر، ومنشأ ذلك عنصرين:

الأوَّل: المهدوية ضرورة دينية.

الثاني: التهتك في السُنَّة الشريفة.

والأوَّل: دليل ضرورتها:

والإجماع حجة ولا يقدح بهذا الإجماع الأقوال المتطرفة الشاذة: أجمعَ المسلمون قاطبة بنحو القطع الذي لا خلاف فيه علىٰ ظهور الإمام المهدي المنتظر.

وإن قلت: كيف صارت القضية المهدوية من الضرورات المجمع عليها؟

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٢، ص٢٣، ح١٦.

قلت: لتواتر أحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه تواتراً قطعياً، وذلك ينتج تكفير ما قطع بثبوته عن النبي صلى الله عليه وآله.

ودعوىٰ التواتر ثابتة عند الفريقين وصرَّحوا بها، كابن حجر العسقلاني في الصواعق والسفاريني الحنبلي في اللوائح والآبري في مناقب الشافعي والشوكاني في عون المعبود والقرطبي في تفسيره وغيرهم لم نذكرها لضيق المقام.

وأخرجها أكابر أئمتهم وصنَّفوها بنحو خاص من أمثال:

(البرهان في علامات مهدي آخر الزمان - للملا علي المتقي)، و(مناقب المهدي - لأبي نعيم الأصبهاني)، و(مهدي آل الرسول - لعلي بن سلطان الهروي الحنفي)، و(القول المختصر في علامات المهدي المنتظر - لابن حجر) وغيرهم كثير.

نعم، حاول البعض المتطرِّف الطعن بذلك التواتر بذريعة عدم ذكر المهدي عليه السلام في الصحيحين.

ولكنه قول مردود لوجهين:

١ - لم تصح دعوىٰ البخاري ومسلم بكلِّ حديث صحيح من أحد، فهناك مقدار وافر من الأحاديث لم يذكراها وذكرها وصحَّحها آخرون ولم يُطعن بها.

٢ - قد تمَّ بالفعل إخراج كل من البخاري ومسلم أحاديث عن الإمام المهدي عجل الله فرجه، فقد ورد في البخاري عن أبي هريرة: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم).

وورد في مسلم عن جابر وأبي سعيد: (يكون في آخر الزمان خليفة يحثو المال حثواً ولا يعدّه عدّا)[١].

وقد فسَّرتهما روايات أخرىٰ بتشخيص الإمام المهدي عجل الله فرجه مصداق لهما.

والثاني: التهتك في السُنَّة:

ما ذكره ابن حجر عندما سُئل عمَّن أنكر الإمام المهدي عجل الله فرجه قائلاً: (إنَّ ذلك إن كان لإنكار السُنَّة رأساً فهو كفر يُقضىٰ علىٰ قائله بسبب كفره وردَّته فيُقتل)[٢].

وقال الشيخ البهائي مفتياً في مسألة كون العقيدة المهدوية من الضروريات أو لا؟ وحكم من أنكرها:

(الأظهر أنَّه من ضروريات الدين، لأنَّه مما انعقد عليه إجماع المسلمين ولم يخالف فيه إلَّا شرذمة شاذة لا يُعبأ بهم، لا يُعتمد عليهم ولا بخلافهم، ولا يَقدح خروج أمثال هؤلاء من ربقة الإجماع في حجيَّته فلا مجال للتوقُّف في كفرهم إن لم تكن لهم شبهة محتملة)[٣].

* * *

(١) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: ج٢، ص٣١٢.

(٢) الروض الفسيح في الفرق بين المهدي والمسيح: ص٢٢، وقد ذكر المتقي الهندي في كتابه البرهان: ص١٧٨ هذه الفتوىٰ وأوردها ابن حجر مختصرة في الفتاوي الحديثة: ص٣٧.

(٣) الروض الفسيح في الفرق بين المهدي والمسيح: ص٢٣.

الدرس السابع

موقع قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في منظومة عالم التكوين (١)

القسم الأوَّل:

انتهىٰ بنا الحديث في البحث السابق إلىٰ موقع الإمامة وقضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في منظومة المعارف الدينية، واتَّضح أنَّها أصل من الأصول التي تطلب الإيمان، ولا يكفي العلم بها واتَّضحت النتائج المترتبة علىٰ منكرها في البعدين الدنيوي والأخرىٰ الفقهي والكلامي.

أمَّا الآن فيقع البحث في موقع الإمامة وقضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في منظومة عالم التكوين لنرىٰ أين موقعها، وما هي النتائج المترتِّبة علىٰ ذلك.

إنَّ الله تعالىٰ خلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولم يكن خلق الإنسان عبثاً ولعباً، كما أشارت الآيات القرآنية.

قال تعالىٰ: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦).

وقال تعالىٰ: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص: ٢٧).

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

ووقع لبهلول[١] معه - الحسن العسكري عليه السلام - أنَّه رآه وهو صبي يبكي والصبيان يلعبون، فظنَّ أنَّه يتحسَّر علىٰ ما في أيديهم، فقال: أشتري لك ما تلعب به؟ فقال: «يا قليل العقل ما للعب خلقنا»، فقال له: فلماذا خلقنا؟ قال: «للعلم والعبادة»، فقال له: من أين لك ذلك؟ قال: «من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]»، ثم سأله أن يعظه فوعظه بأبيات ثم خرَّ الحسن مغشياً عليه، فلمَّا أفاق قال له: ما نزل بك وأنت صغير لا ذنب لك؟ فقال: «إليك عنِّي يا بهلول، إنِّي رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار فلا تقد إلَّا بالصغار، وإنِّي أخشىٰ أن أكون من صغار حطب جهنم»[٢].

إذن الإنسان لماذا خُلق؟

لما نرجع إلىٰ القرآن الكريم نجد أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) بيَّن هدف الخلق، ولماذا خلق الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، إذن لو جاءنا هذا السؤال لماذا خلق الله الخلق؟ الجواب يأتي من سورة الذاريات لأجل العبادة وهذه حقيقة قرآنية لا كلام فيها.

---

(١) لعلَّ المراد به بهلول بن إسحاق بن بهلول (٢٠٤-٢٩٨هـ) أو أخوه المعروف بابن بهلول، وهو أحمد بن إسحاق بن بهلول (٢٣١-٣١٨هـ) وكلاهما من العلماء المعاصرين له عليه السلام. [راجع: سير أعلام النبلاء ١٣: ٥٣٥ / ٢٦٨ و١٤: ٤٩٧ / ٢٨١، أعلام الزركلي ١: ٩٥].

(٢) شرح إحقاق الحق: ج١٩، ص٦٢٠.

سؤال: ما هو الهدف والغاية من العبادة؟ لماذا يريد الله (سبحانه وتعالىٰ) من الجن والإنس أن يعبدوه؟

من الواضح أنَّ الله غني عنها ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

إذن لماذا العبادة؟

الجواب: لأن يصلوا إلىٰ القرب الإلهي.

ولهذا نجد أنَّه سبحانه لم يفرض عبادة إلَّا بقصد القربة إليه، ومن البديهي لا يُقصد من القرب المكان، بل المراد منه حركة النفس الواقعية بتكاملها وبلوغها الدرجات العالية في السلوك نحو الله سبحانه.

وقد وردت آيات كريمة عدَّة بيَّنت منزلة المقرَّبين، منها:

قال تعالىٰ: ﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨-١١).

وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتابٌ مَرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ١٨-٢١).

فنلاحظ أنَّ درجة المقرَّبين سامية جدّاً تفوق درجة الأَبرار في سُلَّم الكمال، بحيث تؤهِّل المقرَّب إلىٰ الشهادة علىٰ ما في كتاب الأَبرار بمعنىٰ أَنَّ أَعمال الأَبرار حاضرة عند المقرَّبين.

المهم أنَّ القُرب الإلهي يتحقَّق بالسبق إلىٰ الله تعالىٰ بالعبودية المحضة والتسليم المطلق.

ومن هنا نجد السيد العلامة في الميزان[1] يقول: (فالمقرَّبون هم النمط الأعلىٰ من أهل السعادة كما يشير إليه قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]، ولا يتم ذلك إلَّا بكمال العبودية كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، ولا تكمل العبودية إلَّا بأن يكون العبد تبعاً محضاً في إرادته وعمله لمولاه لا يريد ولا يعمل إلَّا ما يريده، وهذا هو الدخول تحت ولاية الله، فهؤلاء هم أولياء الله).

سؤال: ما هو القرب الإلهي؟

هو أن يصل الإنسان إلىٰ أن يكون موصوفاً بالصفات الإلهية، يعني من الصفات الإلهية العلم، من الصفات الإلهية الرأفة، ولذا نجد القرآن الكريم أضاف كل الصفات الإلهية الحسنة والجميلة لرسوله صلى الله عليه وآله باعتبار أنَّ الرسول الأكرم هو أقرب المخلوقات إلىٰ الله (سبحانه وتعالىٰ)، فإذن هو أفضل من تجلَّت فيه جميع الأسماء والصفات الإلهية، ولذا تجد ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، الرحمة، الغناء، الرأفة، الهداية، إلىٰ آخره، كلّ هذه صفات إلهية، كلّها اتَّصف بها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أيضاً.

إذن إذا أردنا أن نلخص في كلمة واحدة نقول: الهدف من العبادة أن يصل ويتخلَّق الإنسان بالأخلاق الإلهية وبالصفات الربانية وبالمعاني الإلهية الجمالية والجلالية.

---

(١) تفسير الميزان: ج١٩.

وهذه هي الخلافة التي عبَّر عنها القرآن ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

وعند هذا المطلب - خليفة الله - نتوقَّف، فمن هو الخليفة؟ ولماذا كان موجوداً أرضياً؟ وهل أنَّ الخلافة مفهوم متواطئ أو مشكّك؟

وفي مقام الجواب عن الأوَّل[1] ينبغي الالتفات إلىٰ مستخلَف ذلك الخليفة لما في ذلك من تأثير علىٰ التشخيص، وقد ذكرت أقوال متعدِّدة فيه، منه أنَّه الملائكة أو الجن أو كلّ الموجودات غير الإنسان أو الناس السابقون علىٰ خلق الإنسان - متعلّق حديث الآية - والمعروفون باسم النسناس، وقول يذهب إلىٰ كون المستخلَف هو الله سبحانه مما يستدعي استعداد وقابلية العلم بالأسماء وليس هو علماً حصولياً بل حضورياً، ليقترن بالتلبُّس وتجسيد الصفات الإلهية ليصدق عليه وظيفة الاستخلاف، وبذلك تكون الخلافة مطلقة لا نسبية، ولازمها أن يكون الخليفة بإذنه تعالىٰ مظهراً لجميع الأسماء الحسنىٰ، حائزاً علىٰ تقليد أفعاله سبحانه بأتم وجه.

والراجح من تلك الأقوال هو الأخير، وذلك:

١ - لا تناسب بين الطبيعة الملائكية وظرف الأرضية التي تلازمها الشهوة والغضب والتزاحم، فإنَّ في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ۝٢٦ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٧) دلالة علىٰ عصمة الملائكة جميعاً، ويمتنع ذلك علىٰ المجتمع الأرضي لما يلازمه من تزاحم وحركة، إضافة لما ذكرته الآية المباركة علىٰ لسان الملائكة المستفهمين عند المقارنة بينهم وبين

(١) تفسير تسنيم في تفسير القرآن - الشيخ الجوادي الأملي: ج٣، ص٦٢.

المخلوق الجديد: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠)، ولو كان أحدهم لما كان بُداً من تلك المقايسة.

٢- إنَّ ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) أنَّ المتكلِّم بصدد الاستخلاف عن نفسه وليس عن غيره.

٣ - إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ (البقرة: ٣٤) دال علىٰ أنَّ سجودهم لخليفة الله سبحانه وليس خليفة عن غيره سبحانه لعدم المسوِّغ في السجود للمستخلف عنه، فكيف بالخليفة نفسه.

٤ - إنَّ تعجُّب الملائكة دالٌّ علىٰ كونها ظاهرة جديدة وليست من نوع الخلافة التاريخية حيث يسبق الملائكة بالعلم بها فلا مجال للتعجُّب.

٥ - لو كان المستخلف كل مَن هو غير الإنسان من عالم الإمكان، فلا يصدق علىٰ ذلك خلافة مع بقاء كلّ شيء في محلّه واستمراره في أداء وظيفته.

وأمَّا في مقام الجواب عن الثاني: فإنَّه سبحانه رغم كونه لا تنقصه قدرة ﴿وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما...﴾ (البقرة: ٢٥٥) قد جعل له خليفة ومن نوع الموجود الأرضي وذلك لما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿... قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴿٣١﴾ قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا...﴾ (البقرة: ٣٠-٣٢).

فيتَّضح أنَّ سبب تعيينه هو علمه بالأسماء الإلهية - العلم الحضوري التكويني - وهو ما لم تمتلك الملائكة القابلية والحيثية علىٰ اكتسابه.

وأمَّا ما يرتبط بالمطلب الثالث فيمكن القول:

إنَّ لمعنىٰ الخلافة حقيقة جامعة ذات درجات كثيرة، ولكن المصداق العيني المقصود في آية الاستخلاف ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) فهو يختص بالخلافة المطلقة الكاملة التي تصدق علىٰ الإنسان الكامل الذي يؤدِّي جميع شؤون عالم الإمكان بإذنه سبحانه علىٰ أساس (واسطة الفيض)، وسيأتي الكلام في ذلك.

ولن يبلغ هذا المقام إلَّا من كان عنده سعة وجودية شاملة للتخلُّق بأخلاق الله سبحانه وبإذنه.

وأمَّا بقية أفراد الإنسان فيمكن أن يكون خليفته سبحانه بمقدار ما لديه من علم واستعداد، فمثلاً في داود عليه السلام يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرضِ﴾ (ص: ٢٦)، حيث كانت خلافته بمقدار القضاء الحق في الأرض، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرضِ﴾ (فاطر: ٣٩)، وغيرها من الآيات.

يقول السيد العلامة[1]: (الخلافة وهي قيام شيء مقام آخر لا تتم إلَّا بكون الخليفة حاكياً للمستخلف في جميع شؤنه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلف، والله سبحانه في وجوده مسمَّىٰ بالأسماء الحسنىٰ متَّصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، منزَّه في نفسه عن النقص ومقدّس في فعله عن الشر والفساد جلَّت عظمته) انتهىٰ.

وهذه الخلافة الإلهية هي التي عبَّر عنها العرفاء بالإنسان الكامل.

---

(١) تفسير الميزان: ج١، ص١١٥.

ومن هنا يأتي السؤال أنَّه: ما هي وظيفة هذا الإنسان الكامل أو الخليفة الإلهي؟

الوظيفة الأولىٰ: واسطة الفيض:

ولنا فيها عدَّة وقفات:

الأولىٰ: الاستدلال علىٰ واسطة الفيض من خلال قاعدة الواحد:

فقد ذهب الحكماء إلىٰ أنَّ الواحد لا يصدر عنه إلَّا واحد، لأنَّ صدور الكثير بما هو كثير من الواحد بما هو واحد وبسيط الوجود غير ممكن، لأنَّ ذلك ينافي أحديَّته وبساطة وجوده تعالىٰ، فيلزم تركُّبه (جلَّ وعلا)، ولا شكَّ أنَّ التركيب يستدعي الافتقار إلىٰ الأجزاء، وأن يكون مسبوقاً بالعدم، وكلّ ذلك يتنافىٰ مع وجوب وجوده (سبحانه وتعالىٰ).

النتيجة: أنَّ من آمن بقاعدة الواحد يذهب إلىٰ لابدية وجود واسطة بين الحق (سبحانه وتعالىٰ) وعالم الإمكان.

الثانية: أمَّا من لم يقبل هذه القاعدة فأيضاً انتهىٰ إلىٰ نفس النتيجة - وساطة الفيض -:

فذهب إلىٰ أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) وإن كان قادراً علىٰ إيصال فيضه إلىٰ جميع الموجودات، لكن شاءت حكمته (سبحانه وتعالىٰ) أن يوصل فيضه إلىٰ خلقه من خلال الواسطة، وهذا ما نجده واضحاً في القرآن الكريم.

فمن المعلوم نسبة كلّ تأثير لله سبحانه، فهو من بيده كلّ شيء، وواهب كلّ شيء، ولا مؤثِّر في الوجود سواه سبحانه، والآيات المباركات تشير إلىٰ ذلك، فهو المُطعم والساقي والشافي والرازق.

قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (الشعراء: ٧٩-٨١).

ولكن لم نعهد في معايشنا الإرفاد الإلهي المستمر بنحو مباشر، فجميعنا يحتاج إلىٰ الأسباب المادية لتحصيل الحوائج، كالطعام والشراب لسدِّ الجوع والعطش، والطبيب والدواء لكسب العافية، والتكسُّب بأنواعه لتحصيل الرزق.

وقال تعالىٰ: ﴿اللهُ يَتَوَفَّىٰ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها...﴾ (الزمر: ٤٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ... ﴾ (الأنعام: ٦٠).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ... ﴾ (السجدة: ١١).

وقال تعالىٰ: ﴿... تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا... ﴾ (الأنعام: ٦١).

وقال تعالىٰ: ﴿... تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ... ﴾ (النحل: ٢٨ و٣٢).

وقال تعالىٰ: ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ (النازعات: ٥).

إذن اتَّضح أنَّ الله تعالىٰ أوصل فيضه إلىٰ ما وراء الحقيقة المحمدية بتوسط الحقيقة المحمدية، فالحقيقة المحمدية هي الواسطة، نعم، المفيض هو الله، المعطي هو الله، الفاعل هو الله، الموجد هو الله، القادر هو الله، ولكن اقتضت حكمته أن يعطي للبعض مع الواسطة وللبعض بلا واسطة.

فلا إشكال ولا شبهة أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) اقتضت حكمته أن يكون هناك بينه وبين خلقه واسطة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ... قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ﴾ (البقرة: ٣١-٣٣).

الثالثة: الروايات التي بيَّنت أنَّ العالم عالم الوسائط:

حديث اليقطيني، قال أبو عبد الله عليه السلام: «أبىٰ الله أن يجري الأشياء إلَّا بالأسباب، فجعل لكلِّ شيء سبباً، وجعل لكلِّ سبب شرحاً، وجعل لكلِّ شرح مفتاحاً، وجعل لكلِّ مفتاح علماً، وجعل لكلِّ علم باباً ناطقاً...» إلخ[١].

الرابعة: كلمات بعض الأعلام في وجود الإنسان الكامل:

يقول الآلوسي[٢]: (ولم تزل تلك الخلافة في الإنسان الكامل إلىٰ قيام الساعة وساعة القيام، بل متىٰ فارق هذا الإنسان العالم مات العالم، لأنَّه الروح الذي به قوامه، فهو العماد المعنوي للسماء، والدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه، ولما كان هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته صحَّت له الخلافة وتدبير العالم، والله سبحانه الفاعل لما يريد، ولا فاعل علىٰ الحقيقة سواه وفي المقام ضيق، والمنكرون كثيرون ولا مستعان إلَّا بالله عزَّ وجلَّ).

يقول الفخر الرازي[٣]: (ولا شكَّ أنَّه يحصل فيهم شخص واحد، هو أفضلهم وأكملهم [فعلىٰ هذا قد ثبت أنَّه لابدَّ وأن يحصل في كلِّ دور شخص واحد هو أفضلهم وأكملهم] في القوة النظرية والعملية، ثم إنَّ الصوفية يسمُّونه

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص١٠٤، ح٦٠؛ وص٩٠، ح١٥.
(٢) روح المعاني - الآلوسي: ج٢، ص٩١ في ذيل الآية ٣٠ من سورة البقرة.
(٣) المطالب العالية في العلم الإلهي: ج٨، ص١٠٥.

بقطب العالم، ولقد صدقوا فيه... [فثبت: أنَّ ذلك الشخص هو الكامل وثبت: أنَّ ذلك الشخص] هو القطب لهذا العالم العنصري، وما سواه فكالتبع له).

ولهذا جملة عند المحقِّق الطوسي يقول في شرح التجريد[١]: (ووجوده لطف وتصرُّفه آخر [يعني لطف آخر] وعدمه منَّا [ولكن لم يتصرَّف لأنَّنا منعنا]).

فإذن في وجوده لطفان نعمتان كبيرتان، النعمة الأكبر هو واسطة الفيض وروح هذا العالم واللطف الأصغر هو أن يدير هذا العالم.

الخامسة: الروايات التي شخَّصت ذلك الخليفة والإنسان الكامل:

عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «أبىٰ الله أن يجري الأشياء إلَّا بأسباب، فجعل لكلِّ شيء سبباً، وجعل لكلِّ سبب شرحاً، وجعل لكلِّ شرح علماً، وجعل لكلِّ علم باباً ناطقاً، عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن»[٢].

«إرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليكم، وتصدر من بيوتكم»[٣].

وإنَّ قوماً من المفوِّضة قد وجَّهوا كامل بن إبراهيم المدني إلىٰ أبي محمد عليه السلام قال كامل: قلت في نفسي أسأله: لا يدخل الجنّة إلَّا من عرف معرفتي؟ وكنت جلستُ إلىٰ باب عليه ستر مرخىٰ، فجاءت الريح فكشفت طرفه، فإذا أنا بفتىٰ كأنَّه فِلقة قمر من أبناء أربع سنين أو مثلها، فقال لي: «يا كامل بن إبراهيم»، فاقشعررت من ذلك وأُلهمت أن قلت: لبّيك يا سيّدي.

---

(١) تجريد الاعتقاد بحث الإمامة.

(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص١٠٤.

(٣) كامل الزيارات: ص٣٦٢.

فقال: «جئت إلىٰ وليِّ الله تسأله: لا يدخل الجنة إلَّا من عرف معرفتك وقال بمقالتك»؟

قلت: إي والله.

قال: «إذن والله يقلّ داخلها، والله إنَّه ليدخلها قوم يقال لهم الحقيّة».

قلت: ومن هم؟

قال: «قوم مِن حبُّهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام يحلفون بحقّه وما يدرون ما حقّه وفضله».

[أي قومٌ يعرفون ما يجب عليهم معرفته جملة لا تفصيلاً من معرفة الله ورسوله والأئمة عليهم السلام].

ثم قال: «جئت تسأله عن مقالة المفوِّضة؟ كذبوا، بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله، فإذا شاء شئنا، والله يقول: ﴿وَما تَشاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فقال لي أبو محمّد عليه السلام: «ما جلوسك وقد أنبأك بحاجتك الحجة من بعدي»، فقمت وخرجت ولم أعاينه بعد ذلك[1].

ومما رواه ابن مسعود، قال: دخلت يوماً علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله عليك السلام، أرني الحق لأنظر إليه، فقال: «يا عبد الله لج المخدع»، فولجت المخدع وعلي بن أبي طالب عليه السلام يصلِّي وهو يقول في سجوده وركوعه: «اللَّهم بحقِّ محمد عبدك اغفر للخاطئين من شيعتي»، فخرجت حتَّىٰ اجتزت برسول الله صلى الله عليه وآله فرأيته يصلِّي وهو يقول: «اللَّهم بحقِّ علي عبدك اغفر للخاطئين من أُمَّتي»، قال: فأخذني من ذلك الهلع العظيم، فأوجز النبي صلى الله عليه وآله في صلاته

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٣٦.

وقال: «يا ابن مسعود، أكفرٌ بعد إيمان»؟ فقلت: حاشا وكلّا يا رسول الله، ولكن رأيت علياً يسأل الله بك ورأيتك تسأل الله بعلي، فلا أعلم أيّكما أفضل عند الله عزّ وجلّ؟ قال: «اجلس يا ابن مسعود»، فجلست بين يديه فقال لي: «اعلم أنَّ الله خلقني وعلياً من نور قدرته قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، إذ لا تسبيح ولا تقديس، ففتق نوري فخلق منه السماوات والأرضين، وأنا والله أجلّ من السماوات والأرضين، وفتق نور علي بن أبي طالب فخلق منه العرش والكرسي، وعلي بن أبي طالب والله أفضل من العرش والكرسي، وفتق نور الحسن فخلق منه اللوح والقلم والحسن والله أفضل من اللوح والقلم، وفتق نور الحسين فخلق منه الجنان والحور العين والحسين والله أفضل من الحور العين، ثم أظلمت المشارق والمغارب، فشكت الملائكة إلىٰ الله تعالىٰ أن يكشف عنهم تلك الظلمة، فتكلَّم الله جلّ جلاله كلمة فخلق منها روحاً، ثم تكلَّم بكلمة فخلق من تلك الكلمة نوراً، فأضاف النور إلىٰ تلك الروح وأقامها مقام العرش فزهرت المشارق والمغارب، فهي فاطمة الزهراء، ولذلك سُمِّيت الزهراء لأنَّ نورها زهرت به السماوات»[1].

وفي التوقيع الصادر عن مولانا صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه المروي في غيبة الشيخ الطوسي وفي كتاب احتجاج الطبرسي باب التوقيعات كتب عليه السلام: «... فلن يوحشنا من قعد عنَّا ونحن صنائع ربِّنا والخلق بعدُ صنائعنا...»[1]، ونقله في البحار.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٠، ص٤٤.

(١) الاحتجاج: ج٢، ص٢٧٨.

ويؤيِّده في الجملة النبوي المنقول عن رسالة بعض العلماء: «أنا من الله والكل منِّي»[١]، وما في كتاب السلسبيل في النبوي صلى الله عليه وآله: «باسمي تكوَّنت الكائنات، وباسمي دعي الأنبياء»[٢].

ولذا ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في علل الشرائع للشيخ الصدوق، قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر: لأيِّ شيء يحتاج إلىٰ النبي والإمام؟ قال: «لبقاء العالم علىٰ صلاحه»[٣].

يقول الفخر الرازي[٤]: ([فثبت: أنَّ ذلك الشخص هو الكامل وثبت: أنَّ ذلك الشخص] هو القطب لهذا العالم العنصري، وما سواه فكالتبع له، وجماعة [من] الشيعة الإمامية، يسمُّونه بالإمام المعصوم، وقد يسمُّونه بصاحب الزمان، ويقولون: بأنَّه غائب، ولقد صدقوا في الوصفين أيضاً، لأنَّه لما كان خالياً عن النقائص، التي هي حاصلة في غيره، كان معصوماً من تلك النقائص، وهو أيضاً صاحب الزمان، لأنَّا بيَّنا: أنَّ ذلك الشخص هو المقصود بالذات في ذلك الزمان، وما سواه فالكلّ أتباعه، وهو أيضاً: غائب عن الخلق لأنَّ الخلق لا يعلمون أنَّ ذلك الشخص هو أفضل أهل هذا الدور).

---

(١) وكر في مشارق أنوار اليقين: ص٢٩.
(٢) مستدرك سفينة البحار.
(٣) علل الشرائع: ج١، ص١٢٥.
(٤) المطالب العالية في العلم الإلهي: ج٨، ص١٠٦.

ليلة القدر من تجلّيات وساطة الفيض:

فالإمام عليه السلام في ليلة القدر هو المحور الأساسي لتنزيل الأوامر الإلهية وتقدير الأمور، فالملائكة والروح تنزل علىٰ إمام الزمان عليه السلام لتفصيل ما يُكتب في هذه الليلة، وهو وليّ الأمر الذي يستلم العلم الإلهي ويوجّهه للناس.

* * *

الدرس الثامن

موقع قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في منظومة عالم التكوين (٢)

القسم الثاني:

تقدَّم الكلام حول دور الإمام عجل الله فرجه في قوس النزول والمتمثِّل بوساطة الفيض، وتجلىٰ في ليلة القدر، وانتهىٰ بنا الحديث إلىٰ دوره عجل الله فرجه في قوس الصعود.

وللوقوف على هذا الدور لابدَّ أن نقف على أنواع الهداية، فذكر الأعلام للهداية أنواع:

النوع الأوَّل: الهداية العامة:

لابدَّ أن نعلم أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) ليس فاعلاً عبثياً، وإنَّما هو فاعل حكيم، والآيات القرآنية تثبت هذه الحقيقة بما لا مجال للريب فيه، وتقدَّم الكلام عن ذلك.

وبنحو الأصل الموضوعي الثابت قرآنياً والثابت عقلياً أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) لا يفعل فعلاً إلَّا لحكمة، إلَّا لغاية، ولكن هذه الغاية ليست غاية لله تعالىٰ يريد الوصول إليها من خلال إيجاد الفعل، فإنَّه لابدَّ أن نميِّز بين غاية الفعل وبين غاية الفاعل، فالواحد منَّا عندما يفعل فعلاً من الأفعال يريد من خلال فعله أن يصل إلىٰ غاية يستكمل بتلك الغاية، أنا عندما أشرب الماء أو

عندما أتناول الطعام لأنَّني أريد من خلال هذا الفعل أن أصل إلىٰ كمال، إلىٰ غاية، من خلال هذا الفعل أُحقق الغاية، هذا في الموجودات الناقصة.

أمَّا في الموجودات الكاملة أو التي فوق الكمال، بل الموجودات التي هي فوق ما لا يتناهىٰ بما لا يتناهىٰ، ففرض أن يفعل الفعل للوصول إلىٰ كمال فرض غير معقول باعتبار أنَّه لا يوجد هناك كمال فاقد له حتَّىٰ يريد من خلال الفعل أن يصل إليه.

إذن ما من فعل صدر وما من مخلوق بناء علىٰ قانون الحكمة إلَّا وله غاية إلَّا وله هدف خلق من أجله، ولكن هذه الغاية، وهذا الهدف ليس هو هدف الفاعل يريد بهذا الفعل أن يتكامل وأن يستكمل بهذا الفعل لينال تلك الغاية، وأن يكمل بتلك الغاية لا بل هو هدف الفعل وغاية الفعل يعني هو كمال الفعل لا كمال الفاعل.

هنا يأتي هذا التساؤل هو أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) عندما خلق أي مخلوق من المخلوقات وجعل له غاية وهي غاية الفعل لا غاية الفاعل هل أراه الطريق للوصول إلىٰ تلك الغاية؟ وهذا هو المعبر عنه قرآنياً بالهداية أو أنَّه لم يره الطريق تركه لنفسه للوصول إلىٰ الغاية؟ وقد يصل وقد لا يصل الله (سبحانه وتعالىٰ) عندما خلق أي مخلوق من المخلوقات وجعل له غاية بمقتضىٰ الحكمة الإلهية، وقلنا هذه الغاية غاية الفعل لا غاية الفاعل.

لذا تجد القرآن الكريم بالنسبة إلىٰ الإنسان يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، يعني أيُّها الإنسان لك غاية تنتهي إليها ولو لم تنته إلىٰ الغاية لكان وجودك عبث ولغو والله

(سبحانه وتعالىٰ) يقول: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٦)، لأنَّ اللعب لا ينسجم مع الكمال المطلق، والقرآن صريح في هذا المعنىٰ يقول تعالىٰ: ﴿الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ (طه: ٥٠)، والمفروض بقاعدة الحكمة وبقاعدة أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) لا يفعل إلَّا فعلاً حكيماً إذن لكلِّ خلق من مخلوقاته غاية تترتَّب عليه يأتي هذا السؤال وهو أنَّه هل هداه للوصول إلىٰ الغاية وإلىٰ الهدف أم لم يهده؟ قال تعالىٰ: ﴿الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾، لا يمكن الله (سبحانه وتعالىٰ) يخلق مخلوق ويجعل له غاية ولكن لا يهديه الطريق للوصول إلىٰ الغاية ﴿الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾، يعني رسم له الطريق الذي يوصله إلىٰ الهدف.

لذا ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ما مضمونه: كل ميسر لما خلق له لا يتبادر إلىٰ ذهن أحد الله (سبحانه وتعالىٰ) يخلق موجوداً ولا يسره للوصول إلىٰ الهدف وإلىٰ الغاية التي من أجلها خلق.

وهذه هي الهداية العامة التي وضعت في كيان كلّ شيء الحجر له طريقه الخاص بأن يكون معدناً من المعادن، النبات كذلك، الحيوانات كذلك، ومن هذه الموجودات الإنسان، الله (سبحانه وتعالىٰ) وضع في الإنسان هذه الهداية العامة، وهذه الهداية العامة هي التي عبَّر عنها القرآن الكريم بالنسبة إلىٰ الإنسان بالفطرة، الفطرة اصطلاح يراد به تلك الهداية العامة التي أوجدت في جميع الموجودات، في الإنسان تلك الهداية العامة نسمِّيها الفطرة، كما ورد في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

وفي موجودات أخرىٰ نعبِّر عنها بالغريزة، وفي موجودات ثالثة نعبِّر عنها بالطبيعة، طبيعة الأشياء، هذه كلّها إشارة إلىٰ تلك الهداية العامة التي عبَّر عنها القرآن الكريم: ﴿الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾، وهذا هو الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بالنسبة إلىٰ الإنسان في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ (الشمس: ٨)، هذا الذي هو عبَّر عنه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كل مولود يولد.

هذا هو النوع الأوَّل من الهداية التي وجدت في كيان كلّ موجود وهي الهداية العامة.

ولكن عندما نأتي إلىٰ خصوص الإنسان نجد أنَّ هذا الإنسان أيضاً بالإضافة إلىٰ هذه الهداية العامة وجدت فيه نوعان آخران من الهداية غير الهداية العامة التي استفيدت من قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾، بالنسبة إلىٰ جميع الموجودات وبالنسبة إلىٰ الإنسان هي التي عبَّر عنها الفطرة، وعبَّر عنها القرآن الكريم بالفطرة، وفي آية أخرىٰ عبَّر عنها صبغة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨).

النوع الثاني: الهداية القولية التشريعية:

وهي المصطلح عليها في كلمات المتكلِّمين والمفسِّرين بإراءة الطريق، وهذه هي وظيفة الأنبياء والمرسلين والصلحاء والعلماء والأولياء، وغير ذلك، فإنَّ الإنسان قد يضل الطريق فيحتاج إلىٰ عقل يرشده إلىٰ طريق الكمال.

وهاهنا مكمن الجواب علىٰ ضرورة البعثة، وهو ينطلق من تحديد السؤال التالي:

مَن يُعرِّف للإنسان طريق بلوغ الكمال؟ هل هو العقل أو لابدَّ له من الاعتماد قبلاً علىٰ دليل وهو الأنبياء ش؟

وجوابه: أنَّ المصدر المعرفي العام هو الحس والتجربة والعقل، وليس للإنسان العامي مدركٌ غيرها، ويختص الأوَّل والثاني بكشف الأمور المادية تحديداً ولا يُتوقَّع منهما تزويد الإنسان بمعرفة الطريق الصحيح في جميع أبعاد الحياة، وبالتالي للوصول إلىٰ الهدف.

أمّا الثالث: العقل، فهو يدرك مجموعة من المفاهيم الكلية – البديهيات الأولية – التي لا تحتاج إلىٰ استدلال وهي لا تنفع بذاتها في معرفة الطريق الصحيح للحياة بكلِّ أبعادها.

والدليل علىٰ عجز هذه المدارك:

أ – الطريق التجريبي واستقراء التاريخ:

عند استقراء مسيرة الفكر البشري علىٰ طوال الأعصار فنجده عاجزاً عن كشف العلاجات المتعلِّقة بالأعمال والسلوك والقيم، وبالتالي قصور جميع الدساتير والمنظومات القانونية البشرية للوفاء بمتطلّبات الإنسان بجميع أبعاده.

ب – التقييم الموضوعي للحس والعقل:

فإنَّ المحاسبة المنطقية لهما تستدعي قصور باعَهُما عن إدراك العالم الميتافيزيقي وتجاوز العالم المادي، فلا يُتوقَّع منهما بيان المسائل المصيرية ولاسيما علاقة سلوك الإنسان بالنتائج الأخروية.

إذن لا مناص من الاعتراف بالحاجة إلىٰ المصدر المعرفي الوحياني وضرورة الواسطة بينه وبيننا وهم الأنبياء الذين يمثِّلون سبيل الهداية من الخالق الذي تكفَّل خلقه بتسخيره لهم، لأنَّه من فَطَر علىٰ طلب الكمال ومن له القدرة علىٰ تهيئة أسباب بلوغه، وهو الجواد الذي لا يمنع فيضه بُخل، فهو تام الإفاضة وتام الجود، وتام العطاء (تبارك اسمه)، فينتج ذلك ضرورة البعثة.

يقول السيد العلامة رحمه الله[1]: (دون مجرَّد إراءة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكلّ مؤمن يهدي إلىٰ الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة، قال تعالىٰ: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالىٰ في مؤمن آل فرعون: ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ [غافر: ٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]).

وهذه هي الهداية وهي إراءة الطريق، هي شأن النبي والرسول وكلّ مؤمن يهدي إلىٰ الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة وهذه هي الهداية القولية التشريعية.

والفرق بينهما أنَّ الهداية العامة وهي هداية الفطرة لا يستثنىٰ منها أحد أبداً، ما من إنسان إلَّا وتوجد فيه الهداية العامة، هداية الفطرة، ولكن عندما نصل إلىٰ الهداية القولية ليس الأمر كذلك.

---

(١) الميزان: ج١، ص٢٧٢.

السيد العلامة في الميزان[1] في ذيل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣)، يقول: (ومن الفرق بين الهدايتين أنَّ الهداية الفطرية عامة بالغة لا يستثني منها إنسان لأنَّها لازم الخلقة الإنسانية وهي في الأفراد بالسوية غير أنَّها ربَّما تضعف أو يلغو أثرها لعوامل وأسباب تشغل الإنسان، وتصرفه عن التوجُّه إلىٰ ما يدعو إليه عقله، ويهديه إليه فطرته أو ملكات وأحوال رديئة سيئة تمنعه عن إجابة نداء الفطرة كالعناد واللجاج وما يشبه ذلك... وأمَّا الهداية القولية وهي التي تتضمَّنها الدعوة الدينية، فإنَّ من شأنها أن تبلغ المجتمع فتكون في معرض من عقول الجماعة فيرجع إليها من آثر الحق علىٰ الباطل، وأمَّا بلوغها لكلِّ واحد واحد منهم، فإنَّ العلل والأسباب التي يتوسَّل بها إلىٰ بيان أمثال هذه المقاصد ربَّما لا تساعد علىٰ ذلك، علىٰ ما في الظروف والأزمنة والبيئات من الاختلاف.

النوع الثالث: الهداية بالإيصال إلى المطلوب:

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]).

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله بأنَّ الأمر في الآية يتعلَّق بالوجود والتكوين، وهو الأمر المبين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، وأنَّ هداية الأئمة المرادة في الآية الكريمة هي الهداية التكوينية لا الهداية التشريعية، بمعنىٰ أنَّ من امتثل الشريعة فإنَّ حصوله علىٰ

---

(١) الميزان: ج٢٠، ص١٢٣.

الهداية التكوينية بتصرُّف تكويني من الإمام عليه السلام، كذلك حصول عمله علىٰ الهداية التكوينية بتصرُّف منه، قال في تفسير الآية[1]: (وظاهر قوله: ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ [الأنبياء: ٧٣] أنَّ الهداية بالأمر يجري مجرىٰ المفسّر لمعنىٰ الإمامة... أنَّ هذه الهداية المجعولة من شؤون الإمامة ليست هي بمعنىٰ إراءة الطريق لأنَّ الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعدما جعله نبياً - كما أوضحناه في تفسير قوله: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ [البقرة: ١٢٤] فيما تقدَّم - ولا تنفك النبوة عن الهداية بمعنىٰ إراءة الطريق فلا يبقىٰ للإمامة إلَّا الهداية بمعنىٰ الإيصال إلىٰ المطلوب وهي نوع تصرُّف تكويني في النفوس بتسييرها في سير الكمال ونقلها من موقف معنوي إلىٰ موقف آخر.

وإذ كانت تصرفاً تكوينياً وعملاً باطنياً، فالمراد بالأمر الذي تكون به الهداية ليس هو الأمر التشريعي الاعتباري، بل ما يفسِّره في قوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ (يس: ٨٢-٨٣)، فهو الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنية التي يهتدي إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحة ويتلبسون بها رحمة من ربِّهم) انتهىٰ.

وقد ورد في تفسير الآية المباركة الإمامة هي آخر مراحل سير الإنسان التكاملي، والتي تعني القيادة العامة الشاملة لكلِّ الجوانب المادية والمعنوية، والظاهرية والباطنية والجسمية والروحية للناس فكشفت الآية المباركة عن إحدىٰ وظائف الأنبياء الذين اتَّصفوا بوصف الإمامة.

---

(١) الميزان: ج١٤، ص٢٤٨.

في رواية الإمام الباقر عليه السلام: «والله يَا أَبَا خَالِدٍ لَنُورُ الإِمَامِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْوَرُ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ بِالنَّهَارِ، وهُمْ والله يُنَوِّرُونَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ»[١].

وهذه الهداية هي نوع من التغيُّر والتحوُّل الروحي والباطني في الإنسان يوجده الله ببركة وليِّه في الإنسان تبعاً لظروف خاصّة، وبواسطته تتوفَّر عنده الأرضية والقابلية علىٰ تلقِّي الكمالات الأخلاقية والمعنوية السامية.

يقول السيد العلامة[٢]: (وبالجملة فالإمام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إياهم إلىٰ المطلوب بأمر الله دون مجرَّد إراءة الطريق) انتهىٰ.

في رجال الكشي[٣]: (محمد بن مسعود، قال: قال يوسف بن السخت: كان علي بن جعفر وكيلاً لأبي الحسن (صلوات الله عليهما) وكان رجلاً من أهل همينيا قرية من قرىٰ سواد بغداد، فسعي به إلىٰ المتوكِّل فحبسه فطال حبسه واحتال من قبل عبد الرحمن بن خاقان بمال ضمنه عنه ثلاثة ألف دينار، وكلَّمه عبيد الله فعرض حاله علىٰ المتوكِّل، فقال: يا عبيد الله لو شككت فيك لقلت إنَّك رافضي، هذا وكيل فلان وأنا علىٰ قتله[٤].

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٩٤.

(٢) الميزان: ج١، ص٢٧٢.

(٣) رجال الكشي: ٥٠٥؛ وفي البحار: ج٥٠، ص١٨٣.

(٤) عن علي بن جعفر، قال: عرضت أمري علىٰ المتوكِّل، فأقبل علىٰ عبيد الله بن يحيىٰ بن خاقان، فقال: لا تتعبنَّ نفسك بعرض قصة هذا وأشباهه، فإنَّ عمَّك أخبرني أنَّه رافضي وأنَّه وكيل علي بن محمد، وحلف أن لا يخرج من الحبس إلَّا بعد موته.
فكتبت إلىٰ مولانا أنَّ نفسي قد ضاقت، وأنِّي أخاف الزيغ، فكتب إليَّ: «أمَّا إذا بلغ الأمر منك ما أرىٰ، فسأقصد الله فيك، فما عادت الجمعة حتَّىٰ أخرجت من السجن».

قال: فتأدىٰ الخبر إلىٰ علي بن جعفر فكتب إلىٰ أبي الحسن عليه السلام: يا سيدي الله الله في، فقد والله خفت أن أرتاب، فوقع في رقعته: «أمَّا إذا بلغ بك الأمر ما أرىٰ فسأقصد الله فيك»، وكان هذا في ليلة الجمعة.

يقول: فأصبح المتوكِّل محموماً، فازدادت عليه حتَّىٰ صرخ عليه يوم الاثنين فأمر بتخلية كل محبوس عرض عليه اسمه حتَّىٰ ذكر هو علي بن جعفر، وقال لعبيد الله: لِـمَ لَـمْ تعرض علي أمره؟ فقال: لا أعود إلىٰ ذكره أبداً، قال: خلِّ سبيله الساعة وسله أن يجعلني في حلٍّ، فخلِّي سبيله، وصار إلىٰ مكة بأمر أبي الحسن عليه السلام مجاوراً بها وبرأ المتوكِّل من علَّته).

فنرىٰ عندما وجد الهادي عليه السلام من هذا الشخص خطر الريب والزيغ دخل مباشرة علىٰ الخط لتثبيته علىٰ الهدىٰ باسم الله الهادي.

وهذه هي عناية وولاية الأئمة عليهم السلام التي هي في طول عنايه الله تبارك وتعالىٰ.

أحد المؤمنين يقول: وصل بي الحال أنَّه أترك الصلاة، فعلاً قرَّرت ترك الصلاة، وفي ذلك اليوم في عالم الرؤيا رأيت هاتفاً من السماء لأن لم تصلِّ لأكسرنَّ ظهرك، فقمت مرعوباً فزعاً، واستمررت علىٰ صلاتي ولم أتركها، وهذا لا يحصل لكلِّ أحد، وقد الإنسان يترك الصلاة فتنفتح له الدنيا.

وفي هذه القضية عندما وجد الإمام الهادي عليه السلام من هذا الشخص خطر الريب والزيغ دخل مباشرة علىٰ الخط لتثبيته علىٰ الهدىٰ باسم الله الهادي.

وقد كشف القرآن عن ذلك في قصة موسىٰ عليه السلام مع الخضر عليه السلام، يقول تعالىٰ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها

وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ (الكهف: ٧٩-٨٢).

فهكذا يسوق الله تعالىٰ الأسباب الظاهرية بيد الغيب والملكوت ليهدي عباده أو يثبتهم علىٰ الهدىٰ، وإن كنّا لا نرىٰ ذلك ونحسب أنَّ الذي ساقنا إلىٰ ذلك الخير هو نفوسنا.

ومن هنا يتَّضح دور الإمام الحجة عليه السلام وما هي ضرورة وجوده حياً إلىٰ يومنا، ولابدَّ أن يكون حيًّا؟

ومن هنا تندفع عدَّة من الإشكالات المتوجِّهة علىٰ غيبة الإمام عجل الله فرجه أنَّه لماذا غاب؟ وما هي الفائدة في الغيبة؟

فعندما تتوجَّه الإشكالات علىٰ غيبه الإمام عجل الله فرجه سببها الغفلة عن ذلك المقام والدور الوجودي للإمام عليه السلام، فعندما لا يراه ينكره وهو لا يعلم أنَّ الخلل فيه.

* * *

الدرس التاسع

الغيبة سُنَّة إلهية ثابتة

المحور الأوَّل: الغيبة سُنَّة إلهية ثابتة:

لا شكَّ أنَّ الاستتار البعيد الأمد، والغياب الذي امتدَّ إلىٰ عشرات القرون، يستحق التأمُّل والبحث عن واقعه، حتَّىٰ يُعزِّز الإيمان بشخصية الغائب، والتفاعل مع هذه الظاهرة بما يتناسب وإرادة المولىٰ باعتبار أنَّها – الغيبة – خاضعة للإرادة الإلهية الحكيمة مما يتعيَّن رد فعل مناسب من جهة الإنسان.

ومن هذا المنطلق تنقدح استفهامات:

– هل أنَّ الغَيبة – الأعم من غيبة الأنبياء والأولياء – معلولة للسُنَّة الإلهية؟

– وإذا كان انعدام الظهور المهدوي ليس من الغيبة – لعدم تطابقه مع حوادث الغيبة السابقة، واختلافها عنها – هل يبقىٰ مسوِّغ للعقيدة المهدوية وكل اللوازم الثابتة لها كالانتظار ودعوىٰ الظهور؟

– هل العلاقة بين سُنَّة الغيبة المهدوية والظهور المهدوي لزومية؟

معنىٰ السُنَّة الإلهية وخصائصها:

عُرِّفت السُنَّة - بالمعنىٰ الاصطلاحي - بأنَّها - النواميس - التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله المطلقة، وأنَّ ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبح حال الحاضرين مثل حال السابقين[1].

من خلال التتبُّع القرآني في كيفية تناول السُنَّة الإلهية تتَّضح مجموعة خصائص ملازمة لها، ويمكن الاستفادة من تلك الخصائص في تحديد الواقع لها والتعاطي معها بمنهجية منسجمة مع تلك الخصائص المزعومة، فتتميَّز السُنَّة الإلهية بـ:

١ - **التتابع** الموجب لوجود علَّة تستدعي تكرُّر واستمرار الحدث كلَّما تحقَّقت مقدَّماته الموجبة له، وهذا الاطِّراد دال علىٰ الاستمرار والثبات، قال تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الفتح: ٢٣).

٢ - **العموم**: إذ لا يخرج فردٌ انفعل بمقدَّماتها من تأثيرها، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦)، فهي لا تقتصر علىٰ أُمَّة دون أُمَّة أو فرد منها دون فرد آخر.

---

(١) يمكن تعريفها بتعريف آخر بأنَّها: (تلك القوانين التي تجري علىٰ وفقها المقادير، فلا تقبل التخلُّف ولا تتعرَّض للتبديل)، وهذا ما بيَّنته الآيات القرآنية الكريمة، منها قوله تعالىٰ: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٦٢)، ممَّا يعني أنَّ لله سبحانه في عالم التكوين والتشريع قوانين وأُصولاً ثابتة، وهذه القوانين الإلهية كانت حاكمة علىٰ الأقوام الماضين وتحكمنا اليوم، وستكون حاكمة في المستقبل علىٰ الأجيال الآتية، فهي تحكم حركة التاريخ وتنظِّم ناموسية التغيير، وتتحكَّم بالدورات الحضارية موضّحة عوامل السقوط وعوامل النهوض الحضاري.

يقول السيد محمد باقر الصدر[١]: (حينما وقع التيه أربعين عاماً علىٰ بني إسرائيل نتيجة ما كسب هذا الشعب بظلمه وطغيانه وتمرُّده، هذا التيه لم يختص بخصوص الظالمين من بني إسرائيل، إنَّما شمل موسىٰ عليه السلام، شمل أطهر الناس وأزكاهم وأشجعهم، في مواجهة الظلمة والطواغيت، شمل موسىٰ عليه السلام لأنَّه جزء من تلك الأُمَّة، وبهذا شمل التيه موسىٰ عليه السلام).

هذا كلّه هو منطق سُنن التاريخ، والعذاب حينما يأتي في الدنيا علىٰ مجتمع وفق هذه السُنن، لا يختص بخصوص الظالمين من أبناء ذلك المجتمع، ولهذا قال القرآن الكريم في آية أخرىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

٣ - الضرورة والحتمية: أنَّ السُنن هي قضاء من الله سبحانه والصادر عن إرادته الحكيمة التي لا دافع ولا مانع لها إلَّا هو، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧).

فالحتمية شأن من شؤونات القضاء الإلهي.

نعم، لا يُعنىٰ من ذلك سلب الاختيار من الفعل الإنساني وإلزامه بالجبر، وإنَّما هي سُنَّة وليدة التنجُّز الشرطي، بمعنىٰ كونها نتيجة حتمية كلَّما تقدَّمها شرطها، والشرط هو فعل الإنسان الاختياري، ولكلِّ فعل أثره الخاص به[٢].

---

(١) المدرسة القرآنية (مجموعة محاضرات قرآنية للسيّد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره): ص٤٨.

(٢) إنَّ البحث في سُنن التاريخ خلق وهماً، وحاصل هذا الوهم الذي خلقه هذا البحث عند كثير من المفكّرين، أنَّ هناك تعارضاً وتناقضاً بين حرية الإنسان واختياره وبين سُنن التاريخ.←

← فإمَّا أن نقول بأنَّ للتاريخ سُننه وقوانينه، وبهذا نتنازل عن إرادة الإنسان واختياره وحريته، وإمَّا أن نسلِّم بأنَّ الإنسان كائن حر مريد مختار، وبهذا يجب أن نلغي سُنن التاريخ وقوانينه، ونقول بأنَّ هذه الساحة قد أعفيت من القوانين التي لم تعف منها بقية الساحات الكونية.

هذا الوهم؛ وهم التعارض والتناقض بين فكرة السنة التاريخية أو القانون التاريخي، وبين فكرة اختيار الإنسان وحريته.

هذا الوهم كان من الضروري للقرآن الكريم أن يزيحه وهو يعالج هذه النقطة بالذات.

ومن هنا، أكَّد (سبحانه وتعالىٰ) علىٰ أنَّ المحور في تسلسل الأعداد والقضايا إنَّما هو إرادة الإنسان، وسوف أتناول - إن شاء الله تعالىٰ - الطريقة الفنية في كيفية التوجيه بين سُنن التاريخ وإرادة الإنسان، وكيف استطاع القرآن الكريم أن يجمع بين هذين الأمرين من خلال فحص للصيغ التي يمكن في إطارها صياغة السُنَّة التاريخية، سوف أتكلَّم عن ذلك بعد محاضرتين، لكن يكفي الآن أن نستمع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾ (الجن: ١٦)، ﴿... وَتِلْكَ الْقُرىٰ أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾ (الكهف: ٥٩).

انظروا كيف أنَّ السُنن التاريخية لا تجري من فوق يد الإنسان، بل تجري من تحت يده، فـ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾، ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾ (الجن: ١٦).

إذاً هناك مواقف إيجابية للإنسان تمثِّل حريته واختياره وتصميمه، وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السُنن التاريخية، تستتبع جزاءاتها المناسبة، تستتبع معلولاتها المناسبة.

إذاً فاختيار الإنسان له موضعه الرئيسي في التصوُّر القرآني لسُنن التاريخ، وسوف أعود إلىٰ هذه النقطة مرة أخرىٰ بإذن الله تعالىٰ.

إذاً نستخلص مما سبق، أنَّ السُنن التاريخية، أنَّ السُنن القرآنية في التاريخ، ذات طابع علميّ، لأنَّها تتميَّز بالاطِّراد الذي يميِّز القانوني العلمي، وذات طابع رباني، لأنَّها تمثِّل حكمة الله وحسن تدبيره علىٰ الساحة التاريخية، وذات طابع إنساني، لأنَّها لا تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، ولا تعطل فيه إرادته وحريته واختياره، وإنَّما تؤكِّد أكثر فأكثر مسؤوليته علىٰ الساحة التاريخية.

وبعد الوقوف علىٰ المقصود من السُنَّة الإلهية وطبيعتها نعود للسؤال عن كون الغيبة معلولة للسُنن التكوينية الإلهية أو ليس كذلك؟

وفي مقام الجواب عن ذلك بالإيجاب نستعين بأدلة تاريخية وقرآنية وروائية للإثبات:

أ ـ من خلال قراءة السير التاريخي للأنبياء والرُسل عليهم السلام نكتشف أنَّ أبرز المظاهر المرافقة لحياتهم الاستتار والاختفاء والاحتجاب (أي الغيبة) وإليك بعضاً من تلك السيرة:

١ - **النبي إدريس** عليه السلام: فقد وردت غيبته عن مجتمعه آنذاك لفترة لا تقل عن عشرين عاماً في كهف الجبل بسبب سوء فِعال قومه، وظلَّ لازماً للكهف ويؤمَّن طعامه وشرابه من خلال أحد الملائكة[١].

٢ - **النبي صالح** عليه السلام: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ صالحاً عليه السلام غاب عن قومه زماناً، وكان يوم غاب عنهم كهلاً مبدح البطن حسن الجسم، وافر اللحية، خميص البطن، خفيف العارضين مجتمعاً ربعة من الرجال، فلمَّا رجع إلىٰ قومه لم يعرفوه بصورته»[٢].

٣ - **النبي إبراهيم** عليه السلام: فغيبة في بطن أُمِّه إذ لم تتمكَّن القوابل كشف حملها لأنَّه سبحانه حوَّله بقدرته من بطنها إلىٰ ظهرها، ثم أخفىٰ أمر ولادته وعندما وُلِدَ وضعته أُمُّه في غار وغطَّته بصخرة ورحلت عنه، وكان الله سبحانه يأتيه برزقه حتَّىٰ كبر وقام بأمر الله سبحانه فبرز لقومه، وغيبة أخرىٰ بعد نجاته من

---

(١) الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي: ج٢، ص٤٢٣.
(٢) البحار: ج١١، ص٣٨٧.

النار حيث ظلَّ يسير فيها في البلاد، ويُنقل أنَّ له غيبة أخرىٰ حين هاجر إلىٰ الشام.

٤ – غيبة بقية الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وهي في بعضهم إجمالاً[1]:

غيبة يوسف عليه السلام عندما أخذوه إخوته ورموه في البئر وحتَّىٰ رجوعه وقد دامت (٤٠ سنة).

وغيبة موسىٰ عليه السلام في التيه، وغيبة يونس عليه السلام في بطن الحوت، وينقل بعض أهل التاريخ أنَّ لعيسىٰ عليه السلام غيبة دامت (١٢ سنة) عندما أخذته أُمُّه هاربة من اليهود.

وقد روىٰ الشيخ الصدوق في أسناده لأهل البيت عليهم السلام وقوع غيبات للأوصياء من بعد موسىٰ عليه السلام وإلىٰ زمن النبي عيسىٰ عليه السلام، كما في يوشع بن نون خليفة موسىٰ حيث قام بالأمر بعد موسىٰ حتَّىٰ قوي أمره فخرج عليه رجلان من منافقي قوم موسىٰ بمئة ألف فغلبهم يوشع، واستتر الأئمة بعده إلىٰ زمان داوود لمدة (٤٠٠ سنة)، وكانوا أحد عشر حتَّىٰ انتهىٰ الأمر إلىٰ آخرهم فغاب عنهم ثم ظهر.

ثم إنَّ داود عليه السلام استخلف سليمان عليه السلام وأوصىٰ سليمان إلىٰ آصف بن برخيا، ثم غيَّبه الله غيبة طال أمدها، ثم ظهر لهم، ثم غاب عنهم ما شاء الله.

ب – أمّا القراءة القرآنية فهي تُنتج السُنَّة للغيبة:

١ – قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (يوسف: ١١١).

---

(١) أوردها الشيخ الصدوق قدس سره في كتابه كمال الدين وتمام النعمة.

فإنَّ القرآن الكريم يشير إلىٰ أنَّ الآيات الواردة في أيِّ نبي من الأنبياء ليست بنحو المراد الجدِّي للقرآن الكريم الذي يقتصر عليه وينتهي عنده، بل يشير إليه بنحو أنَّه حجَّة الله، وبذلك يتعدَّىٰ المراد الجدِّي للآية المباركة إلىٰ غيره مادام العنوان – الحجة – يشمله.

وقد شَمِلت الآيات المباركات معنىٰ الغيبة لحجج الله في طيَّات قصصهم، فيكون ذلك ثابتاً للمهدوية لأنَّه مشروع السماء وحجة الله.

٢ – قال تعالىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: ١٩).

في الرواية[١]: «لتركبنَّ سبيل من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، ولا تخطؤون طريقتهم، ولا يخطئ شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع».

وعن جوامع الجامع في الآية عن أبي عبيدة: (لتركبنَّ سُنن من كان قبلكم من الأولين وأحوالهم)[٢].

قال الصدوق[٣]: (فهذا الشكل قد ثبت بين الأئمّة والأنبياء بالاسم والصفة والنعت والفعل، وكلّ ما كان جائزاً في الأنبياء فهو جائز يجري في الأئمّة حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة، ولو جاز أن تجحد إمامة صاحب زماننا هذا لغيبته بعد وجود من تقدَّمه من الأئمّة عليهم السلام لوجب أن تدفع نبوّة موسىٰ بن عمران عليه السلام لغيبته إذْ لم يكن كلّ الأنبياء كذلك، فلمَّا لم تسقط نبوَّة موسىٰ لغيبته وصحَّت نبوَّته مع الغيبة كما صحَّت نبوّة الأنبياء الذين لم تقع بهم الغيبة، فكذلك صحَّت إمامة صاحب زماننا هذا مع غيبته كما صحَّت إمامة من تقدَّمه من الأئمّة الذين لم تقع بهم الغيبة).

---

(١) تفسير الفيض الكاشاني: ج٢، ص١٤٢٥.

(٢) تفسير الميزان: ج٢٠، ص١٣٨.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة: ص٢٦.

ج - في النصوص الروائية:

روىٰ الصدوق في إكمال الدين بسنده عن الصادق عليه السلام أنَّ سُنن الأنبياء وما وقع عليهم من الغيبات جارية في القائم منَّا أهل البيت حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة[١].

عن سيد الساجدين عليه السلام قال: «في القائم منَّا سُنن من سُنن الأنبياء، سُنَّة من آدم وسُنَّة من نوح طول العمر، وسُنة من إبراهيم خفاء المولد واعتزال الناس، وسُنَّة من موسىٰ الخوف والغيبة، وسُنَّة من عيسىٰ اختلاف الناس فيه، وسُنَّة من أيوب الفرج بعد البلوىٰ، وسُنَّة من محمد صلى الله عليه وآله الخروج بالسيف»[٢].

وفي رواية عن الصادق عليه السلام: «سُنَّة من موسىٰ خفاء مولده وغيبته عن قومه ثماني وعشرين سنة»[٣].

وفي رواية عن الباقر عليه السلام: «إنَّ فيه أربع سُنن من أربع أنبياء... فأمَّا من موسىٰ خائف يترقَّب، وأمَّا من يوسف السجن، وأمَّا من عيسىٰ يقال: مات ولم يمت، وأمَّا من محمد صلى الله عليه وآله السيف»[٤].

وفي رواية عن الباقر عليه السلام: «إنَّ في القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله شبهاً من خمسة من الرُسل: يونس ويوسف وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلى الله عليه وآله، أمَّا من يونس فرجوعه من غيبته وهو شاب بعد كبر السن، وأمَّا من يوسف فالغيبة من خاصته

---

(١) الإمام المهدي عليه السلام واليوم الموعود - الشيخ خليل رزق: ص٢٨٨-٢٩٦.
(٢) كمال الدين: ج١، ص٣٢١-٣٢٢.
(٣) كمال الدين: ج١، ص١٥٢.
(٤) كمال الدين: ص٣٢٦.

وعامته واختفاؤه من إخوته، وإشكال أمره علىٰ أبيه يعقوب مع قرب المسافة بينهما وبين أهله وشيعته»[١].

وفي رواية: «وأمَّا من يوسف فالستر، جعل الله بينه وبين الخلق حجاباً يرونه ولا يعرفونه، وأمَّا من موسىٰ فدوام خوفه وطول غيبته وخفاء ولادته وتغيب شيعته من بعده بما لقوا من الأذىٰ والهوان إلىٰ أن أذن الله ﷻ في ظهوره ونصره وأيَّده علىٰ عدوه، وأمَّا من عيسىٰ فاختلاف من اختلف فيه حتَّىٰ قالت طائفة منهم ما ولد، وطائفة: مات، وطائفة: قتل وصلب، وأمَّا من جدِّه المصطفىٰ فخروجه بالسيف»[٢].

المحور الثاني: هل غيبة الإمام عليه السلام غيبة شخص أم عنوان؟

يذهب العلماء إلىٰ أنَّ غيبة الإمام هي غيبة العنوان لا غيبة الشخص، فإنَّ غيبة الشخص تعني أنَّ نفس شخص الإمام غير موجود، مثله كمثل عيسىٰ بن مريم عليه السلام، فعيسىٰ بن مريم شخصه غائب؛ لأنَّ شخصه قد رُفع إلىٰ حظيرة القدس، فهي غيبة إعجازية وغير طبيعية، أمَّا غيبة الإمام المنتظر عجل الله فرجه فهي ليست كذلك، إنَّ غيبة الإمام المنتظر غيبة العنوان وليست غيبة الشخص، أي أنَّ الإمام المنتظر عجل الله فرجه موجود مع الناس، إلَّا أنَّ شخصه غير معروف، فالإمام المنتظر عجل الله فرجه يحضر قضايا الناس العامة والخاصة، ولم يغب شخصه، وإنَّما الذي غاب هو عنوانه.

---

(١) الإمام المهدي عليه السلام واليوم الموعود - الشيخ خليل رزق: ص٢٨٨-٢٩٦.
(٢) كمال الدين: ج١، ص٣٢٧.

ويؤكِّد هذا، الرواية المتقدِّمة عن الإمام الباقر عليه السلام: «... وأمَّا من يوسف فالغيبة من خاصَّته وعامَّته واختفاؤه من إخوته وإشكال أمره علىٰ أبيه يعقوب مع قرب المسافة بينهما وبين أهله وشيعته».

والرواية المتقدِّمة: «وأمَّا من يوسف فالستر جعل الله بينه وبين الخلق حجاباً يرونه ولا يعرفونه».

المحور الثالث: ما هي فلسفة غيبة الإمام عجل الله فرجه؟

ونستعرض ذلك من خلال روايات المعصومين عليهم السلام:

١ - ضرورة أن يجري علىٰ الإمام عجل الله فرجه ما جرىٰ علىٰ الأنبياء السابقين:

يقول سدير الصيرفي: قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ للقائم منَّا غَيبة يطول أمدها»، فقلت: ولِـمَ ذلك يا بن رسول الله؟ قال: «إنَّ الله عزوجل أبىٰ إلَّا أن يُجري منه سُنن الأنبياء في غيباتهم، وأنَّه لابدَّ له - يا سدير - من استيفاء مدد غيباتهم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، أي سُنناً علىٰ سُنن من كان قبلكم»[1].

٢ - الإيكال إلىٰ علم الله لأنَّه سرٌّ لا ينكشف الآن:

عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، قال: سمعت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام يقول: «إنَّ لصاحب هذا الأمر غيبة لابدَّ منها يرتاب فيها كلّ مُبطل»، فقلت له: ولِـمَ جعلت فداك؟ قال عليه السلام: «لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم»، قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ فقال عليه السلام: «وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيبات من تقدَّمه من حجج الله (تعالىٰ ذكره)، إنَّ وجه الحكمة في

(١) كمال الدين: ٤٤.

ذلك لا ينكشف إلَّا بعد ظهوره كما لم ينكشف وجه الحكمة لِما أتاه الخضر عليه السلام مِن خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، لموسىٰ عليه السلام إلَّا وقت افتراقهما.

يا ابن الفضل، إنَّ هذا الأمر أمرٌ من أمر الله، وسرٌ من سرِّ الله، وغيبٌ من غيب الله، ومتىٰ عَلِمْنا أنَّه عزَّ وجلَّ حكيم، صدَّقنا بأنَّ أفعاله كلّها حكمة، وإن كان وجهها غير منكشف لنا»[1].

٣ - رعاية الجانب الأمني:

فقد روىٰ زرارة، قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «إنَّ للقائم غيبة قبل ظهوره»، قال: قلت: ولِـمَ؟ قال: «يخاف - وأومأ بيده إلىٰ بطنه -»، قال زرارة: يعني القتل[2].

٤ - عدم حجب الفيض وتهيئة الظروف لكلِّ نطف الخير:

عن إبراهيم الكرخي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام - أو قال له رجل -: أصلحك الله، ألم يكن علي عليه السلام قوياً في دين الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «بلىٰ»، قال: فكيف ظهر عليه القوم؟ وكيف لم يدفعهم؟ وما منعه من ذلك؟ قال: «آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ منعته»، قال: قلت: وأيّ آية؟ قال: «قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ [الفتح: ٢٥] إنَّه كان لله عزَّ وجلَّ ودائع مؤمنين في أصلاب قوم كافرين ومنافقين، فلم يكن علي عليه السلام ليقتل الآباء حتَّىٰ تخرج الودائع، فلمَّا خرجت الودائع ظهر علىٰ من ظهر فقاتله، وكذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبداً حتَّىٰ تظهر ودائع الله عزَّ وجلَّ، فإذا ظهرت ظهر علىٰ من ظهر فقتله»[3].

---

(١) غيبة الطوسي: ١٦٤.

(٢) شبكة المعارف الإسلامية الثقافية (الغيبة الكبرىٰ للإمام المهدي عليه السلام وأسبابها).

(٣) تاريخ الغيبة الصغرىٰ: ٦٠٩-٦٢٩.

٥ - كشف زيف جميع الدعاوىٰ الباطلة وعجز المدارس الأخرىٰ:

عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ دولتنا آخر الدول، ولم يبق أهل بيت لهم دولة إلَّا ملكوا قبلنا لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا بمثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]»[١].

٦ - حفظه من تقديم بيعة لظالم بعد تماديهم في الطغيان والفساد، وحفظ روح الرفض للظلم بعد مرور البشرية بكلِّ أنواع المظالم:

روي عن الإمام الرضا عليه السلام... فقلت: ولِـمَ؟ قال: «لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا قام بالسيف»[٢].

٧ - صلاح أمره وأمر المؤمنين:

في رسالة للإمام المهدي عجل الله فرجه إلىٰ الشيخ المفيد يقول: «نحن وإن كنَّا ثاوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين، حسب الذي أرانا الله تعالىٰ لنا من الصلاح، ولشيعتنا المؤمنين في ذلك، ما دامت دولة الدنيا للفاسقين»[٣].

٨ - اختبار الشيعة وامتحانهم:

لعلَّ من أهمّ الحِكم في غَيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه هي اختبار الشيعة وامتحانهم في غَيبة إمامهم، وما أصعب هذا الاختبار حتَّىٰ يتميَّز فيه المخلص من غيره، والجيّد من الرديء.

---

(١) غيبة الطوسي: ١٧٢-٢٥٧.
(٢) غيبة الطوسي: ١٩٨-١٩٩.
(٣) الكافي: ج١، ص٥٢٥.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «والله لا يكون الذي تمدّون إليه أعناقكم حتَّىٰ تميَّزوا وتمحَّصوا، ثمّ يذهب من كلِّ عشرة شيء، ولا يبقىٰ منكم إلَّا الأندر، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]»[1].

وروي عن جابر الجعفي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: متىٰ يكون فرجكم؟ فقال: «هيهات، لا يكون فرجنا حتَّىٰ تغربلوا، ثمّ تغربلوا، ثم تغربلوا، يقولها ثلاثاً حتَّىٰ يذهب الله تعالىٰ الكدر ويبقىٰ الصفو»[2].

وورد أيضاً في عدَّة روايات تعابير مختلفة عن هذا التمحيص، والاختبار بقولهم: «إلَّا بعد إياس»، أو «حتَّىٰ يشقىٰ من شقي»، أو «إنَّما هي محنة من الله»، أو «حتَّىٰ يذهب ثلثا النّاس»، أو «كمخيض الكحل في العين»، أو «لتكسرنَّ كسر الزجاج»، أو «لتكسرنَّ كسر الفخار».

رفع التعارض بين الروايات المباركة:

وكلٌ منها يذهب إلىٰ سبب يختلف عن الآخر، عندئذٍ لا يصح القول بأنَّ كلّ هذه علل، فإنَّ قانون العلَّة هو أنَّها لا تختلف ولا تتخلَّف، وأنَّ معلولها تابع لها لا ينفك عنها، وهي في كلِّ مورد من الموارد الآنفة تلتزم بعلَّة غير ما انتسبت إليه سابقاً، وذلك عين التخلُّف والاختلاف، ثم كونها علَّة يستدعي ضرورة لحوقها بالمعصومين أيضاً.

فكيف ينسجم ذلك مع ما ذكرته الروايات المباركة؟ وذلك بالتوجيه التالي:

---

(١) تاريخ الغيبة الصغرىٰ: ٦٠٩-٦٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٢، ص١١٣.

١ – إنَّ ما ذكرته الروايات المباركات إنَّما هو من قبيل الحكمة وليس العلَّة، إذ تقبل الأولىٰ الاختلاف والتخلُّف دون الثاني.

٢ – إنَّ المنهج الخطابي للمعصوم إنَّما هو علىٰ أساس: «كلِّموا الناس علىٰ قدر عقولهم»، فلذلك قد يكون مستوىٰ خطابه علىٰ قدر سطحية المتلقي أو جواباً نقضياً أو حسياً أو إيكالاً إلىٰ حكمته سبحانه ليمسك السائل عن الولوغ فيما ليس له.

المحور الرابع: لم تكن الغيبة خيارٌ مهدوي، بل هو خيار مجتمعي:

ورد في رسالة الإمام المهدي عليه السلام إلىٰ الشيخ المفيد رحمه الله: «إنَّا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء...»[1]، ومن الواضح أنَّ وجوده المبارك هو وجود حفظي لشيعته، ولم يقع الإهمال والتضييع كما هي الدعوىٰ، وأيضاً عقد عليه السلام للشيعة منظومة متكاملة من خلال مسارات استراتيجية تتجاوز الزمان، وتنسجم مع كافة الظروف والمتغيِّرات بلا استثناء، وهي تتناول ثلاث مسارات:

الأوَّل: يرتبط بشخصه، وذلك بمنع الاتِّصال به عليه السلام لقطع الطريق علىٰ كلِّ دعوىٰ للسفارة والتقوُّل عليه، وما يصاحب ذلك من أكاذيب وخديعة وفتنة.

والثاني: ما يرتبط بقيادة الأُمَّة الشرعية وتهيئة الظرف الموضوعي لها لمراعاة استمرار الاتِّصال بالسماء، ببلوغ المعارف الربانية، والعمل بالأحكام الإلهية ورعاية المتغيِّرات الزمانية واتِّساع دائرة الحكم.

---

(١) الاحتجاج: ج٢، ص٣٢٣.

والوضوح، ودفع الشبه والشكوك والضلال، وذلك من خلال المتخصِّصين بعلم الشريعة الذين ضمَّت صدورهم قلوباً تقية نقية تخشىٰ الله سبحانه وتخضع له.

والثالث: يرتبط بالفرد نفسه وضرورة ممارسة تكليفه بتحمُّل جزء المسؤولية بالبحث عن الحقائق ووعي الواقع وما يفرضه عليه.

نعم، تعتبر الغيبة المهدوية فقدان لا يعوّض، ولكنَّه معلولاً لجهل الناس وأعراضهم وبطش الجبابرة منهم، فلم يبقَ له ﷺ إلَّا خيار الانزواء والتخفي خشية، وهذا ما عبَّرت عنه رواية الإمام الحسين عليه السلام في صدر البحث: «في القائم منَّا سُنن من الأنبياء... وأمَّا من موسىٰ فالخوف والغيبة...»[1]، ويمكن حمل الخوف علىٰ معنيين ولكلٍّ منهما مختار من الأعلام:

١ - الخوف علىٰ النفس من القتل، كون المهدوية مشروعاً منافساً لكلِّ استعلاء وسلطان وليس منشأ الخوف شخصياً وإنَّما الحرص علىٰ المشروع الإلهي بعد أن انحصر بالوجود المهدوي.

٢ - الخوف من جهل الناس، لا الخوف من القتل، وخصوصاً قد تمَّ ربط الخوف بالغيبة بعنوان تمثيله للسُنَّة الموسوية، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في سياق تفسيره لخوف موسىٰ: «لَمْ يُوجِسْ مُوسَىٰ عليه السلام خِيفَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلَالِ»[2].

---

(١) كمال الدين: ج١، ص٣٢١.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٤.

فإنَّ المهدوية مشروعاً عالمياً كحبل ممدود بين السماء والأرض، ولم تشأ المشيئة الإلهية إنشاؤه علىٰ أساس الجبر، إذ يبقىٰ عنصر الاختيار فاعلاً في المجتمع البشري، ولن تتحقَّق الداعوية إلىٰ التمسُّك بطرف السماء إلَّا بالوعي وإدراك المصالح في الانتماء والاستجابة ومفاسد المناوئة والتخلُّف.

فالغيبة محكومة بالسُنن الإلهية، والمنظومة المهدوية مقتضي يلزمه التحاق بقية أجزاء العلَّة به، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) شرط لا مناص عنه.

المحور الخامس: بعض الإشكالات علىٰ الغيبة:

١ – طول الغيبة التي تجاوزت الألف عام، ويلازم ذلك طول عمر الإمام المهدي عليه السلام وهو مخالف للسُنن الطبيعية.

٢ – وقوع الغيبة في ظرف الإمامة، مما يستدعي لغوية الوظيفة.

٣ – اقتران الغيبة مع عنوان القائد وفيه مقتضىٰ الرحمة والرعاية لرعيته، والحال هو بقاءهم مستضعفين مقهورين يستغيثون قائدهم دون إجابة بسبب الغيبة.

إذن الغيبة إنْ تمَّت فهي تخالف الطبيعة أو العناوين الإلهية الموكّلة للإمام عليه السلام، ولم تكن غيبات الحجج عليهم السلام السابقين بهذا النحو.

وفي صدد الإجابة:

١ – لا تشكِّل قضية العمر الطويل عائقاً ومانعاً عقلياً أو طبيعياً، وهناك من تمتَّع بذلك وهو شاهد علىٰ الإمكان والوقوع معاً، كما في عمر نبي الله نوح عليه السلام حيث ذكر القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤)، وكذلك

النبي عيسىٰ عليه السلام حيث ورد: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً ۞ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٥٧-١٥٨)، وذكروا أصحاب التفسير نجاة النبي عيسىٰ عليه السلام من القتل ورفعه إلىٰ السماء وهو حي يرزق إلىٰ يومنا الحاضر.

وأمَّا بخصوص حياة الخضر عليه السلام، فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «إِنَّ الخضر عليه السلام شَرِبَ من ماء الحياة، فهو حي لا يموت حتَّىٰ يُنفخ في الصور... وأنَّه ليحضر الموسم كلّ سنة فيقضي جميع المناسك ويقف فيؤمن علىٰ دعاء المؤمنين وسيؤنس به وحشة قائمنا في غيبته ويصل به وحدته»[1].

وفي الرواية الشريفة دلالة واضحة في استمرار محياه علىٰ الأرض ووجوده في عالمنا، وهناك غير الشيعة من الفِرق الإسلامية من يذهب إلىٰ ذلك، ففي شرح مسلم للنووي[2]: (باب فضائل الخضر عليه السلام قال جمهور العلماء علىٰ أنَّه حي موجود بين أظهرنا، وذلك متَّفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة...) إلخ.

ثم إنَّنا لو أغمضنا الطرف عن كلِّ ذلك، فتكفينا الإناطة بالقدرة الإلهية ومشيئته الحكيمة التي لا يغلبها غالب في إبقاء خليفته لحفظ مشروعه التكويني والتشريعي.

---

(١) كمال الدين: ج٢، ص٣٩٠.
(٢) ج١٥، ص٥١٨.

٢ - أمَّا جدوائية الوجود المهدوي وهو الإمام المفترض الطاعة الذي أوكلت إليه الوظائف والغيبة تمنعه، فنقول فيه:

أ - لا تمنع الغيبة من القيام بالوظائف إذ ليست العلاقة بين الغيبة والوظيفة مانعة جمع، والشاهد علىٰ ذلك غيبة الخضر عليه السلام ورغم ذلك قيامه بالعديد من الوظائف، إذ لولا ذلك لما استدعت الإرادة الحكمية إبقاءه طوال آلاف السنين.

وكذلك غيبة الملائكة الحضورية عن عالمنا، ورغم ذلك فإنَّهم جند الله يعملون بأمره ولا يفترون عن تدبير عالم الإمكان بمختلف الأنحاء والأحوال.

وعن النبي صلى الله عليه وآله بعد أن سأله جابر الأنصاري: يا رسول الله، هل لشيعته انتفاع به في غيبته؟! فقال صلى الله عليه وآله: «إي والذي بعثني بالحقِّ نبيًّا، إنَّهم ليستضيؤون بنوره وينتفعون بولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها السحاب»[1].

ب - الوجود المهدوي هو استمرار للخلافة الإلهية علىٰ الأرض، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً...﴾ (البقرة: ٣٠)، ومن هنا أكَّدت الروايات الشريفة علىٰ عدم خلو الأرض من حجة ولولاه لساخت بأهلها والخلافة المعنية هنا هي الفيض الإلهي المستمر، فيتعيَّن الوجود المهدوي لتحقيق الإرادة الإلهية النافذة.

ج - حفظ الدين وحفظ القرآن الكريم لا يتم إلَّا بوجود الخلف المعصوم للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله، فالدين الواقعي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله محمي محفوظ بين يديه ليبقىٰ أمانة مودعة عنده يمنع عنها التلاعب والتغيير، ولولاه لا يمكن

(١) ميزان الحكمة: ج١، ص١٨٤.

إحراز بقاء الدين الواقعي، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

د - الوجود المهدوي أمان لأهل الأرض من نزول العذاب، فقد ورد في حديث جابر الأنصاري عن النبي ﷺ أنَّه قال: «النجوم أمان لأهل السماء... فإذا ذهبت أتاها ما يوعدون، وأنا أمان لأصحابي ما كنتُ، فإذا ذهبت أتاهم ما يوعدون، وأهل بيتي أمان لأُمَّتي، فإذا ذهب أهل بيتي أتاهم ما يوعدون»[1].

* * *

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين للنيسابوري: ج٢، ص٤٤٨.

الدرس العاشر

عدالة الحكومة المهدوية واقع أو خيال؟

المجتمع العادل!

تعتبر العدالة قيمة إنسانية ومطلب بشري عام لمتعلّق طموحها، وهو ثابت في وجدانها إذ لا تفتأ عن إرادة بلوغه، ولذلك صار شعار للحكومات كلَّما تصدَّت للحكم والسلطة، للاحتجاج به علىٰ استحقاق تولي إدارة المجتمع بدعوىٰ قدرتها علىٰ تحقيقه، كونه المطلب الأساسي الدخيل في كلِّ حاجة له.

ومن هنا كانت فكرة الحكومة المهدوية كضرورة اجتماعية تُحقِّق ما عجزت عنه من كان قبلها، فالبحث هو عن واقع هذه الحكومة وقدرتها علىٰ تحقيق دعوىٰ العدالة، خصوصاً مع ما نشهده من عجز المتصدِّين، حتَّىٰ بات كحلم صار التوقع علىٰ استحالة تحقُّقه، فهل تتمكَّن الدولة المهدوية منه؟!

وفي صدد بيان ذلك نجد تأثُّر العدالة الاجتماعية بعناصر عديدة – خارجية وداخلية يتعيَّن التحقيق فيها للبث بحكم واقعية العدالة المترقِّبة للحكومة الإسلامية في عهد إمامها الموعود، وعندئذٍ ينقدح السؤال في عدَّة جهات كأركان أساسية في هذا المضمار:

أوَّلاً: كيف نثبت العدالة لحكومة لم تترشَّح من إرادة المجتمع، بل عيَّنت نفسها بنفسها، وهو ما صرَّحت به النظرية الدينية من أنَّ حكومة الإمام

المعصوم عليه السلام غير خاضعة للبيعة والانتخاب، بل هي تنصيب إلهي محتوم على الأُمَّة؟

ثانياً: كيف يمكن تنزيه المنظومة الحاكمة للإمام المهدي عليه السلام بأجهزتها الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) لدعوىٰ الاحتراز من الفساد القانوني والتجاوز علىٰ الحقوق؟

ثالثاً: لو تنزَّلنا جدلاً بقبول الحكومة العادلة، فهل يمكن للمجتمع التفاعل الحقيقي مع المنهج العادل، والاستجابة التامَّة له في تفاصيل تعايش بعضهم مع البعض الآخر وفي جزئيات حياتهم؟

إذن ينبغي التحقيق في هذه الجهات الثلاث لتمام دعوىٰ عدالة الحكومة المهدوية، وإليك ذلك:

الجهة الأولىٰ: كيف يلحظ الفكر الديني عدالة الحكومة المنصبة (غير الديمقراطية)؟

إنَّ ثبوت الولاية السياسية للمعصوم عليه السلام علىٰ أساس التنصيب السماوي له، يسهم بإثارة تحفُّظات علىٰ مقولة العدالة في حكم يسلب حق الأُمَّة في اختيار حاكمها، وإجحاف إرادتها، فالتأسيس في هكذا حكومة هو دعوة إلىٰ زعامة مستبدَّة ومخالف لثمار الديمقراطية الحديثة.

ولا شكَّ باستيلاء الوهم واشتباه الواقع في هذه الملاحظة، وإليك بيان ذلك من عدَّة نقاط:

النقطة الأولىٰ: تعتمد الانتخابات الديمقراطية علىٰ ترشيح النخب المتعلِّمة والمقتدرة علىٰ التصدِّي لإدارة البلد وتأمين كافة احتياجاته من الأمن واستثمار

خيراته وتوفير الحاجات الضرورية لأبنائه وإلخ من ضرورات الحكم، وتعريف الناخبين تلك المميِّزات التي يدَّعي المرشح حيازته لها من خلال تاريخه وسمعته وبرنامجه الانتخابي، فيأتي دور الناخب بالبحث عن واقع الدعوىٰ ثم الأدلاء بصوته بعملية الاقتراع.

فيكون جوهر العملية الديمقراطية هو ترشيح الأكفأ علىٰ تأمين مصالح البلد والمجتمع ليبلغ التصدِّي لتلك الوظيفة.

وفي واقع الحال فإنَّ ظاهرة تنصيب الإمام المعصوم عليه السلام تمثِّل ذلك الجوهر بصورة تختزل تلك المقدِّمات الكاشفة، فالتنصيب السماوي عبارة عن كاشفية لواقع لن تستطيع المكنة البشرية مهما بلغت من تنبُّه وتفكُّر في إصابته، وفرق بين التنصيب المستبطن لمعنىٰ التعسُّف والمصادرة، وبين الكاشفية، وأنَّ الأوَّل يقتضي أن تكون آثار السلطنة والحاكمية وحقّ الطاعة والانقياد معلولة له، وبخلافه الثاني فإنَّ علَّتها مؤهّلات الحاكم ومؤهّلات الحاكم ومميِّزاته التي لا يفتأ عاقل عن قصدها لتأمين الحكم العادل.

إذن الولاية السياسية للإمام المعصوم عليه السلام لم تثبت من حيث التنصيب، بل لاتِّصافه عليه السلام بطاقات الحكم والقيادة، وحيث إنَّ الأُمَّة محجوبة عن تشخيص ذلك فجاء دور التنصيب الكاشف.

النقطة الثانية: لا غنىٰ للمنظومة السياسية من وجود السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهي سلطات لا يمكن نجاح أدائها مطلقاً إلَّا بمواصفات أهمّها العلم بالواقع والنزاهة بأعلىٰ مستوياتها، وقد ثبت في محلِّه إحراز الإمام المعصوم عليه السلام لصفتي العلم بالواقع وكذلك عصمته المطلقة، مما يؤكِّد اختصاصه بقدرة لا نظير لها في إنجاح المشروع السياسي لقيادة الأُمَّة.

فيتعيَّن ترشيحه، وبما أنَّ التنصيب كاشفاً عنه، فلا حزازة في سبيل يهتدي من خلاله الفرد إلىٰ استقراره وضمان حقوقه في دولة العدل.

النقطة الثالثة: لا تنافي بين الانتخاب والتنصيب، حيث إنَّ التنصيب كسائر الأحكام الشرعية التي يعلن فيها عن إرادة المولىٰ تبارك وتعالىٰ بأمر، ويبقىٰ القبول والتنجيز شأن المكلَّف، إذ إنَّ الحكومة السماوية لا تفرض علىٰ الأُمَّة بالقهر والغلبة، وإنَّما هي ثابتة في ذمَّة المجتمع لا يتم تنجيزها الفعلي إلَّا بقرار الأُمَّة وقبولها وإعلان البيعة، وهذا ما حدث مع جميع الحكومات المعصومة كحكومة النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام وابنه الحسن المجتبىٰ عليه السلام.

وكذلك سيكون الإمام المنتظر عجل الله فرجه، وهذه إحدىٰ أسباب الغيبة، وذلك لعدم استعداد الأُمَّة البشرية لاستقبال حكومة المعصوم عليه السلام، فمتىٰ ما تمَّ ذلك وأرادت البشرية تقديم الولاء والخضوع لحكومة السماء ساهم ذلك في تعجيل الظهور المبارك.

الجهة الثانية: السلطات الثلاث في منظومة الحكم المهدوي:

وهي السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وإليك تفصيل ذلك:

أ ـ السلطة التشريعية:

لا شكَّ في دور القانون والدستور العادل الذي يحكم بين الناس في المساهمة بشكل فاعل وواضح في بسط العدل بينهم، ولكن لا ينبغي إطلاق دعوىٰ عدالة القانون الإسلامي والتسليم بذلك دون الإصغاء إلىٰ ما يقال في المادة الدستورية له، وبالتالي البناء علىٰ عدالة الدولة المهدوية!

فينبغي استعراض النقود الواردة علىٰ الدستور الديني للتأمُّل فيما يمكن أن يقال فيها بنحو من التحليل والبرهان، وبعد الوصول إلىٰ معالجتها، والتأسيس لمنظومة فكرية ثابتة علمياً في عدالة التشريع، أمكن بلورة الدستور لإبرازه كأحد أعمدة بناء الدولة العادلة القادرة علىٰ رعاية المجتمع العادل.

ويمكن استعراض الإشكالات الواردة علىٰ التشريع من خلال النموذج الكاشف عن ملابساتها، بالنحو التالي:

١ - لا يمكن وصف التشريع الإسلامي بالعادل، لتضمُّنه أحكاماً مجحفة وقاسية وهمجية تبعث علىٰ الاشمئزاز، من قبيل الإعدام والجلد وقطع الأيدي، بل هيمنة النزعة الذكورية علىٰ أحكام الأحوال الشخصية كما في الإرث والطلاق وتعدُّد الزوجات وغير ذلك.

٢ - أكَّدت النظريات الحديثة علىٰ ضرورة الاهتمام بنفسية المجرم الذي تعرَّض لضغوطات مختلفة دفعت به إلىٰ الجريمة، مما يستدعي تفهم مشاكله وتقنين ما ينسجم مع علاجه وإصلاحه، وبخلافه الدين حيث أهمل ذلك، ويتعامل بإجحاف وظلم لحقوق المتجاوزين - وهي طبقة ضعيفة ومريضة -.

٣ - مصادرة القانون الديني لحريات الأفراد واعتبار بعض الأفعال جريمة تستحق العقوبة الصارمة - كما في الزنا - الحاصل برضا طرفين وقد يكونا محبّان لبعضهما ويتَّجهان لإنشاء علاقة إنسانية، فالمفروض احترام حريتهما الشخصية، ولكن الدين يهدر كرامتهما بتجريمهما وإصدار عقوبة الحدّ، الحاكمة بالقتل أو الجلد أو الرجم (بحسب المورد)!

٤- يتأرجح التشريع الديني بين المتناقضين، فهو من جهة يُقر بـ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ليمضي حرية الفكر والمعتقد، ومن جهة أخرىٰ يحاكم من يرتد عن دين الإسلام ويفرض عليه عقوبة الردة!

والنتيجة: أنَّ الدستور الديني (الإسلامي) ظالم ولا يصلح لحكم المجتمع المعاصر، فلا يمكن وصف الدولة المهدوية بالعدالة بعد اعتمادها علىٰ قانون وردت علىٰ مفرداته الكثير من الإشكالات السالفة، إلَّا إذا فرضنا إتيان الإمام ابن الحسن عليه السلام بدين جديد يعف فيه عن تلك الخروقات الإنسانية.

وقد يؤيِّد ذلك الفرض ما ورد في بعض الأخبار، كما في قول الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ قائمنا إذا قام دعا الناس إلىٰ أمرٍ جديد كما دعا إليه رسول الله، وأنَّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء»[١].

ملاحظة ونظر في عدالة التشريع:

بدايةً ينبغي التعريف بمفردة العدل كي ينكشف المعنىٰ الذي نتعامل معه ونطلبه دون إبهام، (العدل: هو إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه، وظاهره هو اختصاصه بما إذا كان في البين حق، وإلَّا فلا مورد له، فإعطاء الفضل والنعم، مع تفضيل بعض علىٰ بعض، لا ينافي العدالة ولا يكون ظلماً... نعم لابدَّ أن يكون التفضيل والتبعيض لحكمة ومصلحة)[٢].

قد يختلف معنىٰ العدل باتِّجاه الفرد عن العدل باتِّجاه كافة المجتمع في الجملة، وكذلك العدل كظاهرة اجتماعية عامة، ويمكن اعتبار مصطلح (الحكومة العادلة) و(العدل الاجتماعي) من ظواهر التمدُّن والتطوُّر البشري.

---

(١) الكافي: ج٤، ص٤٢٧.

(٢) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية - السيد محسن الخزازي: ج١، ص٩٩.

(الحكومة العادلة: هي التي يكون لها من النظم والقوانين والأعمال ما يمكن كلّ فرد من أفراد الأُمَّة أن يُرقي نفسه علىٰ قدر استعداده في دائرة عمله))[1].

وبذلك يكون دور الحكومة العادلة هو إتاحة فرص التكامل لجميع أطياف المجتمع، وتوفير الخدمات التي تعتبر من ضمن الحاجات الضرورية والطبيعية للفرد الإنساني كالغذاء والصحة والتعليم وغيرها، والاستفادة من ثروات البلد بنحو يستوفي الحاجات الضرورية وإمكانية ومواهب كلّ فرد بالمقدار الذي يستحقه.

العدل الاجتماعي:

وهو حركة الأفراد (كمجتمع) العادلة، أي أن يعمل الناس بموجب العدل ويتلبَّسوا به ويسعوا إلىٰ تطبيقه في دوائر حياتهم المختلفة (الأُسرة - العمل - الشارع - المؤسَّسات كافة...)، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾ (الحديد: ٢٥)، فهي تشير من جهة إلىٰ دور الأنبياء عليهم السلام في بسط الحكومة العادلة، ومن جهة أخرىٰ تشير إلىٰ دور الناس ووعيهم للعدل وتنفيذهم لحدوده وجعله نهجاً في حياتهم.

إذن نخلص من ذلك أنَّ مفهوم مفردة العدل هو إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه، ولكن الاختلاف في متعلّقات العدل فقد نلحظه فردياً وقد يكون حكومتياً وقد يكون اجتماعياً، إلَّا أنَّه ينبغي التمييز هاهنا بين مفردتين: العدل والمساواة، إذ

(١) فيض الخاطر - أحمد أمين: ج٦.

ليس كليهما واحداً، فالنسبة بينهما العموم والخصوص من وجه، وإذا كان العدل معتمداً علىٰ إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه، فإن معنىٰ المساواة هو التوزيع لشيء ما بالتساوي، وبذلك لا يطَّرد العدل معه لأنَّه سيكون في كثير من الموارد ظلماً وجوراً، كما لو ساوىٰ الخالق سبحانه بين المحسن والمسيء بالعطاء والجزاء.

المعايير التشخيصية:

بعد أن كان الحق هو المعيار في مقولة العدل، استدعىٰ ذلك تشخيصه لتعيين الواقع وتمييزه من بين الظلم والعدل، وقد أُطلقت نظريات في مبدئه الماهوي، لا بأس باستعراض أهمّها[1]، وبيان المختار منها وكذلك أُسسه الفكرية المقومة له، لنلاحق كلّ مورد انسلخ عنه حتَّىٰ نصفه بالظلم.

قد ورد في مبدئه التصوري:

١ - نظرية المنفعة من أهم المؤسِّسين لها (بينثام - آستين - ليونز - روز...) وتذهب إلىٰ أنَّ الحق جعل قانوني يُفرضُ لإيصال المنفعة إلىٰ الشخص فينشأ حقاً له وتكليفاً علىٰ طرف آخر، لتحقيق ذلك التفاعل المنفعي بين الأطراف، وبسبب الإخفاق في هذه الضابطة، حيث انتقدت أن ليس كل منفعة هي متعيّنة لشخص بعينه وقاضية بالتكليف الكاشف عن الحق، فهناك منافع عامة تصل إلىٰ أشخاص غير متعينين كما في قانون الضرائب وقانون عدم التعرُّض لأرواح الناس، مما لا يجعل ذلك آحاد أفراد الناس أصحاب حق.

ومن هنا اعتمد أصحاب هذا الرأي نحو آخر مغاير، فقالوا: إنَّ كل منفعة تنبثق عن تكليف لا يمكن أن تكون عبارة عن محتوىٰ الحق، بل إنَّ الحق إنَّما يتم التأسيس له فيما لو كان الذي يحصل علىٰ المنفعة متَّصفاً بصفتين:

---

(١) سنذكر نظريتين للفلسفة الغربية وهما الأكثر اشتهاراً في الثقافة الغربية.

أ – وصول المنفعة إلىٰ المنتفع بنحو مباشر.

ب – أن يكون الغرض من سن القانون هو إيصال تلك المنفعة إليه مباشرة.

ولكنَّنا لا نقبل هذا المعيار للحق، لورود عدَّة إشكالات قادحة فيه، ومنها:

استحالة المنفعة لبعض أهل الحق كما في الواجب (سبحانه وتعالىٰ).

وكذلك وجود حقوق لا تقل فكرة التكليف (المقوم للحق) مثل حق الحرية والسلطة والحصانة.

٢ – نظرية الاختيار: ويعتبر الفيلسوف (إيمانوئيل كانط ١٧٢٤-١٨٠٤م) المؤسِّس لاتِّجاهها التقليدي الذي طوَّره بعد ذلك الفيلسوف (اتش.ال.اي هارت – ١٩٠٧-١٩٩٢م)، ويعتقد (كانط) أنَّ الإنسان يمتلك خصيصة طبيعية وهي الإرادة التي تمتد إلىٰ تأسيس مبدأ الحرية المطلقة، وأنَّ قيمية القانون الوضعي إنَّما تكون عند مراعاة تلك الخصائص الطبيعية للإنسان، ولكن بما أنَّ مبدأ الأمن الاجتماعي خاضع لتحديد الحريات عند تزاحمها وتصادمها أمكن للقانون تحديد الحقوق والتكاليف لذلك الغرض، ومن هنا جاءت مقولة الحق، وفي هذا الصدد يقول: (إنَّ الحق عبارة عن جميع الشروط التي يمكن أن يتحدَّد بموازاتها اختيار الشخص (المكلَّف) في ضوء القانون العام لإرادة الإنسان الحرة مع اختيار الآخر (صاحب الحق)[1].

(١) التحديات الماثلة أمام أهم النظريات الفلسفية في الغرب حول مفهوم الحق – محمد حسين طالبي – مجلة الاستغراب، موقع المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.

وأيضاً يرد علىٰ هذا القول إشكالات نختصر منها الآتي:

إنَّ بموجب الحرية المزمعة يستطيع صاحب الحق اختيار إسقاط حقِّه وبدون ذلك تعتبر النظرية ساقطة عن الاعتبار، لأنَّ الاختيار – المقوم –.

في حين نحن نجد أنَّ بعض الحقوق غير قابلة للإسقاط من قبيل حق الحياة والأمن علىٰ النفس والحرية وغير ذلك.

٣– النظرية الإسلامية، وقد ورد فيها:

الحق هو (سلطنة مجعولة من قبل الشارع للإنسان من حيث تعنونه بعنوان خاص علىٰ إنسان آخر، أو جماعة من الناس، أو شيء من الأشياء.

وهو عبارة عن الثبوت في التشريع الإلهي، سواءٌ في ذلك الأحكام التأسيسية أو الإمضائية التكليفية أو الوضعية، وسواء في ذلك ما كان منها سنخ الأحكام بالمعنىٰ الأخص، والحقوق بالمعنىٰ الأخص.

والحق – بهذا المعنىٰ – مأخوذ من التحقق) في صقع الجعل الإلهي للشريعة علىٰ البشر، أمَّا الحق بالمعنىٰ الأخص الذي هو من سنخ الملك، فالظاهر أنَّه مأخوذ من (الاستحقاق)[1].

وقد ورد علىٰ معنىٰ الملكية (في الحق) إشكال:

لأنَّ متعلّق الملك أعم من الفعل والعين، أمَّا الحق فمتعلّقه خصوص الفعل إضافة إلىٰ كون الملك سلطة قوية علىٰ المملوك، أمَّا الحق فسلطته ضعيفة إذ لا يسمح له بالتصرُّف في المستحق إلَّا بمقدار ما أجاز له المعتبر.

---

(١) حقوق الزوجية ويليه حق العمل للمرأة – الشيخ محمد مهدي شمس الدين: ص٩.

إذن: يمكن اعتماد السلطة الجعلية في تفسير الحق فهو الجامع له، ولكن ينبغي التدقيق في جهات هذا المعنىٰ ليتَّضح ويكتمل التصوُّر فيهما نحن فيه، فينبغي ملاحظة:

أوَّلاً: متابعة الحق وعلاقته مع خصوص الإنسان[1] كي يتَّجه البحث لما يمكن أن يقال في تأثير الشريعة الدينية عليه وتمييز الظالم من العادل فيها.

ولذلك سيلاحظ الحق المقابل للتكليف، لينتفع صاحب الحق به من خلال امتثال المكلّف باتِّجاهه في تحقيق ذلك، فكانت الشريعة الإلهية عبارة عن منظومة متعددة من التكاليف المرتبطة بين أطراف مختلفة، لكسب كل منها المنفعة، فالإنسان يُلاحق استيفاء حقه لإحراز منفعته كاملاً.

عندئذٍ ينقدح سؤالاً جوهرياً: حول الضابطة لجعل الحق بما يُحرز حمايتها من المنقصة – الحاكمة بالظلم –؟

يعتبر التناسب والتناسق بين الحقِّ وبين هوية المستحق هو الضرورة المحرزة وهو عين مفهوم العدل (أخذ كل ذي حقٍّ حقّه) أي بما يلائمه ويكون كفؤاً لهويته وطبيعته.

ثانياً: هوية الجاعل والمجعول له:

ينبغي التمييز بين رؤيتين تعتبران الأُس الفكري لمقولة حقوق الإنسان: الرؤية المادية التي تتَّسم بملاحظة الوجود والإنسان كظاهرة طبيعية لا تتجاوز معرفتها الحس والمادة والتجريبيات، والرؤية الإلهي الميتافيزيقية التي تستوعب

(١) وردت معاني متعدِّدة للحق (لغوياً – قرآنياً – فلسفياً – فقهياً)، ولذلك متعلقات مختلفة، والمعني به هنا الحق الذي يستدعي التكليف.

البُعد الحسي المادي لتمتد إلىٰ البعد الغيبي والماورائي، وبذلك تكون قراءتها للإنسان مغايرة تماماً عن القراءة المادية له، فهي تعترف بمبدئه كوجود أعلىٰ لا متناهي في جميع أنحاء الكمال المطلق، والذي أوجد العالم المادي (ومنه الإنسان من العدم وصوَّره ابتداعاً، بتفاصيل دقيقة محكمة متقنة... ﴿قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ﴾ (طه: ٥٠) دون استحقاق، بل رحمة وجوداً وكرماً، فكان الخلق به حدوثاً وبقاء (ويحدوني علىٰ مسألتك تفضلك علىٰ من أقبل بوجهي إليك... إذ جميع إحسانك تفضّل وإذ كل نعمة ابتداء)[١].

إنَّ واقع العلاقة بين الخالق سبحانه ومخلوقه الإنسان قائم علىٰ المالكية الحقيقية والربوبية التي لا تنفك عنه سبحانه طرفة عين بالضرورة، فإذا كان كذلك، انقطع السبيل إلىٰ تصوُّر حق للإنسان دون جعل من خالقه، إذ بعد أن كان هو البارئ والمالك والمدبِّر، فالحكم له أو عليه حقٌّ ثابت له سبحانه، ومن هذا المنطلق كانت فحوىٰ تعريف الحق المتقدِّم.

إذا ثبت اختصاص الباري سبحانه في جعل حقّ للإنسان اقتضىٰ ذلك التأكيد علىٰ أنَّ منطلقات الذات المقدَّسة عند تعيينه له إنَّما سيكون العلم والحكمة، وذلك يستدعي إبراز الماهية الإنسانية التي صنعها الخالق وبما يتناسب معها عين الحق لها وبنحو لا يتصوَّر فيه الظلم، لتنزّه الذات الإلهية عنه بحكم العقل والنقل[٢].

---

(١) الصحيفة السجادية – الإمام زين العابدين عليه السلام: ص٦٦.

(٢) ذكر في محله من علم الكلام الأدلة المفصلة علىٰ تنزُّه الباري عن الظلم واستحالته في حقِّه.

يقول الشيخ الآملي: (يلزم انحصار حق وضع حقوق الإنسان بيد الله تعالىٰ؛ لأنَّه الوجود الوحيد العالم بحقوق الإنسان الواقعية، وترك هكذا أمر لأيّ مصدر آخر غير الله – حتَّىٰ الإنسان نفسه – لا ينتج سوىٰ الظلم وزوال الحق... إذا لم يضع الله حقوقه ولم يرسل الأنبياء لتبليغها، ألا يحق للإنسان الاعتراض والقول بأنَّنا يا ربّ لا نعلم بأسرار العالم ولم يكن ذلك باستطاعتنا، فلماذا لم تهدنا ولم تبلغنا حقوقنا الواقعية؟ من هنا نستنتج بأنَّ وضع وإبلاغ الحقوق من قبل الله تُعدّ من حقوق الإنسان المسلمة...)[1].

عند البحث عن هوية الإنسان – برؤية إلهية – سنواجه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً...﴾ (البقرة: ٣٠)، فكانت الخلافة مشروعاً مقدَّساً للإنسان، واقعه التكريم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، ولازمه التسخير الكوني واستملاك الأرض ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: ٢٩)، وفرضه استغراب الملائكة من هكذا خلق ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ...﴾ (البقرة: ٣٠)، وعداوة الجن ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ (البقرة:٣٤)، ثم توعد النَّارِ ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٢).

لا شكَّ في توشُّج الهوية وإثقالها بالمسؤوليات والتحديات مما يُرغم الفكر بضرورة التبني، ومُسكة الأطراف المتنازعة والموائمة علىٰ حدٍّ سواء، فتعترف البداهة بالخضوع لمؤسِّس تلك المنظومة ذو الصناعة العلمية الحكمية.

---

(١) الحق والتكليف في الإسلام – الشيخ عبد الله الجوادي الآملي.

فكانت الحاجة إلىٰ إرسال الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإنزال الكتاب السماوي، وتشريع قانوناً يلحظ خصوصيات الهوية الإنسانية، والسبل لتهذيبه وتأديبه وتطويره نحو كماله، والظرف الذي سيتحرَّك به وهو اجتماع أفراده في بوتقة المجتمع.

وكلّ ذلك ضمن دائرة العدالة، كيما تُحفظ تلك الحقوق التي أُسسها خالق الإنسان لمصنوعه المتميِّز، ولولا ذلك لصار نقض للغرض وهو خلاف الحكمة التي دلَّ العقل والنقل عليها.

إذن لا مندوحة من الاعتراف بعدالة الشريعة وتناسبها بجميع خصوصياتها مع الإنسان، سيما أنَّ واقع وجود الإنسان لا يرتبط بعالم الدنيا فقط، بل الأعم من الدنيا والآخرة التي لا يعلم بقوانين نشأتها وإحراز السلامة فيها سوىٰ الله سبحانه ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦١).

ثالثاً: مبدأ العقوبة لا ينافي عدالة التشريع:

ينبغي التأمُّل في غاية تشريع العقوبات لينكشف مدىٰ تقاطعها مع عدالة الدستور الديني، والغايات المتصوّرة فيها إنَّما هي بنحوين:

١ - تشريع العقوبة بدافع الانتقام والتشفِّي من قبيل تشفِّي المظلوم من عقوبة الظالم، ولا يمكن تصوُّر هذا المعنىٰ في حقِّ الشارع المقدَّس لأنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١)، فلا يعترضه وصف مما يصيب الوجودات الممكنة كالانفعال والتأثُّر والاسترخاء، لأنَّها صفات يلازمها الفقر والحاجة والتغيُّر والتبدُّل، علاوة علىٰ أنَّه غني عن الانتفاع بالانتقام والتشفّي... ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧).

٢ - تشريع العقوبة بدافع الضبط الأمني للمجتمع واستقراره، بل صيانة الفرد وحمايته من الإخلال في كرامته الإنسانية، والانتقاص من حظوظه الدنيوية أو الأخروية كما في شرب الخمر وتناول الحبوب المخدرة، أو القتل والسرقة إلخ، وهذا ما تفعله السلطة القضائية في القوانين الوضعية.

ولا شكَّ أنَّ هذا النحو ممدوح مطلوب لأنَّه ضمان للأفراد بنحوه الاجتماعي أو الشخصي، وهو غاية الشريعة عند سَن العقوبات، فإنَّ الحكم الشرعي بلحاظاته المختلفة لا ينفك عن ملاك المصلحة أو المفسدة وفي الالتزام به نفع اعتبره الشارع حقٌّ للإنسان، وتعمل العقوبة علىٰ عدم التهاون فيه والمحركية نحو الامتثال، وقديماً قالوا: (من أمن العقاب أساء الأدب).

ولذلك من حقِّ الإنسان تأمين منظومة العقوبات لإحكام القانون الذي يُحفظ به الحقوق والواجبات فلا ملازمة بين نص العقوبات ونفي العدالة التشريعية بل العكس هو الصحيح، فإنَّ تعيين الحق لصاحبه لا يمكن إيجاده إلَّا إذا لازمه تكليف، والتكليف المنفلت من الحساب والعقاب يفقد قيمته وأثره، ولذلك تعتبر العقوبة جزء لا ينفك في فلسفة الحقوق.

رابعاً: قسوة العقوبات لا تتعارض مع القانون العادل:

بعد أن ثبت ضرورة العقوبة في التحاقها بالتكليف الموجب لإقالة الحق، لقناعة كل فرد في حصول استحقاقه لتأنس النفس بالعدل، يأتي الكلام في التفصيل بكيف العقوبة، حيث قيل: إن كان ولابدَّ من عقوبة فيمكن الاكتفاء بنحوها الأيسر والأكثر رفقاً، في حين تبالغ شريعة الإسلام في إيلام المعتدي بأساليب مختلفة.

ولكن رأينا علىٰ الخلاف، وإليك البيان:

١ - لا تنحصر الشريعة الإسلامية بالعقوبات الموجعة كما تستهجنه الدعوىٰ، بل تتنوَّع بالتفاصيل الهادئة في التعاطي مع المخالفات وبأساليب تربوية روعيت فيها دقائق الآثار علىٰ نفسية المكلَّف، وحتَّىٰ ما يشمل العقوبات الشديدة، فقد تضمَّنت شروطاً تعجيزية في إثباتها، لإدامة الأثر التربوي دون الوضعي.

٢ - بعد التسليم بحكمة المشرِّع تتَّضح ضرورة الإيلام وقسوة العقوبة في بعض مواردها، لعدم تأثير العقوبات المخفَّفة في التزكية وتحصيل الردع وإلَّا صار نقضاً للغرض، وما نشهده من اعتداء وسلب وقهر رغم حاكمية القانون الوضعي يؤكِّد قولنا، لذلك لا يجوز الاستخفاف بالآثار الوضعية والمجتمعية للجرائم والعمل علىٰ أحداث تناسب بين خطورة الجريمة والعقاب للأمن منها.

٣ - إنَّ المبالغة في حماية حقوق المجرم والإشفاق عليه إنَّما هو إجحاف وتدليس، فالعدل في إنصاف المتضرّر والمعتدىٰ عليه، إذ قد تصل معاناة المجني عليه إلىٰ المكابدة والحرمان ما تبقىٰ من حياته، كما في اليتيم الذي قتل والده، والذي فُقأت عينيه، أو نُهِبَ ماله الذي أفنىٰ السنين في جمعه إلخ، فينبغي استحضار الجريمة وآثارها ليتَّضح أنَّ قسوة العقوبة هي عين الحكمة والمصلحة سيما إذا تمَّت المقارنة بينها وبين مفاسد تركها أو حتَّىٰ تخفيفها.

٤ - عَمِل الإسلام قبل تقرير العقوبات علىٰ إعداد برنامج تهذيبي متكامل، من حيث التكوين (فخلق الإنسان ذو عقل وفطرة ووجدان وضمير ومشاعر، كل ذلك يدعو إلىٰ الفضيلة والاستقامة)، ومن حيث التشريع فأرسل الأنبياء

والرُسل وأنزل الكتب السماوية، والشريعة ذات برنامج تعليمي وتأديبي وتربوي)، فإذا تقدَّم الفرد والحال هذه نحو الرذيلة والجريمة، فليس ذلك إلَّا لأنَّ نفسه مريضة لا تهوىٰ الحق وتميل إلىٰ الباطل! مما يؤكِّد استحقاقه للتأديب والمجازاة علىٰ سوء سريرته وفعله.

إلىٰ هنا تمَّ إثبات عدالة التشريع من خلال ضمان معيار العدالة فيها، والذي هو الحق وأنَّه مكفول للإنسان باعتباره مخلوق الله سبحانه، وبذلك يكون قد داعىٰ في خلقه كل ما يضمن إرادته الحكيمة فيه، ومن جملة ذلك (الحق) وتقنين كل ما يكفله.

ومن أراد التفصيل المسهب في خصوصيات مفردات ذلك التشريع كما في (فلسفة كل عقوبة بنحوها الجزئي أو دعوىٰ ذكورية الفقه وإجحاف قانون الأحوال الشخصية بالمرأة)[1]، فليراجع المطولات.

وأمَّا قولنا في شبهة إهمال شخصية المجرم وعدم الاتِّفاق مع النظرية الحديثة في تحليلها هو:

إنَّ الملاحظ في تشريع العقوبة ثلاثة جهات مما يدفع الإشكال، فالأولىٰ في ملاحظة تكوين النفس، فهي ذات قوىٰ تعمل علىٰ إصدار الأفعال الخارجية والإرادات كالقوة (الشهوية والغضبية والعقلية)، وللنفس أيضاً مراتب (النفس الأمَّارة واللوَّامة والملهمة والمطمئنة)، إضافة إلىٰ نوازع الخير كالصلحاء الذين يدعون إلىٰ عمل الخير ونبذ الشر ويمارسون وظيفة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وهكذا دور القرآن الكريم وأدعية المعصومين عليهم السلام التي تُجسِّد دروساً توعوية تربوية

(١) من قبيل بحث (المرأة) للعلامة السيد أحمد الاشكوري – مخطوط.

تعبوية نحو الصلاح، ورغم كلّ ذلك فإنَّ الجاني يتجاوز السبل النفسية له والخارجية المحيطة به إلىٰ الخطيئة والجريمة.

والحال هذه لا يبرّر له ممارساته الخاطئة بذريعة التأثُّر بالأسباب الفاسدة لوجود التكافؤ مع الأسباب الصالحة.

والثانية: هي ملاحظة ما ينسجم مع هذه النفس الأمَّارة من علاج يشفي خبث السريرة – إذ ذكرنا سابقاً أنَّ العقاب روعي فيه حكمة المشرِّع وعلمه بالأصلح الأنفع لطبيعة خلقة الإنسان – أو لا أقل يحمي المجتمع منها.

فتعمل العقوبة علىٰ شفاء النفس العليلة وأيضاً حماية المجتمع وحقوق الآخرين، أو الثاني منهما فقط إن لم تتمكَّن من كليهما.

أمَّا الثالثة: فهي ملاحظة أطراف المسؤولية إذ ليس الجاني هو من يتحمَّل المسؤولية منفرداً، فتعمل الشريعة علىٰ ملاحظة الأسباب المساهمة في صدور الفعل مما يوجب دفع العقوبة غالباً، وذلك وفق قاعدة (الحدود تدرأ بالشبهات))[1].

وفيما ورد من قبح العقاب الذي يصادر حرية الإنسان كما في (الزانيين)، فإنَّه مبنىٰ فاسد، إذ لا نرتضي: بمبدأ الحرية المطلقة، فإنَّ الإنسان خليفة الله سبحانه بمعنىٰ كونه وكيلاً له، والوكيل يراعي في تصرُّفاته إرادة الأصيل فتكون حريته مقنَّنة، وأيضاً الاتِّفاق علىٰ الخطأ لا يبيحه، ومن الواضح أضرار خطيئة الزنا النفسية والاجتماعية.

---

(١) معنىٰ القاعدة هو عدم إقامة الحدّ علىٰ العمل الجنائي الذي يقع اشتباهاً، فالمراد من الشبهة هنا هو تحقُّق العمل الذي عليه الحدّ مع الجهل بالموضوع أو الحكم. [موقع شبكة المعارف الإسلامية].

وكذلك يمكن تبديد إشكال التعارض بين الحرية الفكرية التي أقرَّها الإسلام ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وبين عقوبة الردّة بأنَّ المرتد يمثِّل حرباً للإسلام وتهديد الأمن العقدي للمجتمع الإسلامي وحفظ الأمن والكيان أمر مشروع عند جميع القوانين الوضعية والاعتبارات الإنسانية.

إنَّ عملية الارتداد دون رادع قوي تمكِّن كلّ من يريد التشكيك بالدين وزعزعته أن يعتنقه ثم يعلن براءته منه، وفي ذلك تضعيف له وزعزعة لإيمان الآخرين.

وعدم تأمين الإسلام وحمايته يطمِّع الكفر بالإطاحة به من خلال الارتداد، قال تعالىٰ: ﴿وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٢)، وليست الآية المباركة مختصة بالمرتد الملِّي، لعدم تخصيص الوارد بخصوص المورد، ولا يخفىٰ أثر المرتد الفطري السلبي الأكبر من الملِّي علىٰ المسلمين.

إضافة إلىٰ أنَّ كلّ الردود الأخيرة التي خصصناها بالبيان هي أيضاً مشمولة بالبيان العام الذي ذكرناه بداية من حقِّ الباري سبحانه في ما يقدِّره لمخلوقه كونه مملوكه بملكية حقيقية غير اعتبارية، وكونه لا ينفك عن تدبيره، وأنَّه سبحانه العالم الحكيم المطلق، إذن لا معبِّر لتصوُّرات الظلم أو الإجحاف في جزئيات تشريعه المقدَّس.

ب - السلطتين التنفيذية والقضائية:

إنَّ قراءة المستقبل لدولة المعصوم عليه السلام قد لا يكون واقعياً، وبأعلىٰ تقدير يمكن وصفه بالتنبؤ والتخمين البالغ الاحتمال أو الظن كنسبة معرفية، ولكن

يمكننا الحصول علىٰ واقعية القراءة من خلال دولة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في فترة حكمه بلاد المسلمين (٣٥-٤٠هـ)، وذلك علىٰ أساس كون الأئمة عليهم السلام من نور واحد، عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله عز وجل أوحىٰ إليَّ ليلة أُسري بي... يا محمد إنِّي خلقتُ علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من نور واحد ثم عرضتُ ولايتهم علىٰ الملائكة، فمن قبلها كان من المقرَّبين ومن جحدها كان من الكافرين»[١].

إضافةً إلىٰ أنَّ مقوِّمات الإمامة واحدة مما يستدعي اتِّحاد المبادئ والأُسس الفكرية لمشروعهم الربَّاني، وإنَّ أهم دعامة لهذا المشروع هي: التقوىٰ حيث حشَّد القرآن الكريم والروايات المباركات النفس الإنسانية لها، كونها المنطلق إلىٰ كلِّ خير، حتَّىٰ بلغت عمقاً في وجود الإمام إلَّا لتتقرّر بنحو العصمة ولتكون شرطاً مقوّماً لإمامته، وعندئذٍ سيكون جلياً كون المهدي المنتظر عليه السلام ثابتاً علىٰ قاعدة رصينة تؤمن حركاته وفعالياته وقراراته ضمن مبدأ العدالة، ولن يسمح ورعه وتقواه أن يزلّ عنها قيد أنملة لطرفة عين، وهذا ما ينعكس علىٰ أجهزة دولته المباركة للسلطتين معاً التنفيذية والقضائية، من حيث التأسيس ودوام المتابعة لأدائها.

وبذلك لنا أن ننظر إلىٰ معالم دولته الكريمة من نافذة الحكومة العلوية المباركة التي عبَّر عنها أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها علىٰ أن أعصي الله في نملة أسلُبها جلب شعيرة ما فعلته، وإنَّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها»[٢].

---

(١) كتاب الغيبة للشيخ النعماني: ج١، ص٩٢.
(٢) نهج البلاغة: ٣٤٦، طبعة صبحي الصالح.

مبادئ تأسيس الجهاز التنفيذي (السلطة التنفيذية):

تعتبر نزاهة وأمانة السلطة التنفيذية من الأركان الأساسية في تحقيق الدولة العادلة كونها الجهاز التطبيقي لمواد الدولة القانونية واللسان الناطق واليد العملية للفكر الديني النظري، إذ تستدعي العدالة الواقعية المادة القانونية العادلة (الدستور) مع القدرة علىٰ التطبيق من خلال الوزارات بمختلف فروعها لترجمة ذلك الدستور خارجاً، ولا يمكن تحقيق ذلك إلَّا برؤساء وقادة يحرصون علىٰ الالتزام الكامل بالقانون العادل، وعلىٰ رأس ذلك يأتي دور القضاء لمتابعة ومحاسبة كل زلل حاصل وانحراف عن التطبيق العادل - وسنأتي عليه -.

وذكرنا أنَّنا من خلال انضباط الجهاز الحاكم بجميع تخصُّصاته في دولة الإمام علي عليه السلام وإحكامه عليه السلام لتلك المسيرة، أمكننا تصوُّر نموذج مشابه له في الدولة المهدوية، وإليك أداء المعصوم عليه السلام في هذا المضمار من خلال التوجيهات الصادرة منه إلىٰ مالك الأشتر - الوالي علىٰ بلد من بلاد المسلمين من قبيل -:

إرادة تسليم الحكم إلىٰ قادة - وهم الولاة آنذاك - نزيهين، يمتلكون إرادة الحكم العادل، ولذلك كان التأكيد علىٰ استبعاد العناصر الفاسدة السابقة في الحكم علىٰ توليها مناصب جديدة، وفي ذلك قال عليه السلام: «إنَّ شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شَرِكهم في الآثام، فلا يكوننَّ لك بطانة، فإنَّهم أعوان الأئمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف»[1].

ورغم هذا التوجيه إلَّا أنَّ هناك حكاماً في عهد دولة أمير المؤمنين عليه السلام استلموا الحكم لم يلتزموا بذلك مما أوجب حدوث بعض الإخفاقات، ولكن في

(١) وصية سيد الموحدين علي عليه السلام لمالك الأشتر.

مقابل ذلك لا يُتصوَّر هذا النحو في الحكومة المهدوية لورود روايات تخبر بوجود ثلَّة منتخبة تناصر الإمام المهدي عجل الله فرجه، وتلازمه، وتكون خير قادة علىٰ التمكين من الحكم العادل.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «كأنِّي أنظر إلىٰ القائم عليه السلام وأصحابه في نجف الكوفة، كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطير، قد فنيت أزوادهم وخَلقت ثيابهم، قد أثر السجود بجباههم، ليون بالنهار، رهبان باللَّيل، كأنَّ قلوبهم زُبر الحديد، يُعطىٰ الرجل منهم قوة أربعين رجلاً...»[١]، ومما جاء فيهم أيضاً: «لهم دوي في صلاتهم كدوي النحل... رهبان باللَّيل ليوث بالنهار وهم أطوع له من الأَمة لسيِّدها، كالمصابيح كان قلوبهم القناديل وهم من خشية الله مشفقون...»[٢].

وكذلك سأل أبي بصير الإمام الصادق عليه السلام: جُعلتُ فداك، ليس علىٰ الأرض يومئذٍ غيرهم؟ فقال: «بلىٰ، ولكن هذه التي يُخرج الله فيها القائم، وهم النجباء والقضاة والحكام والفقهاء في الدين، يمسح الله بطونهم وظهورهم فلا يشتبه عليهم حكم»[٣].

وعن سليمان بن هارون العجلي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ صاحب هذا الأمر محفوظة له أصحابه، لو ذهب الناس جميعاً أتىٰ الله له بأصحابه، وهم الذين قال الله عزوجل: ﴿... فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا

(١) منتخب الأنوار: ١٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٠٧.
(٣) دلائل الإمامة: ص٥٦٢.

هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿... فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]»[١].

إضافة إلىٰ ذلك فإنَّه عليه السلام صاحب القيادة المعصومة سيكون ناظراً عليهم، عارفاً بالواقع الذي يقتضي العدل فيعمل به، لأنَّ الظاهر من الروايات أنَّه لن يتعامل مع الناس علىٰ أساس الظاهر الذي يمكن أن تفوت به الحقيقة، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا قام القائم عليه السلام لم يقم بين يديه أحد من خلق الرحمن إلَّا عرفه صالح هو أم طالح، لأنَّ فيه آية للمتوسِّمين وهي بسبيل مقيم»[٢].

وروي في كمال الدين بأسناده عن أبان بن تغلب، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «سيأتي في مسجدكم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، يعني مسجد مكة يعلم أهل مكة أنَّه لم يلدهم آبائهم ولا أجدادهم، عليهم السيوف، مكتوب علىٰ كلِّ سيف كلمة تفتح ألف كلمة، فيبعث الله تبارك وتعالىٰ ريحاً، فتنادي بكلِّ وادٍ: هذا المهدي يقضي بقضاء داوود وسليمان عليهما السلام ولا يريد عليه بيِّنة»[٣].

وإنَّ المراد من حكم داوود وسليمان عليهما السلام أنَّهما كان في قضائهما لا يسألان البيِّنة، فكذلك المهدي عليه السلام فإنَّه سيحكم بعلمه الذي لا يتخلَّف عن الواقع.

وكلّ ذلك سيؤمِّن منظومة متكاملة من جهة الدستور العادل والحاكم والقاضي العادل.

---

(١) غيبة النعماني: ص٣١٦.

(٢) كمال الدين: ص٦٧١، ب٥٨، ح٢٠.

(٣) كمال الدين: ج٢، ص٦٧١، ب٥٨، ح١٩؛ وغيبة النعماني: ص٣٢٧، ب٢٠، ح٥.

مبادئ تأسيس الجهاز القضائي:

في نظام الدولة المدنية التي تنطلق علىٰ أساس تأمين المساواة والعدل بين أفراد مجتمعها، من الضروري استقلال السلطة القضائية واحترام ومراعاة جميع مؤسسات الدولة، ليعمل القضاء في الشأن المعروض عليه دون تحيُّز، ودون تقييد أو تأثيرات فاسدة، أو إغراءات أو قيود أو ضغوط وتهديد أو أي نحو من أنحاء التدخُّل والتأثير المخالف للحقيقة، لأيِّ سبب ومن أي جهة.

فينفرد القضاء في حكمه والولاية علىٰ جميع المسائل المناطة به، ولا يُسمح لغيره التدخُّل بتخفيف أو تعديل للأحكام الصادرة منه.

ولحجم مسؤولية القضاء أصدر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عدَّة ضوابط تميِّز صاحب القضاء لضمان إدارة المسؤولية بنحوها المطلوب، وهي بالنحو التالي:

١ - أن يكون عالماً، خبيراً في أحوال مجتمعه وضليعاً فيما يصلح شأنهم وسبل معالجة مشاكلهم، ولذلك يوصي عليه السلام مالك الأشتر: «اختر للحكم أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق عليه الأمور»[1].

٢ - أن يكون قنوعاً، ورعاً عن الحرام، فيقول عليه السلام فيه: «ولا تشرف نفسه علىٰ طمع»، وبذلك يقطع السبيل أمام الرشوة والابتزاز.

٣ - أن يكون نبهاً دقيقاً صبوراً، ليمكِّنه إصابة الحق وعدم التعجُّل في القضاء، وفي ذلك يقول عليه السلام: «ولا يكتفي بأدنىٰ فهم دون أقصاه وأوقفهم في الشبهات وأخذهم بالحجج».

---

(١) مجلة العقيدة - خصائص الحاكم العادل في كلمات أمير المؤمنين - أ. د. كريم شاتي السراجي.

٤- البذل والإغداق عليه كيما يستقر في حال معاشي مناسب، يحميه من الزلل والانزلاق في الباطل لتحصيل الكفاف والمنفعة المادية، وفي ذلك يقول عليه السلام: «ثمَّ أكثر تعاهد قضائه وافسح له في البذل ما يزيل علَّته وتقل سعة حاجته إلىٰ الناس...».

٥ - أن يكون من أهل الدين والحياء، ناشئاً في بيئة صالحة ليؤمَن زيغه وطغيان النفس لسوء المنشأ (الوراثة والتربية)، فيقول عليه السلام: «وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدُّم في الاسلام».

٦ - أن يكون حسن السيرة وذا تاريخ نزيه ومشهود له بين أهله وناسه بالصلاح، فليس المعيار بالانتخاب الفراسة وحسن الظن إذ يمكن إيهامهما وتغريرهما، فيقول عليه السلام: «ثمَّ لا يكن اختيارك إيَّاهم علىٰ فراستك واستنامتك وحسن الظنِّ منك، فإنَّ الرجال يتعرَّفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولّوا للصالحين قبلك فأعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً»[1].

وكذلك الإمام المهدي عجل الله فرجه سيكون جهازه القضائي، بل إنَّ الحكم الفقهي لدىٰ الإمامية يقضي شرط الاجتهاد والعدالة في من يتولَّىٰ القضاء.

الجهة الثالثة: مجتمع الحكومة المهدوية:

إنَّ للأفكار جذوراً وخلفية تتحكَّم في نشوئها ومن ثَم رسوخها، وفي تشكيلة المجتمع الإنساني المعاصر (من الأهواء والأذواق والعادات والثقافات

(١) هذه درر من عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ مالك الأشتر رضي الله عنه.

والقناعات المختلفة مع بعضها البعض بنحو عام، الفكر الديني بنحو (خاص) داعوية إلىٰ التشكيك في قدرة المشروع المهدوي إلىٰ قيادة تلك التعددية المطلقة، فانقدح السؤال حول إمكانية تفاعل المجتمع مع المنهج الحكومتي العادل للمعصوم عليه السلام، ومع واستجابتهم له في تعايشهم مع بعضهم البعض، خصوصاً إذا لاحظنا حياتهم الخاصة!

فصار لزاماً التحقيق في تلك الإشكالية بما ينسجم مع محدودية المقام، وذلك بالبيان التالي:

فيما سبق ذكرنا في الدرس السابع المشروع الإلهي في عزمه علىٰ صناعة الإنسان تحت عنوان: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وبينَّا أنَّه عنوان مشكّك ذو مصاديق متباينة، ومدلوله المطابقي علىٰ أفراد الإنسان العام (المجتمع) هو من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ...﴾ (الأنعام: ١٦٥)، وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يقول: درجة واحدة، إنَّ الله يقول درجات بعضها فوق بعض، إنَّما تفاضل القوم بالأعمال».

وبذلك يكون كلّ فرد مستخلف عنه سبحانه في التصرُّف بملكه وعمارة أرضه ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها...﴾ (هود: ٦١)، وكلٌّ بحسبه وفق ما آتاه الله سبحانه من قوة بدنية وعقلية وروحية ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، ليكون وجود القوىٰ وتفاوتها مادة للاختبار والامتحان في الدنيا به يتم التمايز بين البشر في الآخرة عند استخدامها وفق الإرادة الإلهية، لتتم بذلك الخلافة، لأنَّ الوكيل لا

يتجاوز إرادة الأصيل (عندئذٍ يكون بين أفراد الإنسان درجات في العمل تسبقها درجات في تفاوت القوىٰ).

إنَّ هذا المشروع الرباني قابل للتنفيذ من خلال عناصر تكوينية ذاتية للإنسان فالميل إلىٰ الخالق سبحانه والتديُّن فطري ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾ (الروم: ٣٠)، وعن عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام، لما سأله عن قوله تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ (الروم: ٣٠)، ما تلك الفطرة؟ فقال: «هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم علىٰ التوحيد».

وأيضاً يشير القرآن الكريم إلىٰ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٣٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «فبعث الله فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته»، أي أرسل سبحانه الرسل واحداً بعد واحد ليطالبوهم بما تستدعيه فطرتهم ويذكروهم منسي: وتسوقهم إليه جبلتهم[1].

فالإنسان بطبعه الأوَّلي يميل إلىٰ خالقه وطاعته إلَّا أنَّ الكفر والمعصية يعرضان عليه لأسباب خارجية عنه، كالتربية الفاسدة والمجتمع الفاسد وأسباب الإغواء وإثارة الغرائز وطغيانها، وعند الظهور المبارك سيوفر البيئة الصالحة، وأسباب الإيمان والهداية، لتتوافق الهداية التكوينية والتشريعية

(١) نهج البلاغة خطبة اختيار الأنبياء عليهم السلام.

وينسجم التكوين مع التشريع (أي تتَّحد إرادة الإنسان واختياره التكويني مع إرادة التشريع والمولىٰ ﷻ) وفي ذلك تحقيق لغرض الخلقة.

ويمكن تصوُّر بناء المعصوم عليه السلام الإيمان والأخلاقي للمجتمع من خلال:

١ - تبصرة أفراد المجتمع وتوعيتهم ورفع مستواهم الإدراكي للإقبال علىٰ الصواب والحق بعد تمييزهما بنحو البصيرة القلبية، عن أبي جعفر عليه السلام: «إذا قام قائمنا وضع يده علىٰ رؤوس العباد، فجمع به عقولهم، وأكمل به أخلاقهم»[١]، وفسّر ذلك بنحوين:

الأوَّل: وضع جارحته الخاصة بنحو المعجزة علىٰ رؤوس جميع العباد.

الثاني: أن تكون اليد كناية عن القوة التي يبسطها علىٰ كلِّ البلاد والعباد، وبذلك يجمع العقول ويكمل الأخلاق.

٢- إنهاء معاقل الظلمة، وإخماد أسباب الفساد الضالَّة والمظلَّة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله سار في أُمَّته باللِّين والمنّ، وكان يتآلف الناس، والقائم يسير بالقتل ولا يستتيب أحداً، بذلك أمر في الكتاب الذي معه ويلٌ لمن ناواه»[٢]، وقد جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ﴾ (الرحمن: ٤١)، عن الإمام الصادق عليه السلام: «نزلت في القائم يعرفهم بسيماهم فيذبحهم بالسيف...»[٣]، فلا يُقال كيف أنَّه عليه السلام يُسرف في القتل حيث إنَّه ينظر بعين الله تعالىٰ ويعمل بعلمه بالواقع فيشخص الذي لا تُرجىٰ هدايته فعلاً، فلا يكون بقاؤه إلَّا إضراراً وإضلالاً للعباد.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٢٨، باب ٢٧، ح٤٧.

(٢) غيبة النعماني: ص١٢١.

(٣) المصدر السابق: ص١٣٧.

٣ - تعريف المجتمع بالعقائد الحقة في التوحيد والمعاد، مما يُساهم في خضوعهم لإرادة المولىٰ تبارك وتعالىٰ.

٤ - تعريف الناس بالأخلاق والفضائل وتأثيرها الإيجابي، وتهذيبهم وتأديبهم.

٥ - إعمال القانون العادل الذي يكفل محاسبة كل من يُقدم علىٰ اقتراف الموبقات مما يُساهم بنحو كبير في الردع والسير علىٰ جادة الاستقامة.

ولا شكَّ أنَّ كل ذلك سيتم بأساليب حديثة وفاعلة ومؤثِّرة في النفوس كتسخير الإعلام، والمؤسّسات التعليمية والتربوية والدوائر الخدمية والمنصّات الخطابية والدور العبادية، وتحريك المشاعر والوجدان من خلال إحياء الشعائر والمناسك، وبذلك يخضع المجتمع لدورة مكثفة من التطهير والتهذيب وتزكية النفس، وبذلك يتكيَّف مع الأطروحة المهدوية ولن يجد ضيقاً في التفاعل معها علىٰ المستوىٰ الفردي الشخصي أو الاجتماعي.

* * *

الدرس الحادي عشر

شبهة أنَّ قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه وليدة الفكر الباطني

الفكر الباطني:

مقدمة:

شبهتان علىٰ قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في الثبوت والإثبات وإسقاطهما:

الأولىٰ: الفكر المهدوي لقيط الباطنية (قضية ثبوتية):

كثيرة هي أشواك الشُبَه التي تحيط الفكر المهدوي، وتتوقَّف بلورة المعتقد والتأسيس المتين وغير التقليدي له علىٰ تنزيهه من الريب وزعزعة الشك.

من هنا يجدر الالتفات إلىٰ المقولة التالية:

ابتليت الإمامية بانقسامات متعدِّدة كان من شأنها صناعة أفكار هجينة ونسبتها للمذهب، كما في الفكرة المهدوية التي أنشأها مَن يرفض الظاهر من الواقع ويتشبَّث بالخفايا والبواطن والرموز لعلَّها تشفي عن دون ولدٍ ظاهر، عن حرّ هجير الأمنيات وتخلق ما يحسبه الظمآن ماءً، لقد توفي الإمام العسكري عليه السلام وأوصىٰ بأمواله إلىٰ زوجته المسماة بـ(حديثة) والمكنّاة بأُم الحسن ولم يتحدَّث عن وجود ولدٍ في حياته.

وقبل جميع المسلمين هذه الحقيقة كما قبلها معظم الشيعة الإمامية وذهبوا إلىٰ القول بإمامة جعفر بن علي الهادي أو القول بانقطاع الإمامة، أو القول بالشورىٰ.

ولكن فريقاً من الغلاة الباطنين رفض التسليم بهذه الحقيقة الظاهرية، وأصرَّ علىٰ اختلاق قصة سرية ووجود ولد مكتوم ومخفي لم يُعلن عنه الإمام العسكري عليه السلام خوفاً عليه من القتل، فباتت فكرة وجود ولد للإمام للعسكري عليه السلام واستمراره إلىٰ يوم الظهور، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

الثانية: هل اخترقت الباطنية بمعالمها الفكر المهدوي (قضية إثباتية):

لا يمكن الإذعان بنقاء الفكرة المهدوية التي يحملها الشيعة بمبادئها النظرية من تأثيرات الفكر الباطني، فهناك عدَّة عوامل سياسية واجتماعية ساهمت بوضع الباطنية بصمات واضحة في صياغة الأطروحة المهدوية، والتاريخ شاهد علىٰ ذلك، حيث إنَّ تضييق الخناق من قِبل النظام الحاكم علىٰ أئمة أهل البيت عليهم السلام دفعهم إلىٰ ممارسة التقيَّة في حركتهم والتي يتقدَّمها إعلان إمامة الإمام القادم، وأكثر عهد تلكّأ فيه إعلان الإمام، هو عهد الإمام العسكري عليه السلام الذي أخفىٰ ولادة الإمام المهدي عجل الله فرجه وكشفه لعيان الأُمَّة.

فساهم غموض تلك الظروف وتوتّرها إلىٰ بروز مسمَّيات عدَّة تمثِّل شخصية الإمام المهدي عجل الله فرجه، إضافة إلىٰ انتهاج مسلك العرفان والتصوُّف للارتباط بذلك الإمام الغائب، ثم ظهور نظريات مختلفة كالإمامة الباطنية والولاية والمهدوية النوعية والبابية.

وكلّ ذلك في محاولات لتطبيق قراءات مغلوطة للنص الديني، أو التراث المناجاتي من الأدعية، أو لإشباع حاجة إنسانية لدعم السماء بوجود خليفة حاضر.

إذن بعد ذلك لا يصح الاعتماد علىٰ الأطروحة المهدوية التي تقرأها الإمامية لأنَّها أطروحة مخترقة لا يميِّز منها الغث من السمين.

تمهيد: ما هو الفكر الباطني ومنشأه ومعالمه؟

ونتناول ذلك ضمن مطالب:

١ - المبدأ التصوُّري للباطنية:

ينبغي التعريف بهذا المذهب والكشف عن أصوله ومدىٰ علاقته بالدين الإسلامي عموماً ومذهب التشيع خصوصاً، ليُعلم مدىٰ صحة التصاقه به ونسبته إليه، وإيعاز اختلاف النظرية المهدوية إليه.

أقوال في معنىٰ الباطنية:

قيل: إنَّها تسمية تُطلق في العالَم الإسلامي علىٰ الفِرَق التي تستبطن معتقدها ولا تُظهره إلَّا فيما بينها.

وقيل: إنَّها تسمية شاع استعمالها علىٰ من يقول إنَّ للنص الديني باطن وظاهر، وأنَّ الباطن أسمىٰ من الظاهر، وأنَّ المراد الأصلي للآيات وللأحكام هو الباطن دون الظاهر.

ولذلك قيل في تعريفها: إنَّها الحركات القائلة بأنَّ لكلِّ نص ديني ظاهراً وباطناً، ولكلِّ تنزيل تأويلاً[1].

وقيل: إنَّ النصوص الدينية عبارة عن رموز وإشارات إلىٰ حقائق خفية وأسرار مكتومة، وأنَّ الطقوس والشعائر، بل وحتَّىٰ الأحكام العملية كذلك، وينحصر الوصول إلىٰ هذه الأسرار بالعلماء وأهل الباطن.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ج١، ص١٩٢.

وبذلك ستتفاوت التأويلات وتتباين تبعاً لاختلاف مدركات المؤوّلين وميولهم الثقافية ومستوياتهم المعرفية[١].

إذن قد تطلق كلمة الباطني علىٰ ثلاثة أشخاص:

الأوَّل: من يَكتُم اعتقاده ولا يُظهره.

والثاني: هو المختص بمعرفة أسرار الأشياء.

والثالث: من يعتقد بالظاهر والباطن لكلِّ شيء وأنَّ له تأويلٌ خفي[٢].

٢ - ليست الباطنية وليدة فكر بذاته:

ركَّز الباحثون علىٰ الحركات الباطنية في الإسلام وكأنَّها إنتاج إسلامي مما يوهم تقريب فكرة انتمائها إلىٰ التشيُّع، وهو استحسان غير واقعي إذ يمكن تشخيص المقدِّمات الفعلية للحركة الباطنية من خلال الوثائق المدوَّنة التي ظهرت في حدود القرن (١٧ قبل الميلاد) في مناطق مختلفة لديانات غامضة في المعتقد والطقوس حيث كان لكلِّ ديانة أسطورة تتعلَّق بآلهته ورموز تلك الآلهة.

وتوحي تلك الطقوس بإشارات ورموز يختص بها ذلك الدين، فتحكي عن واقعة ما لحياة ذلك الإله، مما يساهم في تعبئة ذهن المؤمن بها بفكرة السر والغموض والباطن والظاهر.

كلّ ذلك من خلال ممارسة عبادية طقسية تُقام علىٰ شاكلة احتفال سري يختص بالمتعبِّد من خواص ذلك الدين.

---

(١) عبد الرحمن بدوي - مذاهب الإسلاميين: ص٧٥١.

(٢) الدروز والأغاخانية الإسماعيلية يذهب السيد منير الخباز إلىٰ كونها المصداق الوحيد للباطنية.

برزت هذه الديانات ذات الطابع الرمزي السري في بلاد اليونان حتَّىٰ استقرَّت ثقافتها لعمر يبلغ ألفين عام، ثم انتقلت من الحضارة الغربية إلىٰ الشرقية، كما نجد ذلك في بعض عقائد الكلدان السرية[١] والاعتقادات الهندية القديمة[٢] بسبب اختلاط الشرقيين بالغرب نتيجةً للحروب والاحتلال، وأيضاً لتسلُّل ثقافتهم وقصصهم وحكايات أساطيرهم إلىٰ العادات وتقاليد الشعوب الشرقية، ثم شيئاً فشيئاً دخلت في دياناتها بنحو رسمي، ولم تخلو الديانات السماوية بذلك التأثُّر، ومن نماذجه الواضحة اعتماد اليهودية لأسباب سياسية علىٰ التلمود والكاباله التي انتشرت في القرون الأخيرة[٣].

---

(١) هارفي بورتر - موسوعة مختصر التاريخ الهندي القديم: ص٨١.

(٢) اندريه إيمار - جانبين أوبوايه - تاريخ الحضارات العام: ج١، ص٥٦٨.

(٣) التلمود: هو التفسير الشفوي للأسفار الذي كان يتناقله الحاخامات الفريسيون من اليهود سرًّا، وكان يعتمد التوسعة والتعمق في معاني ألفاظ التوراة علىٰ نحو يغاير في دلالاته معاني كلماتها مغايرة تامة، ولخوفهم عليها من الضياع دوَّنوها في القرنين الأول والثاني بعدالميلاد وأسموها بـ(المشناة) ثم شُرِحت وسميت (جماراً)، وأُلِّفت هذه الشروح في فترة طويلة امتدَّت من القرن الثاني بعد الميلاد إلىٰ أواخر السادس بعد الميلاد، والتلمود يعظمه ويقدسه الفريسيون من اليهود وباقي اليهود تنكره، والفريسيون هم أكثر فرق اليهود في الماضي والحاضر، وهم يرون أنَّ التلمود له قدسية وأنَّه من عند الله سبحانه، بل يرون أنَّه أقدس من التوراة، فيقولون فيه: (إنَّ مَن درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومن درس المشناة فعل فضيلة يستحق المكافأة عليها، ومن درس الجمارة فعليه أعظم فضيلة) موسوعة الأديان - الدرر السنية.

الكاباله: مذهب يهودي أساسه الأفكار التلمودية، حيث اعتمدوا لفهمها تفسيرات باطنية، ويعود تنشئتها علىٰ يد سمعان بن يوشاي من القرن الثاني الميلادي الذي اختفىٰ عن الأنظار مدة في مغارة ثم خرج عليهم ليقول: إنَّ أسراراً قد كُشفت له، وأنَّه حصَّل شكلاً من الكشف أو الإلهام.←

وأمَّا المسيحية فبالرغم من تأكيد النبي عيسىٰ عليه السلام علىٰ قداسة النص الديني وعدم جواز تغييره أو تأويله، فلم تفتأ محاولات مخالِفة في حياته حتَّىٰ برزت بعد موته شخصية يهودية (بولس) أعلن الانضمام للدين الجديد المسيحية، وادَّعىٰ السفارة عنه واستعمل التأويل في تفسيره وكتاباته في النصوص المقدَّسة وأُسس مدرسة التأويل والرمزية في الديانة المسيحية، وفسح المجال واسعاً أمام المدارس المتخالفة في فهم الدين الجديد، وأسفر ذلك عن إنشاء حركة تسمَّىٰ بـ(الغنوصية)[1] واتِّساع رقعتها في فهم المسيحية.

وأمَّا الدين الإسلامي فيمكن تلمُّح طروء طيف الباطنية علىٰ أعتابه منذ ممارسة مدرسة المخالفين لعملية التأويل للنصوص الصريحة في محاولاتهم لتحريف نصوص الإمامة والخلافة عن شخوص أهل البيت عليهم السلام ظاهرها، فلا تصح دعوىٰ اختصاص الفكر الباطني بالتشيُّع وتنزيه التسنُّن عنه، بل وغيره من الأديان.

نعم، هناك مجموعة عوامل ساهمت بنحو في إلصاق الفكر الباطني بالتشيُّع علىٰ الخصوص ولا يمكن إنكار تلك العوامل مما أدَّىٰ إلىٰ إثارة تلك الشبهتان

← يعتقد الكابالليين أنَّ كل كلمة منه تحمل معنىٰ باطنياً لا يعرفه سوىٰ حاخاماتهم، فجعلوا من الكبالة حركة باطنية سرية، وللسحر مكانة أساسية عندهم، وذلك لاعتقادهم أنَّ السحر منزَّل من الخالق عن طريق الأنبياء الذين نقلوه إلىٰ الحكماء. [كتاب موسوعة الملل والأديان - مجموعة مؤلفين - الفصل الثالث: الفرق اليهودية - المبحث العشرون - الكابالا].

(١) الغنوصية: كلمة مأخوذة من الإغريقية، وتعني العرفان أو المعرفة الباطنية، وهي فلسفة صوفية بمعارف غيبية لها تأويلاتها وطقوسها، واسم علم علىٰ المذاهب الباطنية غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجد لا بالاستدلال. [موسوعة الفلسفة والفلاسفة: ج٢، ص٩٣].

المتقدِّمتان، إلَّا أنَّه ينبغي التمييز بين وجودها وتمييزها الحقيقي وبين واقع الفكر المهدوي الأصيل بما يحفظها من شبهة الباطنية وبما يشوّه أطروحاتها الأصيلة وعدم تغييبها عن مشهدها الوحياني الأصيل.

٣ - الدواعي في التصاق الفكر الباطني بالتشيُّع:

لا شكَّ بوجود عناصر مشتركة - بالنظرة السطحية غير التحقيقية - بين الباطنية والفكر الإمامي توهّم بتقمُّصه لباس باطني، من قبيل:

١ - الاعتقاد بمفاهيم من شأنها الخفاء وعدم الكشف عن المعتقد والسلوك، وهي سمة للباطنية كالتقية.

٢ - انتهاج مبادئ معرفية عُرِفت الباطنية بانتهاجها كالتأويل وتفسير النص علىٰ خلاف الظاهر.

٣ - عمق المطالب الدينية العقدية، مما ينحصر إدراكها والغوص فيها علىٰ فئة خاصة من أعلام الشيعة، كما في نظرية (واسطة الفيض) الواردة في الإمامة.

٤ - تستُّر الشيعة في إقامة طقوسهم الدينية وبعض عباداتهم.

٥ - تبني بعض أعلام المذهب الشيعي للعرفان (وهم أهل الباطن والسر).

٦ - المغالاة في عقيدة الإمامة عن البعض.

٧ - اندفاع بعض الدول غير الإسلامية إلىٰ دعم بعض الحركات الشيعية للتأثير علىٰ الفكر الإسلامي الصحيح، وذلك عين ما حدث مع اليهود في أوائل تغلغل الفكر الباطني لديانتهم.

٨ - ظهور مدارس غامضة الأفكار والمبادئ (كالشيخية والكشفية والبابية والبهائية).

٤ - إخفاق الشبهة في قراءة المهدوية، ومعالجة ذلك:

إنَّ ما ذكر إنَّما هو وليد قراءة تجزيئية سطحية لفكر عُرِف بعراقته وامتداده التاريخي علىٰ طول خط، ولا يسمح البحث العلمي بتجاوز ذلك بملاحظات أولية مقتضية، ومن هنا، فإنَّ الرسالة المحمدية - صلوات الله علىٰ حاملها وعلىٰ أهل بيته - تستدعي المحاكمة العلمية التالي:

١ - ضرورة معرفة الهوية الدينية[1] ثم الإسلامية ثم الشيعية ثم المهدوية للتمييز الماهوي بين الحقائق - وسنخص بالذكر هاهنا المهدوية للتناسب مع أصل البحث - وينبغي التأكيد علىٰ المنهج المعرفي الدقيق لهذه الهوية، والتمييز بين الثابت والمتغيِّر في منظومتها، ومعرفة فكرها العقدي وأحكامها الفقهية.

٢ - مناقشة الدواعي في التصاق الباطنية بالتشيُّع والمهدوية.

أمَّا الأوَّل: الهوية المهدوية ومنهجها المعرفي:

تأتي الهوية من مجموعة أُسس تشترك لتمثِّل البناء التأسيسي لها، ومن هنا تنشأ الهويات المختلفة كالهوية الدينية، الهوية المادية، الهوية اليهودية، الهوية الإسلامية... وغيرها من الهويات التي تصوغها الرؤية الكونية والتي تتحدَّد بالقيود والمواصفات فينشأ التكثُّر في الهويات.

ويمكن ذكر الحدود التي تؤلِّف هوية، وفي ما نحن فيه نحتاج إلىٰ ذكرها في تشخيص المهدوية لتتَّضح المعالم الفارقة بين ما عندنا وبين ما عند الآخرين فتؤول النتيجة إلىٰ سالبة لانتفاء الموضوع، إذ ليس من خفاء أو غموض أو تشويه أو اضطراب فيها.

ويمكن تأطيرها بالضوابط التالية:

---

(١) باعتبار الإشارة المسبقة للباطنية التي اخترقت الأديان السماوية حتَّىٰ تغلغلت للدين الإسلامي ثم الشيعي ثم التحاقها بالمهدوية.

الضوابط المشتركة مع بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام:

١ - تمثيل دور الخلافة الإلهية، فالمهدوية تمثِّل المقام الشامخ (الإمامة) التي تنطوي فيها وظائف خطيرة (التبليغ - التشريع - القضاء - الهداية) وهو ما أخبر عنه القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ابْتَلىٰ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)، مما استدعىٰ ذلك العصمة والعلم اللَّدني، فقوله وفعله وسكونه حجة من الله تعالىٰ علىٰ عباده.

٢ - ضرورة الاعتقاد به عليه السلام والخضوع وتقديم الولاية المطلقة له، وهو ما عبَّرت عنه النصوص الدينية المختلفة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥).

وعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله قال: «ألستُ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم»؟ قالوا: بلىٰ، فقال: «اللَّهمَّ من كنت مولاه فعلي مولاه».

٣ - قامت الأدلة علىٰ اختصاص النبي صلى الله عليه وآله وذريته من الأئمة عليهم السلام بالولاية التكوينية وأنَّهم وسطاء للفيض، وأنَّ لهم علم الغيب بنحو - العلم الشأني لا الفعلي -.

٤ - يختص قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[1] بالأئمة عليهم السلام من بعده أوّلهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم الإمام المهدي عليه السلام.

---

(١) ينابيع المودة: ج٣، ص٣٧٢.

الضوابط المختصة بالإمام المهدي عجل الله فرجه:

٥ - مشروعه الرباني والذي يتَّصف بـ(العالمية، العدالة الاجتماعية، العلمية والفضيلة).

٦ - الغيبة مما فرضت النيابة للفقهاء العدول، فكان لهم أدوار بيان الشريعة وحمايتها والدفاع عنها وضرورة الاتِّباع، ففي ذلك المعذرية والمنجزية، ولا معنىٰ لمقولة التفريق بين الدين وفهم الدين، فإنَّ وظيفة الوصاية علىٰ الدين إنَّما أوكلت إليهم من المعصوم علىٰ أُسس وقواعد معرفية وأخلاقية وتقوائية من شأنها تضمن قراءة النص الديني بما يحرز عدم الاشتباه والخطأ المعذّر والمنجِّز.

٧ - فكرة الانتظار وعدم التوقيت للظهور، وهي منظومة متكاملة من حيث العقيدة والعمل بما يعصم عن الانحراف وتجاوز الحدود التي رسمتها السماء.

وأمَّا المنهج المعرفي إليها فنبيِّنه بما يلي:

١ - ينبغي تحديد الموقف العلمي من المعرفة الدينية، فللمعرفة خصوصيات تلازمها تجعلها بنحو منضبط، ومن ذلك النتائج التي تؤول إليها المعرفة ومصداقية النتيجة في كونها مطابقة للواقع، ولا تتخلَّف عن ذلك المعرفة الدينية.

من هنا يأتي التأكيد بنحو الاستفهام عنها:

هل المعرفة الدينية ظنية دائماً وبنحو الموجبة الكلية؟

وجوابه: لم تكن المعرفة الدينية ظنية بنحو الموجبة الكلية، نعم، جعلَ الشارع المقدَّس البعض منها ظنِّي لأنَّها مبنية علىٰ مصالح متغيِّرة، وجعل لظنيتها

اعتباراً شرعياً منجزاً فهناك الثابت الديني، ولا شكَّ في اتِّصاف الشؤون العقائدية بالقطعية.

ثمَّ إنَّ دعوىٰ الظنية الكلية يُلازم عدم الإذعان بأيِّ أمرٍ ليُتَّفق عليه، إضافة إلىٰ أنَّ لها أُسس قطعية كالضروريات والمتواترات والأوليات، وبقية اليقينيات، فلا مناص من الاعتراف بقطعية المعارف الدينية في الجملة.

إنَّ وظيفة الدين تعليم الحقائق، ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وواترَ إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته... ويثيروا لهم دفائن العقول»[1]، ولولا المكنة من ذلك لما كرَّر القرآن الكريم الدعوة إلىٰ التفكُّر والتدبُّر.

ولتحقيق ذلك مصادر ومناهج معرفية، وإليك توضيحها إجمالاً:

مصادر المعرفة اليقينية العقائدية وفق المدرسة الإمامية:

أ - النص وهو الحقيقة المعصومة التي ترتكز علىٰ الوحي والتي تتمثَّل بالقرآن والسُنَّة الشريفة.

ب - العقل وهو من يكشف علىٰ الواقع العقدي بمعارفه البديهية كضرورة السبب للمسبب وحكمة الخالق - ودليله الواضح هو خلق هكذا خلق - وكذلك المعارف النظرية التي تتوقَّف علىٰ الاستدلال والنظر.

ج - الحدس وهو الانتقال الذهني السريع من المبادئ إلىٰ المطالب بلا تدرُّج في الاستدلال.

د - الإجماع: وهو ما يجمع عليه أفراد النوع الإنساني من المعارف التي يُهتدىٰ إليها بالفطرة فهي مصدر وجداني معتمد.

---

(١) نهج البلاغة خطبة اختيار الأنبياء عليهم السلام.

وفيما يخص المنهج فإنَّنا نؤمن بالمنهج التكاملي وهو ما يستخدم مناهج متعدِّدة، كالنقل والعقل والكشف والجدل.

وأمّا الثاني: مناقشة الدواعي في التصاق الباطنية بالتشيع والمهدوية:

وكان من جملة أهم الدواعي:

أوَّلاً: التقية: إذ يُتخيَّل أنَّها عنصر مشترك بينهما، فمن يقول بالتقيَّة هم أولئك الذين يتقاربون مع الفكر المهدوي علىٰ نحو الباب[1] الذي يُدخَل منه إلىٰ الإمام المستور أو أنَّ المهدي المنتظر حلَّ فيه حلولاً مادياً جسمانياً، أو أنَّ الحاكم بأمر الله هو الله نفسه، وأنَّه لم يمت، بل اختفىٰ إلىٰ ما شاء الله فيخرج متجلِّياً علىٰ الركن اليماني من البيت ويتمكَّن من حكم العالَم بعد الفتك بالنصارىٰ والمسلمين، فهم ينافقون عقائد الآخرين ويضمرون تلك الأفكار تقيَّةً!

ولكن ينبغي التفريق بين المدرستين، فإنَّ التقيَّة مبدأ عام له حضور في جملة من مختلف الفكريات المدرسية، لذا لا يصح أن يكون قرينة علىٰ الاتِّحاد الماهوي للمدرستين لمجرد حضور المبدأ فيهما معاً.

فإنَّ التقيَّة في الفكر الشيعي: كتمان المسلم عقيدته إذا تعرَّض في نفسه أو عرضه أو ما له لخطر لو أظهرها وعن الإمام الباقر عليه السلام: «التقية في كلِّ ضرورة وصاحبها أعلم بها حين تنزل به»، وهي واجبة بعض حالات الضرورة فقط،

---

(١) ظهر في البيئة الفارسية شاب ورع اسمه ميرزا علي محمد الشيرازي، وشهد له أصحابه بالمواهب والحماسة للعبادة وأجلّوه غاية الإجلال، مما أثَّر ذلك في عقل الشاب، واعتقد أنَّه مبعوث من الله، فأعلن أنَّه الباب الذي يدخل منه الناس إلىٰ الإمام المستور، ثم تطوَّر الأمر عنده واعتقد أنَّه فوق أن يكون مدخلاً للإمام المستور، بل هو نفسه الذي يهدي العالم وأعلن أنَّه هو المهدي وأنَّ المنتظر قد حلَّ فيه حلولاً مادياً جسمانياً.

ومحرَّمة وفق ظروف وشروط أخرىٰ كما لو ترتَّب علىٰ فعلها مفسدة جسيمة كما في موارد (الدماء، والافتاء، والقضاء، وما يؤدِّي إلىٰ فساد الدين والمجتمع، وعدم الضرورة).

وأمّا التقيَّة الباطنية فإنَّها الامتناع عن إظهار المعتقدات والمتبنيات الفكرية والفقهية بنحو أساسي، ويُحتَفظ بها دائماً في إطار المؤمنين بتلك المبادئ أو إخفاءها عن الاتِّباع إلىٰ حين بلوغهم سنًّا معيّناً.

إذن الأصل عند الفكر الباطني (التقية) حتَّىٰ قيل بشرعية كتمان وسرية عقائدهم في أصولها وليس التكتم من التقية، وهو بخلافه عند الشيعة، فإنَّها حالة استثنائية فرعية لا تبرز إلَّا في ظلِّ ظرف معيَّن خطير.

ثانياً: التأويل: فقد عُرِفت الباطنية بقراءة النص الديني قراءة باطنية وحمل الظاهر علىٰ خلافه، وذلك هو التحريف والتلاعب بآيات الله سبحانه وعاقبة ذلك الضلال ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ (الجاثية: ٣٤-٣٥).

وكذلك المتوهُّم في الفكر الإمامي، مما يزحف الإشكال علىٰ المنظومة المهدوية، فهي وليدة رَحِمه، وتلك نتيجة فاسدة منشأها مقدمات خاطئة فكان يجدر التمييز بين منهجين:

الأوَّل: المنهج التأويلي للباطنية:

التحرُّر من قيود اللغة التي تواضع عليها العقلاء للتفهيم والتفاهم، بمعنىٰ أنَّ التفسير الباطني لا يخضع لما تخضع إليه العرب في قوانين لغتهم حيث تتمتَّع بظاهر وباطن يُفترض ارتباطه بنحو بالظاهر، وإنَّما باطن القرآن سرٌّ خاص لا

يكشف إلَّا للخواص، وذلك الباطن هو شأنٌ لجميع القرآن وليس لبعضه ضمن أسباب لغوية معيَّنة[١].

وذلك بالاعتماد علىٰ:

١ - الواردات القلبية والإلهامات النفسية، يقول التفتازاني: (إنَّ النصوص علىٰ ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلىٰ دقائق تنكشف علىٰ أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان)[٢].

٢ - المباني والمعتقدات القبلية (حيث يستعين بها ذوي الإلهامات للتفسير).

٣ - اعتماد مبدأ الرموز والكنايات في لغة النص القرآني.

الثاني: منهج الإمامية عند إرادة التأويل:

وهو - التأويل - ما يعني: إرجاع اللفظ إلىٰ ما يؤول إليه[٣]، ويقول الراغب الأصفهاني في المفردات: التأويل من الأول، أي الرجوع إلىٰ الأصل... وذلك رد الشيء إلىٰ الغاية المرادة منه.

وهذه العملية (التأويل) هو من مقتضيات اللغة العربية، باعتبارها لغة دينامية تستبطن مفرداتها معاني متعددة ولاستظهار أحدها، فلابدَّ من ضوابط وقواعد لغوية يُعمَل بها للوصول إلىٰ المعنىٰ المقصود من ظاهر اللفظ.

---

(١) راجع شبكة نبأ (مناهج التفسير... مؤاخذات علىٰ منهج التفسير الباطني).

(٢) خالد عبد الرحمن العك - أصول التفسير وقواعده، دار النفائس - بيروت: ص٢١٤.

(٣) ورد معنيان للتأويل: الأوَّل: هو إرجاع المعنىٰ إلىٰ ما يؤول إليه، إذ إنَّ لكلِّ لفظ معنىٰ معين يُعرف من القرائن، الثاني:
حمل اللفظ علىٰ خلاف ظاهره (وينسجم ذلك مع التفسير الباطني وبخلافه الأوَّل).

وأحد ضوابط التأويل هو انسجامه مع قواعد اللغة وقراءة النص من المجاز والاستعارة وبلاغة النص، والقرائن المحيطة باللفظ هي التي تحدّد ذلك وتعيّنه.

إضافة إلىٰ أنَّ التأويل لا يجوز خروجه عن حدود المنطق والعقل، ولا يُلجأ إليه إلَّا إذا خالف الظاهر العقل القطعي، وهو مورد ضرورة مقنَّن يلتزم به الجميع ولا يمكن لأحدهم التفلُّت من تلك المحاسبات والقواعد ليعمل مستنداً إلىٰ رأيه البحت.

ثالثاً: عمق المطالب الدينية العقدية مما ينحصر إدراكها علىٰ فئة خاصة:

وفي وضوح ضعف هذه الدعوىٰ ما يكفي لسقوطها، فليس العلم الديني وقف علىٰ أحد فهو متاح لكلِّ طالب، وقد ذكرنا بحثاً مفصَّلاً في نظرية (واسطة الفيض) ومدعومة بأدلة عقلية ونقلية واضحة وليست سرية أو مرموزة أو خاصة – فليراجع –.

رابعاً: عُرفت الإمامية بإقامة طقوسهم الدينية وشعائرهم المذهبية علىٰ مرأىٰ ومسمع من جمهور المسلمين:

نعم قد يضطر البعض إلىٰ إقامة مجالس الذكر والدعاء بما يناسب عقائدهم بعيداً عن أعين أعدائهم ليأمنوا بطشهم واضطهادهم الديني، وذلك مرهون بظرف محدود بالزمان والمكان، فليس هو شأن عقدي، وإنَّما هو احتراز إنساني.

خامساً: المغالاة وسنأتي علىٰ ذكرها لاحقاً فيتَّضح الإبهام فيها:

وأمَّا المدارس الباطلة التي ارتبط عنوانها بعنوان المذهب الإمامي الأصيل فقد افترقت عنه بمبادئها ومناهجها ويصرّح إعلامياً بذلك بما يرفع الشبهة.

* * *

الدرس الثاني عشر

القضية المهدوية يحاصرها الريب (غيبية، غلوائية، خرافة)

لا يهدأ لسان الشُبَه في إصابة المهدوية بسهام تشكيكاتها، فكلَّما تجاوزنا رمية تلتها أخرىٰ، ولعلَّ ذلك يعود إلىٰ خصوصية في الهدف وهو الاستتار وطول مدة ترقُّب المستضعفين للظهور، وإليك ثلاث من الإشكالات الأخرىٰ المهمة:

١ - غيب القضية يؤول إلىٰ الخطل في الفكرة:

وهو كل ما غاب عن الحواس وكان مستوراً عنها، وينقسم إلىٰ (غيب مطلق) وهو ما لا تدركه الحواس الخمس، ولا يفترق في عدم إدراكه الناس أو الظروف، كالذات المقدَّسة وصفاتها، والملائكة، والعوالم العلوية، والروح.

ويقابل هذا القسم (الغيب النسبي) وهو ما يكون غيباً بالنسبة إلىٰ شخص دون شخص، أو حاسة دون حاسة، أو ظرف دون ظرف، كأخبار الماضي والمستقبل، والغيب عندنا معقلن لا أنَّه غير منضبط ومتسامح.

هل المهدوية غيبية؟

لا شكَّ أنَّ القضية المهدوية أحد عناصر الغيب، ولكنه (غيبي نسبي)، إذ ترتبط بإمام غائب لم يُشاهَد ولا يُعلم مكانه، ومتىٰ يظهر، وما هي مشخّصاته، وما هي مشاريعه وتفاعلاته مع الأحداث... إلخ، فبالتالي لا يصدق علىٰ القضية المهدوية غير أنَّها غيبية.

ولكن ينبغي التمييز بين الغيب المشرعن، الداخل ضمن منظومة الفكر الديني الصحيح والمنضبط به من حيث تحديد جميع الأبعاد المتعلّقة به (كما كان ذلك في الغيب المطلق كالذات المقدسة وسائر الميتافيزيقيات) وبين الغيب غير المنضبط والذي نجد إخفاق مدارس مختلفة للعقل الديني عند تعاملاتها معه (ولحاظنا الغيب المهدوي) كما في:

١ – مدرسة التعطيل والتي تبرز بلسان ضرورة المواكبة العصرية وتغييب المنظومة الدينية بنحو عام والمهدوية بنحو خاص، بذريعة عدم مكنة التعامل مع النص الديني فكانت الأقرب إلىٰ المدرسة الظاهرية.

٢ – مدرسة التعجيز التي حجَّمت القدرة علىٰ الولوج في الموروث المهدوي وإعلان العجز في الوقوف علىٰ منظومتها وجعلها قضية فاعلة بذريعة قصور العقل والفكر والعلم لإدراك ذلك.

٣ – المدرسة المنفلتة التي انطلقت في تعاملاتها مع المنظومة المهدوية بمنهج منفلت غير خاضع لضوابط دينية حقيقية، فقرأت المهدوية بعقل باطني يعتمد علىٰ أساس الكشف والشهود وهو منهج (الفكر الباطني) وبذلك ابتليت هذه المدرسة بالغلو والإفراط والتفريط في الفكر والسلوك.

ومن المُلاحظ تردُّد المنهج في هذه المدارس بين الإفراط والتفريط مما أنتج تفسيراً خاطئاً للغيب، وهناك مدارس أخرىٰ يضيق المقام عن ذكرها، وانتخبنا منها ما يحقق الهدف وهو توضيح ضرورة المنهجية الصحيحة في التعامل مع الغيب وتجنُّب المشاكل المعرفية والسلوكية نحوه وكما حدث للمدرسة الباطنية.

من هذا المنطلق سعىٰ الفكر الشيعي الأصيل إلىٰ التركيز علىٰ البحث الثبوتي في قضية الإمام المهدي ﷺ لأنَّه مُحرِز عن السقوط في تفسير الأطروحة المهدوية بنحو خاطئ، أو يخرجها عن كونها معادلة إلهية ربانية رُشِحَت للخلافة الإلهية بثوب الإمامة، وعندئذٍ يعتصم الفكر المعرفي عن تعثرات العقل الباطني أو العقل الأشعري أو المعتزلي، فتتوقَّف تخرُّصات تقديم الشخصية المهدوية بعنوان الغيب المعطّل أو الغيب الغلوائي ليشبّه بالإله أو العرفاني والخيالي أو التشكيك في وجوده وأنَّه سيولد إلخ من ترنّحات العقيدة.

وبحثه بنحوه التخصصي لترتسم ملامح المهدوية بريشة السماء وليس بأصابع الأوهام والأهواء.

وقد أغنىٰ التراث الشيعي هذا الجانب وقدّم منظومة معرفية مهدوية كاملة فلا مجال لدعوىٰ الغيب المتلكّئ والمغلوط والموهوم.

٢ - الغلو في المهدوية:

١ - تحديد الشبهة.

٢ - المبدأ التصوري.

٣ - المصادر المعرفية للمهدوية.

٤ - المقياس الموضوعي للغلو.

٥ - الإمامة المهدوية أصل للدين فلا مغالاة.

١ - شبهة الغلو في الفكرة المهدوية:

يعتقد الشيعة أنَّ الإمام المهدي عليه السلام خلفٌ - لضرورة عدم خلو عصر من هادي - للنبوة وشأنه شأن النبي في وجوب طاعته واتِّباعه بنحو التسليم المطلق

لما يتمتَّع به من عصمة مطلقة وعلم غيب وولاية، فدمجت إمامته بين البُعد الديني والبُعد السياسي ليكون مرجعاً دينياً وحاكماً سياسياً، وليس ذلك إلَّا للمبالغة في تقديسه وصفاته وقدراته بنحو المنازعة لمقام الألوهية وخاتمية النبوة.

وفي هذا الصدد قيل: (إنَّ المراجعة الدقيقة والموضوعية للإمامة الإلهية والمهدي المنتظر وما يلحقها من صفات وإضافات إنَّما هي صناعة بشرية نتيجة ظروف سياسية واجتماعية دون أن يكون لها دليل شرعي أو فقهي واضح ومتواتر يَرمىٰ ليجعلها في خانة الأصول والعقائد، وعليه فإنَّه يُرفض تكفير أي مسلم أو فرقة لا تؤمن بها)[١].

٢ - المبدأ التصوُّري للغلو:

الغلو في اللغة هو: (تجاوز الحد، يُقال ذلك إذا كان في السعر غلاء)[٢].

الغلو في القرآن قال تعالىٰ: ﴿يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ (النساء:١٧١).

الغلو في الرواية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يهلك فيَّ اثنان ولا ذنب لي: محبٌّ مفرط ومبغضٌ مفرط، وأنا أبرأ إلىٰ الله (تبارك وتعالىٰ) ممن يغلو فينا ويرفعنا فوق حدّنا كبراءة عيسىٰ بن مريم عليه السلام من النصارىٰ»[٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص٣٦٤، مادة: غلا.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢١٧، الباب ٤٦.
(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٠١.

ثمَّ قال: «فمن ادَّعىٰ للأنبياء ربوبية، وادَّعىٰ للأئمة ربوبية أو نبوة، أو لغير الأئمة إمامة فنحن منه براء في الدنيا والآخرة»[١].

إذن يُنتَزع من مجموع ذلك أن تجاوز الحد في أي شيء يُدعىٰ غلواً، أمّا في الاصطلاح الديني فالمقصود منه هو تجاوز حدود الحقيقة والمقام الفعلي للمخلوق والغلو في أهل البيت عليهم السلام هو الارتفاع بهم إلىٰ مقام الألوهية أو تفويض أمر الخلق إليهم مستقلاً، أو اعتبار النبوة مقاماً لهم.

وبعد قراءة المعنىٰ المقصود من الغلو والشبهة الواردة في حق المهدوية، يُعلم أنَّها تفترض التفويض الاستقلالي مما يستدعي الألوهية، وكذلك نسبة النبوة إليه لما تستدعيه الوظائف الموكلة للإمام المهدي عليه السلام وكلاهما نحو صارخ من أنحاء الغلو الفاسد، ولكن يَجدر الإثبات قبل دَعوىٰ ثبوت الغلو للفكرة المهدوية، وإليك بطلان ذلك:

أوَّلاً: المصادر المعرفية للمهدوية:

بداية لابدَّ من التأكيد علىٰ أنَّ هناك حقيقة يمكن للعقل بلوغها وأنَّ الواقع واحد إذ لا نقبل بالنسبية وهو ما يصيب تلك الحقيقة، والعقل قادر علىٰ تمييز الحق من الباطل، والصحيح من الخطأ، والصدق من الكذب [وهي لوازم وصفات الواقع]، وذلك بعد استعانة العقل بمصادر شخَّصه كونها قادرة علىٰ كشف الخارج الأعم من المحسوس وغيره، من قبيل [الحس والتجربة - العقل ذاته - العملي والنظري - التاريخ والتراث - النقل - الإلهام والكشف]، نعم إذا تمكَّن العقل من

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٣٥.

تشخيص واقع ببراهينه وقياساته المنطقية ثم تخالَف النقل مع العقل القطعي، لزم تأويل المنقول ليوافق المعقول، وإلَّا ضُرِبَ به عرض الجدار، وإذا لم يتمكَّن العقل من التشخيص وعجز عنه، فلا معنىٰ للاستناد إلىٰ عدم فهم العقل لإنكار النقل، وذلك لتحقيق العقل المسبق بعصمة الوحي والمتحدِّث الشرعي بلسانه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ﴾ (النجم: ٣-٤)، إذن للمعرفة الدينية منابع رصينة معتمدة لا يجوز التغافل عنها عند إنتاجها حقائق وإقرارها بها، ومن تلك الحقائق المنظومة المهدوية بمقاماتها وخصائصها وصفاتها الفريدة، ويتعيَّن الحديث عن مصادرها المعرفية التي أنتجتها لينكشف براءتها من وصمة الغلو.

وسنكتفي بذكر مصدرين معرفيين لضيق المقام:

المصدر المعرفي الأوَّل: الدليل العقلي:

يعتبر العقل قوة مدركة للكليات والتمييز والتذكر والكشف، وفي قبال ذلك إدراك الجزئي والمحسوس، فمتعلّق إدراك العقل هو المدرك القطعي (سواء البديهي أو النظري) ويخرج عنه المدرك الجزئي والظني، ومساحة المعرفة العقلية:

(فيما يخص العقل النظري) الحسن والقبح بمعنىٰ الكمال والنقص أو المصلحة والمفسدة.

والملازمات العقلية كوجوب شيء يستدعي وجوب مقدمته.

(وليس للعقل معرفة نفس الحكم الشرعي أو ملاكات الأحكام لتوقيفية ذلك).

(وفيما يخص العقل العملي) التأديبات الصلاحية (بمعنىٰ الحسن والقبح العقلي فيما يخص الفاعل المختار المَدح أو الذم)، ويكون ذلك بعد الاعتماد علىٰ تحسين أو تقبيح مسبق للعقل النظري للمدرَك الكلِّي لا الجزئي، ويمكن للعقل العملي تحديد وظيفة المكلّف عند فقدان الدليل بانتزاعها من قواعد مشرّعة من الشارع المقدَّس كقاعدة دفع الضرر المحتمل، وقاعدة وجوب شكر المنعم، وقاعدة اللطف إلخ، وبذلك يتَّضح أنَّ مساحة إدراك العقل أضيق من مساحة الوحي الذي يمتد باع إدراكه الماضي والحال والمستقبل فيكون حكم قضائه نافذ وله تمام القيمة.

وفيما نحن فيه من إثبات المقامات للإمام المهدي عجل الله فرجه علم الغيب، العصمة، الولاية التكوينية، واسطة الفيض، خلافة النبي صلى الله عليه وآله لا يلزم المغالاة لأنَّها مقامات أثبتها الوحي له بنصوصه القطعية ولم يمنعها العقل لأنَّها لا تؤدِّي إلىٰ التناقض أو التضاد، فلم يكن من بُدٍّ إلَّا التصديق بها بعدما أيقن مسبقاً – بالبرهان – بحكمة الصانع ولطفه وعصمة نبيه صلى الله عليه وآله.

المصدر المعرفي الثاني: القرآن الكريم والسُنَّة الشريفة:

الذي قال فيه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

فإنَّ ما فيه من بيان معارف وأهداف وغايات عَجِزت عن نيلها يد التحريف والتغيير، ولذلك يؤكِّد التعبُّد بآياته المباركات والتسليم لما جاء فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقد جاء فيه (بنحو مباشر أو غير مباشر) ما يثبت به المقامات للأئمة عليهم السلام.

١ - **العصمة**: ﴿وَإِذِ ابْتَلىٰ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤).

ولو كان الإمام عاصياً لصار ظالماً، ولو صار ظالماً لبطلت إمامته التي هي عهد إليه من الله تعالىٰ.

٢ - **علم الغيب**: ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، وقال تعالىٰ: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦-٢٧)، والآية المباركة تثبت علم الغيب لغيره سبحانه باجتبائه وارتضائه، وذلك حاصل لنبيه صلى الله عليه وآله بحكم الأفضلية، وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله: «ما من أرض مخصبة ولا مجدبة ولا فئة تضل مئة وتهدي مئة إلَّا أنا أعلمها، وقد علمتها أهل بيتي»[١].

وعن الإمام الرضا عليه السلام في جواب عمرو بن هذاب، حينما نفىٰ عن الأئمة عليهم السلام علم الغيب متذرعاً بأنَّ الغيب لا يعلمه إلَّا الله تعالىٰ، قال عليه السلام: «أوليس الله يقول: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] فرسول الله عند الله مرتضىٰ، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله علىٰ ما شاء من غيبه، فعلمنا ما كان، وما يكون إلىٰ يوم القيامة»[٢].

---

(١) بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار: ص٣١٧.
(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ج٤٩، ص٧٥.

٣ - الولاية التكوينية: وقد صرَّح بثبوتها القرآن الكريم لبعض أنبيائه وأصفيائه، كما في عيسىٰ عليه السلام وإحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه والأبرص، وكما في آصف بن برخيا وصي سليمان عليه السلام حيث قالت الآية المباركة: ﴿... قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠)، وقد ورد في الرواية عن سدير قال: دخلت أنا وأبو بصير وميسر علىٰ الإمام الصادق عليه السلام، وقلنا له: جُعلنا فداك... نحن نعلم أنَّك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلىٰ علم الغيب، فقال عليه السلام: «يَا سَدِيرُ، أَلَمْ تَقْرَأِ الْقُرْآنَ»؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «فَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا قَرَأْتَ مِنْ كِتَابِ الله عزوجل: ﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾»؟ قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَدْ قَرَأْتُه، قَالَ: «فَهَلْ عَرَفْتَ الرَّجُلَ وهَلْ عَلِمْتَ مَا كَانَ عِنْدَه مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ»؟ قَالَ: قُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِه، قَالَ: «قَدْرُ قَطْرَةٍ مِنَ المَاءِ فِي الْبَحْرِ الأَخْضَرِ، فَمَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ»، قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، مَا أَقَلَّ هَذَا، فَقَالَ: «يَا سَدِيرُ، مَا أَكْثَرَ هَذَا أَنْ يَنْسُبَه الله عزوجل إِلَىٰ الْعِلْمِ الَّذِي أُخْبِرُكَ بِه، يَا سَدِيرُ، فَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا قَرَأْتَ مِنْ كِتَابِ الله عزوجل أَيْضاً: ﴿قُلْ كَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ [الرعد: ٤٣]»؟ قَالَ: قُلْتُ: قَدْ قَرَأْتُه جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَالَ: «أَفَمَنْ عِنْدَه عِلْمُ الْكِتَابِ كُلُّه أَفْهَمُ أَمْ مَنْ عِنْدَه عِلْمُ الْكِتَابِ بَعْضُه»؟ قُلْتُ: لَا، بَلْ مَنْ عِنْدَه عِلْمُ الْكِتَابِ كُلُّه، قَالَ: فَأَوْمَأَ بِيَدِه إِلَىٰ صَدْرِه وقَالَ: «عِلْمُ الْكِتَابِ والله كُلُّه عِنْدَنَا، عِلْمُ الْكِتَابِ والله كُلُّه عِنْدَنَا»[1].

٤ - واسطة الفيض.

---

(١) الكافي - الكليني: ج١، ص٢٥٧.

٥ - خلافة النبي محمد صلى الله عليه وآله: لا تخفىٰ الحاجة إلىٰ استمرار الخلافة الإلهية علىٰ عباده لصلاح أمرهم في بقاء دينه، ولذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ...﴾ (المائدة: ٦٧)، إشارة واضحة إلىٰ حاجة الرسالة إلىٰ تتمة لتستمر ثمرة النبوة وإلَّا ﴿فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾ انعدمت قيمة التبليغ وآثاره.

ولذلك عندما تم التنصيب الإلهي لخليفة النبي صلى الله عليه وآله جاء قوله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣)، معبراً عن قيمة تلك الخلافة إذ فيها كمال الدين وبلوغ الإسلام رضا الإله في تمثيل إرادته.

ولا شكَّ أنَّ خلافة أمير المؤمنين عليه السلام هي عين خلافة الإمام المنتظر عجل الله فرجه فجميعهم حقيقة واحدة، وعن النبي صلى الله عليه وآله في حديث المعراج: «يا محمد، إنِّي خلقت علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من نور واحد...»[١].

وعن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له لِـمَ سُمِّيت فاطمة؟ فقال: «لأنَّ الله خلقها من نور عظمته، فلما أشرقت أضاءت السماوات والأرض بنورها وغشيت أبصار الملائكة وخرت الملائكة لله ساجدين وقالوا: إلهنا وسيدنا ما هذا النور؟ فأوحىٰ الله إليهم هذا نور من نوري أسكنته في سمائي وخلقته من عظمتي أخرجه من صلب نبي من أنبيائي أفضله علىٰ جميع الأنبياء، وأُخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمري ويهدون إلىٰ حقي وأجعلهم خلفائي في أرضي بعد انقضاء وحيي»[٢].

---

(١) الغيبة للنعماني: ص٩٥.

(٢) علل الشرائع للصدوق: ج١، ص١٨٠.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «علمنا واحد، وفضلنا واحد، ونحن شيء واحد»[١].

وينبغي الإشارة إلىٰ أنَّ المنهج الذي اتَّخذته الشيعة في تفسير القرآن يختلف عن المنهج الذي اتَّخذه أبناء العامة مما أوجب اختلافاً في النتائج، فالشيعة ترىٰ حجية أقوال النبي صلى الله عليه وآله وأقوال الأئمة عليهم السلام في تفسير القرآن وذلك بمقتضىٰ حديث الثقلين الثابت بالتواتر.

وبعد البيان المتقدِّم نستشف أنَّ ما أثبتته الشيعة للإمام المهدي عجل الله فرجه وما أسَّسته من منظومة فكرية لم يكن نتاج وهمها وشهواتها، بل هو فرض ألزمتهم به السماء.

ثانياً: المقياس الموضوعي للغو:

يعتمد وصف الغلو علىٰ مقياس معيَّن ليحدِّد موصوفه، فما هو ذلك المقياس الذي أُسِّست للفكرة المهدوية؟

إنَّ الاحتمالات المتصوّرة فيه أربعة فقط:

أ - **العرف وطبيعة الأشياء**: فهل العرف مانع من تحقُّق تلك المقامات للإمام المهدي عجل الله فرجه؟

ب - **منزلة الصحابة**: فهل ما عليه الصحابة من المنزلة مانع من تحقُّق منزلة أكبر للإمام عليه السلام؟

ج - **فهم المخالفين**: فهل ما يفهمه المخالف من الكتاب والسُنَّة لخصائص الإمام عليه السلام يتنافىٰ مع ما تفهمه الشيعة من تلك الخصائص له عليه السلام؟

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٦، ص٣١٧، ح٨٢، باب تفضيلهم علىٰ الأنبياء.

د – **الكتاب والسُنَّة**: فهل الكتاب والسُنَّة منع تلك المقامات للإمام عليه السلام؟

إذن هل هذه الموارد الأربعة منعت من تلك المقامات والخصائص ليكون الإيمان بها مغالاةً وفساداً عقدياً منهياً عنه؟

وجوابه: أمّا الأوَّل فيمنعه العُرف اللاديني الذي يستبعد الخصائص التي يمنحها الدين ويعتبرها نحو من الأسطورة والمبالغة الغير متعلقة.

وأمّا الثاني فيصح فيما لو تم إثبات (قرآني أو سُنَّتي) منزلة للصحابة لا تكون لغيرهم وأنَّ الغلو هو نسبة نقيض ذلك لغيرهم.

وأمّا الثالث إن قيل إنَّه متحقّق بفهم مصداقي مغاير للفهم الشيعي استناداً إلىٰ آية ﴿وَالسَّابِقُونَ...﴾ وحديث: «... خير القرون قرني» وهو فهم مثبت لمنزلة الصحابة، قلنا: إنَّ دعوىٰ حقانية الفهم إنَّما يُحتكم بها إلىٰ الدليل وكيف أنَّه مثبت لغو الفهم المقابل.

وأمّا الرابع فهو الأساس الصحيح في المقياس وقد أثبتنا فيما سبق دلالتهما علىٰ مفارقة المعتقد الإمامي للغلو، بل إنَّهما يدعمان الفكرة المهدوية وأنَّها مترشِّحة منهما.

٥ – الإمامة المهدوية أصل للدين فلا مغالاة:

إنَّ المعنىٰ المقصود من كون الإمامة أصل ذكر فيه ثلاث معانٍ:

أ – أي أنَّها أصل مذهبي ومن لم يعتقد فليس إمامياً.

ب – الإمامة أصل للدين بإقرار فرق الإسلام، وذلك من حيث إنَّ الإمامة تماثل النبوة في أهدافها وهو إقامة العدل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، ولم يختلف

المسلمون علىٰ هدف البعثة فكذلك هم في هدف وجود الإمامة، نعم إنَّما الخلاف في مصداق الإمام وذلك غير الإمامة.

ج - الدين واقعي وظاهري، والأوَّل ما يرتبط بعالم الجزاء والآخرة والاعتقاد بالإمامة عنصر مؤثر في ذلك (سلباً وإيجاباً)، أمّا الثاني فمرتبط بعالم الدنيا وليس الاعتقاد بها تأثير عليه.

الدليل علىٰ كون الإمامة أصل:

وقد تتمخَّض النتيجة من خلال فهم المعنىٰ المقصود في الإمامة، ولهذا وقع خلاف بين أبناء العامة والإمامية في المفهوم الاصطلاحي للإمامة نظراً للوظائف المترقبة منها وتعتقد الشيعة أنَّها تخلف النبي صلى الله عليه وآله في وظائفه ومهمّاته ما خلا الوحي من حيث (الرئاسة العامة والمرجعية الدينية والولاية) ويترشَّح علىٰ ذلك ضرورة التنصيب لشخص الإمام ويستحيل في حقِّه التعيين والانتخاب.

وقد عرَّفها الشيعة: (رئاسة عامة إلهية لشخص من الأشخاص خلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في أمور الدين والدنيا، ويجب اتِّباعه علىٰ جميع الأُمَّة)[1].

إذن الإمامة عقيدة يتعيَّن الارتباط بها، وليست قضية فرعية مرتبطة بعمل الولاة.

ويعرِّف الطباطبائي الأصول بأنَّها التعاليم الإسلامية العقدية مقابل الأحكام العملية.

١ - قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (المائدة: ٥٥).

---

(١) الإلهيات: ج٤، ص٨، الفصل٧.

٢ - قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ (النساء: ٥٩).

٣ - قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧).

٤ - قول النبي صلى الله عليه وآله: «... من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[١].

٥ - قول الإمام الباقر عليه السلام: «بني الإسلام علىٰ خمس: علىٰ الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم ينادىٰ بشيء كما نودي بالولاية»[٢].

٣ - اتِّهام قضية الإمام عليه السلام بأنَّها خرافة:

١ - **تقرير الشبهة:** يَتحامَل لسان شبهة الخرافة بشدة علىٰ العقيدة المهدوية، وعلىٰ الكثير من مفاصلها التأسيسية لأطروحتها بنحو الوحدة الموضوعية، وبالبيان التالي:

إنَّ ما ذهبت إليه الفكرة المهدوية لا يبلغ حدّ التصور! إذ كيف يسوّغ العلم للإنسان بلوغ هذا العمر الطويل ثم يظهر قوي الجسم والبأس؟ شكلاً يبدو عليه ذو الأربعين عاماً! لينطلق في إصلاح المجتمع البشري، قائماً بالقسط! والمفروض أنَّ إصلاح الأُمَّة لا يكون إلَّا بجهود مضنية وبعد سنوات طوال وليس بين يوم وليلة!

لا شكَّ أنَّها صناعة الوهم والخرافة لضغط الأماني والحاجة إلىٰ المصلح والمنقذ!

---

(١) أصول الكافي: باب من مات ولم يعرف إمام زمانه، ح٣، ج١، ص٣٧٤.
(٢) الكافي: ج٢، ص١٩، ح٥، باب دعائم الإسلام.

ولذلك لم تسعف مداليل الروايات المستعان بها علىٰ تلك النتائج!

وأيضاً قد تكون حاجة في نفس يعقوب! إذ لا يمكن للفقيه فرض سيطرته الولايتية إلَّا بعد إثبات إمامٍ بهذه المواصفات ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦)، وعن النبي صلى الله عليه وآله يوم غدير خم: «... من كنت مولاه فهذا علي مولاه»، مما اضطر الفقيه إلىٰ اختلاق فكرة المهدوية والغيبة ليكون ولياً علىٰ نفوس وأموال المؤمنين.

ومن الواضح توجُّه الشبهة إلىٰ أكثر من جانب، وإليك تفصيل ممنهج في دفعها:

١ ـ معنىٰ الخرافة:

لغة: ما يُجنىٰ من الفواكه في الخريف (فتكون الفاكهة مقاربة للفساد) الحديث المستملح المكذوب.

اصطلاحاً: كل عقيدة تنشأ علىٰ التسامح والوهم وتفتقد المعايير العلمية، فيمتنع العقل عن تصديقها، وبالتالي لا تُطابق الواقع.

ويقول العلامة الطباطبائي فيها: (إنَّ الاعتقاد بالأشياء التي لم يتوصل العلم إلىٰ حقيقتها وماهيتها، ولم يثبت صحتها، ولم يُعرف أخيرٌ هي أم شر، خرافة محضة).

مناشئ التأسيس للخرافة:

١ - المنهج المعرفي الخاطئ: (بالتعقل السطحي والساذج وعدم المنهج العلمي البرهاني).

٢ – اختلال التوازن النفسي بين قدرة التعقل العلمي للأشياء والرغبة في التدين المُريح مما يفسح الاستسلام للوهم والخرافة المعنون بالدين لسهولة الانتماء وتفضيلهما علىٰ التعقُّل الديني العلمي والبرهاني للصعوبة.

٣ – طبيعة البيئة البدائية للمجتمع واللوازم المتعلّقة بها تفرض الاعتياد علىٰ تعطيل التفكير والتحليل العلمي والعقلي.

٤ – حبّ السلطة والسيطرة النفعية قد تستدعي نشر الخرافة والخيالات لبسط سلطان التحكُّم بمقدّرات الناس.

وما ذكرناه لا يصدق من أي جهة علىٰ مراحل تأسيس المنظومة المهدوية إذ إنَّها نشأت في أحضان الوحي الإلهي، وتناولتها فطاحل العقول النيرة ووعتها القلوب الطاهرة من أعلام المذهب لتتدارسها أروقة أهل المعرفة، بعيداً عن سلطان النفوذ والمال.

تحديد منافذ الشبهة:

تتميَّز المهدوية بواقعها الثبوتي (التكويني والاعتباري القانوني) وواقعها الإثباتي (الحاكوية والكشف المفهومي)، ولابدَّ من توضيح ذلك مقابل التشكيك في الواقعين معاً، من خلال المفاهيم التجزيئية لمقولة الشبهة، بالنحو التالي:

١ – العلم يرفض المهدوية.

٢ – فكرة الإمام الحي (بالأطروحة الإمامية) اخترعها الفقهاء لشرعنة تصرُّفاتهم الولايتية.

٣ – ضعف روايات الإمام المهدي عليه السلام وإليك تصنيف ذلك:

أ – عدم ذكر شخصية المهدي في القرآن الكريم رغم – دعوىٰ – كونها شخصية رفيعة المستوىٰ.

ب - إنَّ ما ورد من أحاديث عن الإمام المهدي عجل الله فرجه إنَّما ذكرها الإمامية بنحو المكاثرة، ولا كثرة حقيقية وراءها، وتوضيحه:

إنَّ أحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه علىٰ أقسام:

فطائفة من العلماء أنكروها مما يدل أنَّها قضية غير مسلَّم فيها، ومنها لم يأخذها مسلم والبخاري ولم يدخلها في كتبهما، وذلك لعدم ثباتها عندهم ومنها عبارة عن أحاديث متناقضة، فقسم منها يسميه باسم الرسول صلى الله عليه وآله وآخر يسمِّيه باسم عبد الله، وقسم يقول: إنَّه رجل يصلحه الله في ليلة، وآخر يقول: يخرج هارباً من المدينة إلىٰ مكة، وغير ذلك من المتناقضات وهو دليل علىٰ الوضع.

ثم إنَّ عادة العلماء المحدِّثين والفقهاء المتقدِّمين، أنَّ بعضهم ينقل عن بعض الحديث تقليداً للسابق عنه، وكان الشافعي يقول للإمام أحمد: إذا ثبت الحديث عندك فارفعه إليَّ حتَّىٰ أثبته في كتابي، وكذلك سائر علماء كلّ عصر، فإذا كان الأمر كذلك فلا عجب انتشار أحاديث المهدي في كتب المعاصرين لخروج الحديث من كتاب إلىٰ مئة كتاب، وانتقال الخطأ من عالم إلىٰ مئة عالم.

وقد أثبت بعض العلماء من أبناء العامة ضعفها السندي ووضعها المتني، وخرج بالنتيجة التالية:

- الأحاديث التي ذكر فيها المهدي (١٠ أحاديث) لم تبلغ درجة الاحتجاج.
- الأحاديث المرفوعة غير المصرَّحة بالمهدي لا يصح حملها علىٰ المهدي.
- الآثار الموقوفة علىٰ الصحابة المصرَّحة بالمهدي لم يصح منها شيء.

الدرس الثالث عشر

ملاحقات فكرية حول الظهور المهدوي

لا تَكِلُّ دقائق الأفهام عن رصد الظاهرة المهدوية من مختلف أبعادها، لتمتد مدارك العقل إلىٰ عمق المنظومة المهدوية، فيتم الوعي والإثبات لحديث الفكر الوحياني عنها، ولذلك تتوالىٰ استفهامات حول قضايا جوهرية في زواياها ومنها فكرة الظهور لتُبرَّز إثارات مهمة من قبيل:

القضية الأولىٰ: إذا كان ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه لا يتم إلَّا وفق شروط ومنها بلوغ المجتمع استعداداً لقبول الأطروحة الإلهية والخضوع لإرادة السماء!

فكيف تحثّ الروايات علىٰ ترقب الظهور بإيجابية رغم عزوف المجتمع عن التديُّن، وميله إلىٰ جهات غير دينية كالعلمانية والليبرالية؟

وبعبارة أخرىٰ: إذا كان الظهور معلولاً للعلَّة التامَّة، والتي تتألَّف من (وجود المقتضي – وهو الإمام المعصوم القادر علىٰ إقامة المشروع الإلهي – وتحقق الشرط – وهو كافة أسباب الظهور – ورفع المانع[1] وهو فساد المجتمع ونفوره الديني –)، فإذا كان أحد أجزاء العلة مفقوداً فكيف يتم الظهور المبارك المعلول إلىٰ علَّته؟!

---

(١) ملاحظة: إنَّ المانع هو شرطٌ ولكن بصفته العدمية، فيكون فساد المجتمع ونفوره الديني مانع وعدم الفساد والنفور الديني شرط، إذن تؤول الموانع إلىٰ شروط عدمية.

القضية الثانية: توجيه النص الديني نحو الأمل والانتظار وتوقُّع الظهور في أي وقتٍ، والتحذير من اليأس منه! فأيُّهما أقرب إلىٰ العقل (خصوصاً عند ملاحظة ملابسات القضية كطول الغيبة، وقوة الحكومات الظالمة) توقّع الظهور أو اليأس منه؟

القضية الثالثة: ما هي غاية الظهور؟ فهل دوره تهيئة أسباب السعادة الدنيوية باستقرار البشرية وأمنها المطلق والظرف العادل، ثم يرتحل عنه بالموت الذي يلاحق كل حي أو هناك غاية أخرىٰ؟ إنَّ المحتملات المتصوّرة هاهنا ثلاثة:

أ - حاكمية المجتمع عقب حكومة الإمام لنفسه بعد بلوغه العصمة، فيكون مقتدراً علىٰ إكمال حكم الله في الأرض والحفاظ علىٰ مكاسب الظهور المبارك.

ب - حاكمية الأئمة المعصومين عليهم السلام وفق عقيدة الرجعة.

ج - بلوغ نهاية العالم بقيام يوم القيامة بمجرد أن يَفنىٰ قطب عالم الإمكان.

فيما يخص الاستفهامات السالفة يمكن تصوّر أجوبتها بالآتي:

جواب الأولىٰ:

أوَّلاً: بداية لابد من التفريق بين الشرط (بناءً علىٰ مرجع المانع إلىٰ شرط عدمي) والظرف، وأنَّ الشروط تمثِّل جزءاً للعلة فلا يمكن توقُّع الأثر من دونها لقانون العلية من عدم الاختلاف أو التخلُّف، فإنَّ قوانينها ثابتة لا يؤثّر فيها الزمان أو المكان، أمَّا الظرف فهو يعبّر عن الوسيلة أو الطبيعة التي تُصاغ فيها الأشياء، لذا فهي غير محكومة بسياق ثابت، وقابلة للتكيُّف والتغيُّر بحسب المؤثِّرات الفاعلة فيها.

وأنَّ الفساد والانحلال الاجتماعي وعناده وتمرُّده علىٰ الدين لا يمثل بالنسبة إلىٰ ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه إلَّا ظرفاً ودلالة علىٰ الطبيعة العامة التي تحكم زمان الظهور، ولذلك ليست هي جزء العلة حتَّىٰ يقال: إنَّ بفقدها كشرط - عدمي - يُفقِدنا إمكانية القول بالظهور المبارك، بل يمكن أن يتم الظهور ليكون معالِجاً ومغيّراً لظرفه الفاسد.

ثانياً: من المفاهيم الأساسية المرتبطة بالفكرة المهدوية المباركة هي أن يأتي ليصلح ما أفسده الناس ويكون مشروعه إصلاحياً، وهذا ما أشارت إليه الروايات المباركة، عن الحسن بن الحسين، عن تَليد، عن أبي الجحاف قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ابشروا بالمهدي - قالها ثلاثاً - يخرج علىٰ حين اختلاف من الناس وزلزال شديد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يملأ قلوب عباده عبادة ويسعهم عدله»[1]، إذن لم ترتبط فكرة الظهور بالوجدان الشيعي علىٰ أساس جاهزية المجتمع واستعداده المجموعي الظاهري العام للدين والتديُّن.

ثالثاً: **وجود النواة الإيمانية الكامنة** عند بعض من المجتمع يمكن أن يكون كافياً لإقامة المشروع الإلهي وبسط التوحيد، كما فصل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إذ بُعِثَ في مجتمع جاهلي، وَصَفَتْه السيدة الزهراء عليها السلام في خطبتها المعروفة:

«... وكنتم علىٰ شفا حفرةٍ من النار مُذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الأقدام، تشربون الطَرق... وتقتاتون القدَّ والورق، أذلة خاسئين...»[2].

---

(١) بحار الأنوار - المجلسي: ج٥١، ص٧٤.

(٢) كتاب سيد المرسلين - جعفر سبحاني: ج١، ص٩٥.

فكان يُخيَّم عليه الضعف والخضوع للشيطان والرذيلة والشرك بأوضح مصاديقه من عبادة الأصنام، ورغم ذلك استطاع نبي الإسلام أن يبعث فيه روح الإيمان والاستقامة، وسيكون كذلك الإمام الموعود عجل الله فرجه فإنَّ له دوراً إصلاحياً يُعالج فيه النفوس والأهواء، فليس المبنىٰ علىٰ إقامة الحجة إلَّا بعد استفراغ الجهد في الدعوة إلىٰ الهداية.

ويؤيِّد ذلك النهج القرآني في إمهال المخالفين والعاصين لاستتابتهم - ولا شكَّ في كونه عليه السلام ممثلاً لذلك المنهج الرباني - قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٩)، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

نعم، ليست مهلة التوبة ممتدة دون أجل، بل عَمِد القرآن الكريم إلىٰ تحذير مخالفيه من موعد إذا بلغه أحدهم فلن تبقىٰ له توبة، وذلك في موردين:

الأوَّل: عند نزول الموت: قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّىٰ إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ (النساء: ١٨).

الثاني: عند نزول العذاب: قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩٠-٩١).

وليست غاية التوبة هنا تحديدٌ لسعة رحمته تعالىٰ وعفوه ولطفه بالإنسان، وإنَّما هي كاشفٌ عن أن صدور التوبة بعد ذاك الحين ليس حقيقة صادقة، مما يعبّر عن سوء السريرة وخبث الذات[١].

ويوافق أيضاً روايات الأئمة عن جيش الإمام المهدي عجل الله فرجه ما قرَّره القرآن الكريم في حال العصاة وأهل الفساد.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «... لا يأتون علىٰ أهل دين إلَّا دعوهم إلىٰ الله عزوجل وإلىٰ الإسلام والإقرار بمحمد، والتوحيد، وولايتنا أهل البيت، فمن أجاب منهم ودخل في الإسلام تركوه...»[٢].

عن الإمام الباقر عليه السلام فيما يخطب به الإمام المهدي عجل الله فرجه بعد ظهوره: «... يا أيُّها الناس إنَّا نستنصر الله ممن أجابنا من الناس... فأنشدُ الله من سَمِعَ كلامي اليوم لمّا بلَّغ الشاهد منكم الغائب، وأسألكم بحق الله... إلَّا أعنتمونا ومنعتمونا ممن يَظلِمُنا...»[٣].

ثم إنَّ إغلاق باب التوبة وعدم استمرار فرصة الهداية علىٰ (من عاصر الظهور) يستدعي الظلم مع ملاحظة (من يعاصر الإمام بعد الظهور) وينعم بهدايته ووجوده المبارك لكل الأبعاد الحياتية وعرضاً لهداية عليهم مستمراً مع التوبة!!

---

(١) مركز الأبحاث العقائدية - الأسئلة والأجوبة - العنوان (المبالغة بالقول في قتله للأعداء).

(٢) مختصر بصائر الدرجات لحسن بن سليمان الحلي: ص١١.

(٣) الغيبة للنعماني: ص٢٩٠، باب ١٤، ح٦٧.

فلماذا هذا التمييز بين الفئتين والأنسب إعذار الفريق الأوَّل بعد أن حُرِموا من معاصرة الإمام الحجة عجل الله فرجه والتنعُّم بهدايته، واستولت عليهم أمواج الفتن وأظلَّتهم الجهات والمدارس الفكرية المختلفة!!

ولذلك فإنَّ عدالة الإمام عليه السلام تقتضي عدم الاختصاص بفئة دون غيرها، بل هي عامة شاملة، ومن مصاديق العدل سعة فضاء التوبة، وتمديد حوار الفكر والمحاججة حتَّىٰ إتمام الحجة.

رابعاً: تستبطن كل عملية تغيير التدرُّج:

ولذلك لا يعني قبول المجتمع بالمشروع المهدوي دفعة واحدة حتَّىٰ يُفترض قاعدة جماهيرية عريضة من الهداة المهديين! فهو مشروع رباني إصلاحي يبدأ اعتماداً علىٰ القوة الإلهية التي يملكها الإمام عليه السلام ومن ثم بالتربية والتعليم والتدريج يفرض نفسه علىٰ الجميع.

إذن الظهور بداية لإعادة تشكيل المجتمع وليس ظرفاً لاستقبال مجتمعٍ متكاملٍ منذ اللحظة الأولىٰ.

خامساً: الجانب الإلهي في المشروع المهدوي:

حيث يعتمد عليه الإمام عليه السلام ليدعم التدخُّل الإلهي المباشر الحق كما دعم مشروع ظهور الإسلام المبارك، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٩-١٠).

إذن لا يعتبر المشروع من السنخ البشري البحت حتَّىٰ يعتمد كلياً علىٰ الظروف الطبيعية حتَّىٰ يُفترض الصلاح الجزئي ليُعتمد عليه في إقامة مشروع السماء.

أمَّا جواب الثاني: ونشرع فيه بمقدمة:

قال تعالىٰ: ﴿يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

وقال تعالىٰ: ﴿قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ ۝ قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٥-٥٦).

إلخ من النصوص الدينية (القرآنية والروائية) التي حفل بها الموروث للتحشيد لثقافة الأمل والتفاؤل وهي ثقافةٌ قرآنية دينية، غايتها تربية إنسان إيجابي علىٰ الدوام.

والثقافة تعبّر عن ظاهرة مؤثِّرة، واهتمَّ بها علماء الاجتماع وعرّفوها بأنحاء، وقد يكون أشملها.

تعريف العالِم الانثروبولوجي البريطاني (ادوارد تايلور) بقوله: (إنَّها الكل المركَّب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان...)، وقد ذُكر أنَّ لعلماء النفس تقريراً في التأثير المستحكم للثقافة علىٰ الإنسان (فهي تصنع سلوكيات مؤثّرة في التنظيمات التفاعلية في الدماغ).

ومن هنا يمكننا أن نفهم الحرص الديني علىٰ تأسيس ثقافة باتِّجاه الأمل والتحذير من اليأس والإحباط، سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار كونها ثقافة

معصومة عن الخطأ مما يدفَعُ إلىٰ التلبّس بها واستطلاع تمظهراتها، وهل لاحظ الدين الأمل بنحو ظرفٍ خاص كما لو كانت بوادر السعة والانفراج واضحة وقريبة، أو بنحوه المطلق كما في قضية الظهور المهدوي الذي مضىٰ علىٰ غيبته ما يقارب (١٢٠٠ عام)؟

ومن خلال قراءة الروايات في شأن الحث علىٰ الانتظار للظهور المبارك (والذي هو عبارة أخرىٰ عن الأمل والتفاعل الإيجابي مع الظرف) كاشف علىٰ الإرادة المطلقة في ترسيخ ظاهرة التفاؤل والأمل مما يُنتج الترقُّب والتوقُّع المستمرين للظهور المبارك.

وإليك بعضٍ من تلك النصوص التعبوية للإيجابية:

١ – ما ورد في الزيارة الجامعة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام: «أُشهد الله وأُشهدكم أنَّي... مؤمن بإيابكم، مصدِّق برجعتكم، منتظرٌ لأمركم، مرتقبٌ لدولتكم»[١].

٢ – عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ من انتظر أمرنا وصبر علىٰ ما يرىٰ من الأذىٰ والخوف، هو غداً في زمرتنا»[٢].

٣ – وعنه عليه السلام: «من مات منتظراً لهذا الأمر كان كمن كان مع القائم في فسطاطه، لا بل كان كالضارب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله»[٣].

---

(١) التهذيب: ج٦، ص٩٨، ح١٧٧.
(٢) الكافي: ج٨، ص٣٧، ح٧، عن حمران.
(٣) كمال الدين: ص٣٣٨، ح١١، عن المفضل بن عمر.

٤ – عن أمير المؤمنين عليه السلام عندما سُئِلَ: أي الأعمال أحبُّ إلىٰ الله عزوجل؟ قال: «انتظار الفرج»[١].

٥ – عن الإمام الباقر عليه السلام: «... واعلموا أنَّ المنتظر لهذا الأمر له مثل أجر الصائم القائم...»[٢].

ومن ذلك يتجلَّىٰ الذوق الديني في انتخاب الصفة الإيجابية للمؤمن وتثقيفه علىٰ التلبُّس بها، بغض النظر عن ظروف متعلِّق الأمل والرجاء، وبذلك يتأكَّد النحو الذي يسلكه الفكر الديني باتِّجاه القضايا التي يتعايش معها الفرد، ولا يسعُ العقل والحال هذه انتهاج ما يخالف هذه الرؤية إذا كان مؤمناً بحكمة وعصمة صاحب الشريعة (سبحانه وتعالىٰ) ومن أوكلهم عنه من النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، نعم يمكن تلمُّس مبادئ أخرىٰ لتؤكِّد للعقل ما قرَّره الشرع من ضرورة الأمل المستمر بالظهور وإبعاد شبح اليأس عنه، ووثوقه بعقلائية الأمل ومنطقيته.

وإليك ذلك:

١ – إذا كانت القدرة الإلهية متساوية النسبة إلىٰ الجميع – كما قرَّره الدليل في محلِّه – فلا مجال لاحتمال العجز علىٰ الظهور المهدوي، لأنَّه موكول إلىٰ إرادته سبحانه والقدرة التي لا يعجزها ولا يحدّها شيء.

٢ – أثبتت التجربة والتاريخ علىٰ وقوع الأمر الإلهي وإن أحاطت به الموانع بدواً، كما في إنزال العذاب الإلهي علىٰ الطغاة والأقوام المعاندين للأنبياء عليهم السلام،

---

(١) الفقيه: ج٤، ص٣٨٣، ح٥٨٣٣، عن عبد الله بن بكر المرادي عن الإمام موسىٰ بن جعفر.

(٢) الكافي: ج٣، ص٣٣٣، ح٤، عن عبد الله بن بكير عن رجل.

كما في هلاك قوم نوح عليه السلام وقوم لوط عليه السلام وقوم هود عليه السلام، وثمود عليه السلام وشعيب عليه السلام وغيرهم.

فرغم الصبر الإلهي والإمهال الطويل كما عبَّر القرآن الكريم عن دعوة نوح عليه السلام التي استمرت ٩٥٠ عام، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤)، ولكن القضاء الإلهي عندما يحين يعبِّر عنه القرآن الكريم: ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠).

وروي عن الإمام الحجة عجل الله فرجه فيما ورد عنه إلىٰ الشيخ المفيد: «فليعمل كلّ امرئ منكم بما يقرُب به من محبَّتنا، وليتجنَّب ما يدنيه من كراهتنا وسخطنا فإنَّ أمرنا بغتة فجأة...».

وكما في بناء سفينة نوح عليه السلام التي استغرقت وفق بعض المرويات (٣٠ سنة)، وثمَّ تشييدها علىٰ اليابسة في ملابسات غير طبيعية ولا يتعقَّلها عقل أو منطق، ولذلك كانت محط سخرية وتهكُّم قومه، قال عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ﴾ (هود: ٣٦-٣٨).

أو محرقة إبراهيم عليه السلام التي قُذِف إليها بالمنجنيق لسعة وعظمة لهيبها الذي لا يمكن إيصال الهدف إليها إلَّا بحيلة، مخافة التهامها الخطير، قال عز وجل: ﴿قالُوا

حَرِّقُوهُ وَانْصُـرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلىٰ إِبْراهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَـرِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨-٧٠).

حيث لا يتوقَّف إبرام الأمر الإلهي علىٰ السُنن الطبيعية، كيف ذاك وهو ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢)، فكيف يستبعد العقل والحال هذه الظهور المهدوي، ويتمسَّك باليأس منه، لكونه أكثر دلالة وحجّة!!

٣ - التفسير العلمي والفلسفي والكلامي لكلِّ ما يُحتمل كونه مانعاً من تعقُّل الظهور، كما في غيبة الإمام عجل الله فرجه منذ مئات السنين، وما يستدعي ذلك أيضاً طول عمره الشريف، فيلزم استهجان بقاء حياته بعد كلّ تلك السنون، وبإزالة الغموض أو التوهُّمات في استحالة الوقائع الآنفة يتَّضح عدم العلاقة بين اليأس والعقل والمنطق، وإنَّما هي مشاكل نفسية وشبهات فكرية.

* * *

الدرس الرابع عشر

ملاحقات فكرية حول الظهور المهدوي

وأمَّا الاستفهام الثالث فكان حاصله:

ما هي غاية الظهور؟ فهل دوره تهيئة أسباب السعادة الدنيوية باستقرار البشرية وأمنها المطلق والظرف العادل، ثم يرتحل عنه بالموت الذي يلاحق كلّ حي أو هناك غاية أخرىٰ؟

إنَّ المحتملات المتصوّرة هاهنا ثلاثة:

أ - حاكمية المجتمع عقب حكومة الإمام لنفسه بعد بلوغه العصمة، فيكون مقتدراً علىٰ إكمال حكم الله في الأرض والحفاظ علىٰ مكاسب الظهور المبارك.

ب - حاكمية الأئمة المعصومين عليهم السلام وفق عقيدة الرجعة.

ج - بلوغ نهاية العالم بقيام يوم القيامة بمجرد أن يَفنىٰ قطب عالم الإمكان.

في مقام الجواب نقول:

ذكرنا سابقاً[1] ببلوغ نهاية التاريخ الاستقرار العالمي والانضباط والأمن والأمان، من خلال الإمام المهدي عجل الله فرجه (وفق عقيدتنا) وهو المصلح الذي تبلغ به

---

(١) الدرس الثالث من هذه السلسلة.

البشرية الكمال المترقَّب لها، وفيما نحن بصدده هاهنا، هو البيان التفصيلي لتلك النتائج المجملة والتي قرَّرنا مقدِّماتها التصورية أيضاً فيما سبق[1]، ليبقىٰ تشخيص تلك الغاية من خلال الاستفهامات الفرعية للقضية المطروقة هنا وبالتسلسل التالي:

أ ـ الاحتمال الأوَّل: أنَّ غاية الظهور حاكمية المجتمع:

فهل أنَّ غاية ظهور الإمام عجل الله فرجه هو تهيئة المقدِّمات والأسباب الموجبة لوصول المجتمع إلىٰ كماله والعصمة، وبالتالي يصير مؤهَّلاً إلىٰ الانفكاك والاستغناء عن قيادة الإمام المعصوم عليه السلام فيحكم نفسه بنفسه؟ وهذه نظرية (المجتمع المعصوم).

لقد تبنَّىٰ البعض (فكرة المجتمع المعصوم) المترشّحة من حكومة الأولياء الصالحين، وبالبيان التالي:

(... أخرج في البحار نقلاً عن غيبة الشيخ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الليلة التي كانت فيها وفاته لعلي عليه السلام: يا أبا الحسن، أحضر صحيفة ودواة، فأملىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وصيَّته حتَّىٰ انتهىٰ [إلىٰ] هذا الموضع فقال: يا علي إنَّه سيكون بعدي اثنا عشر إماماً ومن بعدهم اثنا عشر مهدياً، فأنت يا علي أوَّل الاثني عشر الإمام، وساق الحديث إلىٰ أن قال: وليسلِّمها الحسن- يعني الإمام العسكري عليه السلام- إلىٰ ابنه م ح م د المستحفظ من آل محمد (صلىٰ الله عليه وعليهم)، فذلك اثنا عشر إماماً، ثم

---

(١) درس عدالة الحكومة المهدوية واقع أم خيال (الجهة الثالثة منه)، وهذا الدرس (في جواب القضية الأولىٰ).

يكون من بعده اثنا عشر مهدياً، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلىٰ ابنه أوَّل المهديين له ثلاثة أسامي، اسم كاسمي واسم أبي وهو عبد الله وأحمد والاسم الثالث المهدي وهو أوَّل المؤمنين»[1].

وسيكون بعد موت الإمام عليه السلام أولياء يمثِّلون دور الحجج يعملون بنظامه عليه السلام إلىٰ نهاية البشرية، وهو ما يراد من قوله: «إنَّه ليس بعد دولة المهدي عليه السلام دولة»، أي منظومة الحكومة المهدوية ستبقىٰ حاكمة ونافذة عالمياً.

وكذلك فإنَّ أخبار الأولياء قابلة للإثبات، ومنه نقول:

إنَّ إحدىٰ الوظائف الرئيسية للإمام المهدي عجل الله فرجه بعد ظهوره هو تأسيس القواعد العامة المركزة والبعيدة الأمد لتربية البشرية في الخط الطويل، تربية تدريجية لكي تصل إلىٰ المجتمع المعصوم، وهذه التربية لن يأخذ بزمامها إلَّا الإنسان الصالح حين يصبح رئيساً للدولة، ومثل هذا الرجل لا يعرفه إلَّا الإمام المهدي عجل الله فرجه، ولذلك سيقوم بتعيينه كولي عهد خلال حياته - رُبَّما في العام الأخير من عمره الشريف - ليكون بعد ذلك هو الرئيس الأعلىٰ للدولة العالمية العادلة بعده والحاكم الأوَّل لفترة حكم (الأولياء الصالحين).

يرجع ذلك إلىٰ أنَّ البشرية كلّها، مهما كانت قد سار بخطوات نحو التكامل، إلَّا أنَّه لم يصل إلىٰ درجة العصمة، وبقيت هنا وهناك في أطراف العالَم مجتمعات متخلِّفة عن الركب، وسيكون حكم الأولياء الصالحين فترة تمهيدية أو انتقالية يوصل المجتمع العالمي إلىٰ عصر العصمة، حيث يكون الرأي العام المتَّفق

(١) وهناك روايات أُخر شبيهة لما اخترناه من بين ما ذكره صاحب النظرية.

معصوماً، وستوكل الرئاسة إلىٰ الانتخاب أو الشورىٰ، حيث يكون الأفراد كلّهم من ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورىٰ: ٣٦-٣٧)، وستوضح الشورىٰ موضع التنفيذ، وببدء الشورىٰ يكون عصر حكم الأولياء الصالحين قد انتهىٰ، ولكن الحكّام الجدُد المنتخبين سيكونون أولياء صالحين أيضاً، فالحاكم المنتخب سيكون في ضمن مجتمع رأيه العام معصوماً (بالعصمة غير الواجبة)[1].

ولكن لا يسعنا قبول تلك النظرية لأسباب أهمّها:

١ - لم تحدِّد النظرية نقطة بلوغ البشرية لتمثِّل مسار الغاية، فإنَّ فرض البقاء إلىٰ ما شاء الله بنحو مُبهم (وكأنَّ الهدف هو البقاء أطول فترة ممكنة بعد الظهور تفويضاً عن الفترة القاسية الطويلة التي مرَّت بها البشرية فيما قبل الفرج بالظهور) منافٍ للحكمة الإلهية، ولا يناسب فرض الغاية للخلق التي يُعيَّن واقعها الانتهاء بمجرَّد البلوغ.

٢ - فرض النظرية تحقيق غرض الخلقة (كمال المجتمع وعصمته) علىٰ يد غير المعصوم وهو الأدنىٰ، فكيف يتقدَّم الأدنىٰ علىٰ الأشرف في إصابة شرافة الغاية، وهل أنَّ الأدنىٰ قادرٌ علىٰ تحقيق الأشرف؟

٣ - استناد النظرية علىٰ جملة من الروايات الضعيفة الساقطة عن الاعتبار، من قبيل ما أوردناه عنها في التقرير برواية (أول المهديين).

---

(١) ملخص ما ذُكر في (كتاب تاريخ ما بعد الظهور للسيد محمد الصدر القسم الثالث: العالم بعد المهدي).

حيث يرد عليها:

أ - ضعف[١] السند لاعتمادها علىٰ مجاهيل، وهم:

(علي بن سنان الموصلي العدل، علي بن الحسين، أحمد بن محمد بن الخليل، جعفر بن أحمد المصري، عمّه الحسن بن علي، عن أبيه).

ب - عدم اتِّفاق مضمون الرواية (اثنا عشر مهدياً) مع الروايات المتواترة، نعم ورد هذا المضمون في روايات آحاد وهي لا تعتمد عليها عقيدة.

ج - تخلخل معنىٰ الرواية وعدم استقامته، حيث افترضت كون القائل هو النبي صلى الله عليه وآله ويقول: «علي أوَّل المهديين»: (له ثلاثة أسامي: اسم كاسمي واسم أبي) فيكون اسم أول مهدي (محمد بن عبد الله) والمفروض أنَّه ابن الإمام المهدي عليه السلام فكيف يكون ابن عبد الله!!

٤ - تعارضها مع مضمون روايات الرجعة[٢] البالغة الشهرة والتواتر.

٥ - لم تبيِّن النظرية علَّة عجز الإمام المهدي عجل الله فرجه عن إبلاغ أطروحته لكلِّ أجزاء المعمورة والتأثير التام فيهم، وبخلافه قدرة الأئمة المهديين من بعده؟ فلماذا اقتصرت عوامل القوة والقدرة عليهم دونه عجل الله فرجه؟!

ب - الاحتمال الثاني: أنَّ غاية الظهور حاكمية الأئمة المعصومين وفق عقيدة الرجعة في نفس السياق السابق من الاستفهام عن غاية الظهور المبارك،

---

(١) ورد سند الرواية الذي أورده الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة: (أخبرنا جماعة عن أبي عبد الله الحسين بن علي بن سفيان البزوفري، عن علي بن سنان الموصلي العدل، عن علي بن الحسين، عن أحمد بن محمد بن الخليل، عن جعفر بن أحمد المصري، عن عمه الحسن بن علي، عن أبيه، عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه الباقر...).

(٢) ورد مجموعة من الإشكالات عليها وسنتعرَّض لردّها في القادم من البحث.

وهل كونه شاملٌ لتهيئة مقدمات دولة العدل فقط، ثم يكمل ما ابتدأه عليه السلام غيره من الأئمة المعصومين عليهم السلام - بعد تضعيف فرض النظرية السابقة - أو أنَّه يُشرع في تأسيس دولته العادلة فعلاً ويحفظ ديمومتها بقية المعصومين عليهم السلام باعتبار انحصار الخلود بواجب الوجود عز وجل وغيره خاضع للسُنَّة الإلهية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨).

جاءت عقيدة الرجعة لتقدِّم أيديولوجية تعالج متعلّقات الظهور المبارك، وترسم مشخصات معيَّنة لغايته، وإليك تفاصيل ذلك:

تعتقد الشيعة بتحقُّق رجعة البعض إلىٰ الحياة الدنيا بعد موتهم، قال الشيخ المفيد: اتَّفقت الإمامية علىٰ وجوب الرجعة لكثير من الأموات إلىٰ الدنيا قبل يوم القيامة، وإن كان بينهم في معنىٰ الرجعة اختلاف[1].

ليكون ذلك معاصراً للظهور المبارك علىٰ اختلافٍ في توقيته الفعلي، فقد ذهب بعض إلىٰ كونه حاصلاً قبل الظهور بأشهُر، حيث يرجع البعض - ممن محض الإيمان أو محض الكفر- ليكون ذلك موطِّئاً للظهور المبارك ومؤيِّداً له، روىٰ القمي في حديث صحيح لعبد الله بن سنان، قال علي بن إبراهيم: حدَّثني أبي عن عبد الله بن المغيرة الخزاز (الجزار) عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا سألتم الله فاسألوه الوسيلة، فسألنا النبي صلى الله عليه وآله عن الوسيلة...، قال: فيخلق الله خلقاً يومئذٍ يملأ بهم الجنة»، قال أبو عبد الله عليه السلام: «طوبىٰ لهم إنَّهم لم يرو غموم الدنيا وهمومها... ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١]»، قال: «ينادي المنادي باسم القائم واسم

(١) أوائل المقالات.

أبيه، قوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، قال: صيحة القائم من السماء ذلك يوم الخروج، قال: هي الرجعة»[١].

وقد فسَّروا هذه الرواية بقولهم: (بحسب هذا البيان للآية تطابق يوم الصيحة السماوية للظهور من يوم خروج الأموات من القبور راجعين إلىٰ الدنيا أي بدء وقوع الرجعة).

وروىٰ الشيخ المفيد في الإرشاد عن الإمام الصادق عليه السلام: «وإذا آن قيامه مطر الناس جمادي الآخرة وعشرة أيَّام من رجب مطراً لم يرَ الخلائق مثله، فينبت الله به لحوم المؤمنين وأبدانهم في قبورهم، فكأنِّي أنظر إليهم مقبلين من قبل جهينة ينفضون شعورهم من التراب»[٢]، واستدلوا بهذه الرواية وأمثالها أنَّ زمن الظهور واقع بعد الرجعة، لوجود توقيتات لظهوره المبارك في زمن متأخِّر عن (جمادي ورجب) كما في رواية:

الفضل بن شاذان عن محمد بن علي الكوفي، عن وهيب بن حفص، عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «... ينادي باسم القائم عليه السلام في ليلة ثلاث وعشرين، ويقوم في يوم عاشوراء، وهو اليوم الذي قُتِل فيه الحسين بن علي عليهما السلام»[٣].

ولكن ذهب آخرون إلىٰ تحققها بعد الظهور المبارك من خلال دلالة روايات أخرىٰ: سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن الرجعة أحقٌّ هي؟ قال: «نعم»، فقيل له:

---

(١) المصدر: تفسير القمي – علي بن إبراهيم القمي: ج٢، ص٣٢٧.
(٢) الإرشاد للشيخ المفيد: ج٢، ص٣٨١.
(٣) الإرشاد للشيخ المفيد: ج٢، ص٣٧٩.

من أوَّل من يخرج؟ قال: «الحسين عليه السلام يخرج علىٰ أثر القائم عليه السلام»، قلت: ومعه الناس؟ قال: «لا، بل كما ذكر الله تعالىٰ في كتابه ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً﴾ [النبأ: ١٨] قوم بعد قوم»[١].

وعنه عليه السلام: «ويقبل الحسين عليه السلام في أصحابه الذين قتلوا معه... فيدفع إليه القائم عليه السلام الخاتم فيكون الحسين عليه السلام هو الذي يلي غسله وكفنه وحنوطه ويواريه في حفرته»[٢].

وعن جابر الجعفي، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «والله ليملكنَّ منَّا أهل البيت رجلٌ بعد موته ثلاثمائة سنة، ويزداد تسعاً»، قلت: متىٰ يكون ذلك؟ قال: «بعد القائم عليه السلام»، قلت: وكم يقوم القائم في عالمه؟ قال: «تسعة عشر سنة»[٣].

ويمكن أن يُجمع بين الروايات برجوع بعض الأموات من غير المعصومين عليهم السلام قبل الظهور ومن ثم بعد قيام المهدي عجل الله فرجه يرجع بعض المعصومين أو كلّهم بحسب اختلاف الروايات في ذلك.

ثم إنَّه عجل الله فرجه سيكون له أمدٌ محدود في حكمه ويليه الأئمة المعصومين عليهم السلام لاستمرار قيادة دولة العدل التي أرسىٰ قواعدها وشيَّد أركانها بعد أن هيّأ مقدّماتها حتَّىٰ أوصلها إلىٰ النتيجة المرجوة عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام والأولياء.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج٥٣، ص١٠٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

فلسفة الرجعة:

في التقدير الإلهي ليس بالضرورة اكتشاف ما بإزائه من مصلحة، فيمكن قبوله دون كشف الأسرار اعتماداً علىٰ حكمة الرب (سبحانه وتعالىٰ)، فكما توقَّفت الكثير من الأوامر التشريعية والتكوينية في خانة المجاهيل بالنسبة إلىٰ الإنسان، فلا مانع أن تكون قضية الرجعة من بين ذلك أيضاً، ولكن يمكن أن يُتوجَّس فيها بعض الاحتمالات المرتبطة بالقضية المهدوية، وذلك:

١ - دعم المشروع المهدوي من خلال تأييده بالخوارق حيث رجوع أموات لهم ثقلهم الاجتماعي، مما يخلق داعوية علىٰ الخضوع للقضية المهدوية.

٢ - إدامة الحكومة العادلة بعد فرض موت المعصوم عليه السلام ليأتي خليفةً له عليه السلام بنفس المواصفات والقيادة الربانية المعصومة، فإنَّ البشرية طال انتظارها واستضعافها وإذلالها واستنزاف طاقاتها مما يؤيِّد فكرة ضرورة بقاء الحكم العادل لإحداث تناسب بين العهدين، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلَّا بخيارين إمَّا خلود الإمام المهدي (وذلك محال) وإمَّا إرجاع المعصومين عليهم السلام لإمساك المعصوم بزمام المقدّرات البشرية (وذلك هو بالرجعة).

٣ - تحقيق غرض الخلقة لبعض الموجودات (وذلك ممن محضوا الإيمان أو الكفر محضاً ليكون ذلك مسوِّغاً لنيل منزلة الرجعة)، وهو تحقيق الكمال الإنساني اللائق بهم، وذلك لعدم اتِّساع آجالهم لذلك بسبب القتل الذي تعرَّضوا له أوَّلاً، ولكون الحكومة المهدوية منظومة متكاملة في الاقتدار علىٰ إثارة النفوس وتهيئة عوامل إخراج المواهب من حيِّز القوة إلىٰ الفعل.

ج - الاحتمال الثالث: أنَّ غاية الظهور بلوغ نهاية العالم بقيام يوم القيامة بمجرَّد أن يَفنىٰ قطب عالم الإمكان:

هذا التصوُّر الثالث لنهاية التاريخ والكون بعد الظهور المبارك لصيرورته غايةٌ بها يُدرَك المأمول يتوقَّف علىٰ إدراك:

أوَّلاً: الغاية (سُنَّة إلهية).

ثانياً: خاتمية الولاية للإمام المهدي عجل الله فرجه.

ثالثاً: مقتضيات الحكمة الإلهية.

أوَّلاً: الغاية (سُنَّة إلهية):

تستدعي مقولة الحكمة تحديد غايات لكلِّ فعل، ومن هنا أُطلق بحث في محلّه - أفعال الله سبحانه معللة بالغايات- وقد تمَّ هناك التفصيل في معنىٰ الغاية وأنَّها غاية الفعل وليس الفاعل، وذلك لتنزيهه سبحانه عن النقص والحاجة إلىٰ الغاية.

وليس بحثنا هنا في هذه الجهات وإنَّما نخصِّص الكلام فيما يرتبط بالشأن المهدوي، وعليه ينبغي معرفة أنَّ لحاظ الغاية متعدِّد، فقد يكون:

أ - الغاية من المنظومة التكوينية.

ب - الغاية من خلق الإنسان.

ج - الغاية من النبوة والإمامة.

إنَّ جميع هذه الغايات ترتبط ببعضها وتؤلف نسيجاً محكماً، رغم كونها متغايرة عن بعضها البعض، وقد تكلَّمنا فيما سبق عن غاية الإنسان والخلافة الإلهية - فراجع - وما يعنينا هنا هو الغاية من المنظومة التكوينية والتي تعتبر الإنسان المجموعي هو أحد أجزائها.

وتعمد الرؤية الكونية الدينية إلىٰ رسم مسار لكلِّ موجود كوني يضمن الانسجام والترابط مع بقية الأجزاء فلكلِّ موجود كمال خاصٌ به ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧)، حتَّىٰ يتمثَّل الكون أجمع بمقولة (ليس في الإمكان أبدع مما كان)[1]، ليعتبر الكون وحدة مترابطة متناسقة يؤثِّر كلّ منها بالآخر ليُبلَغ به أرقىٰ معان الجمال والكمال والإبداع، وقد ورد في تفسير الميزان: قوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)، الآية بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة، فالمراد بالبر والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية.

والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء كان مستنداً إلىٰ اختيار بعض الناس أو غير مستند إليه.

فكلّ ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر مخل بطيب العيش الإنساني.

وقوله: ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١)، أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدَّم في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

---

(١) عبارة منسوبة للفيلسوف الإسلامي (أبو حامد الغزالي) تعبيراً عن الرضا بحكمة الله تعالىٰ في خلقه، وللتأكيد علىٰ أنَّ ما قدَّره الله هو الأفضل في إطار علمه وحكمته المطلقين، وهو معنىٰ إيجابي، بخلاف ما فهمه البعض من معنىٰ سلبي استدعىٰ إشكاله علىٰ الشيخ الغزالي، ونحن بالتأكيد لا نريد ذلك المعنىٰ السلبي المنفر.

وأيضاً في مباحث النبوة... أنَّ بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثَّر إحداهما من صلاح الأخرىٰ وفسادها[1].

إذن تعتبر الرؤية الكونية الدينية أيديولوجيا ذات مميزات، من قبيل: قدرتها في الإثبات العقلي المنطقي والفلسفي، وكونها تقدِّر الحياة بطابع قيمي وترفض العبثية واللاهدفية، عندئذٍ تفرض الحيوية والتفاؤل وأمل الأهداف في النفس الإنسانية، وتفرض حرمة الاجتماع الإنساني وضرورة الالتزام بالواجب والحقوق فيما بينهم، فيعزِّز ذلك مسؤولية الفرد والمجتمع ليعيش العالَم انضباطاً مستقيماً يتَّجه نحو قِبلة الخالق سبحانه.

إنَّ هذا ما يدلُّ علىٰ معنىٰ (الانسجام بين الإرادة التكوينية والتشريعية) وهو الانسجام بين المشيئة الإلهية التي بها أوجد الله الكون وكل ما فيه بنظامٍ محكم وقوانين طبيعية (مثل قوانين الفيزياء والكيمياء والأحياء وغيرها من العلوم الطبيعية)، وبين الإرادة الإلهية المتعلّقة بالتشريعات الدينية التي أنزلها (سبحانه وتعالىٰ) علىٰ يد الأنبياء والمرسلين وحفظها الأئمة والأوصياء عليهم السلام، والغاية من ذلك هو التأكيد علىٰ عدم عبثية التشريع وتوافقه مع النظام الفطري للإنسان والنظام الكوني في كلِّ أبعاده، وفي حال الصدق والانطباق - بينهما - تؤول النتيجة إلىٰ استقرار أجزاء الكون والتوازن المرغوب وتحقيق قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرضِ﴾ (الأعراف: ٩٦)، ومن الواضح أنَّ تلك الغاية لم تتحقَّق منذ خلق آدم عليه السلام وإلىٰ الآن، ليبقىٰ الخلق بمنظومته منتظراً من خالقه تحقيق ما لأجله خلقت المنظومة الكونية بتفاصيلها.

---

(١) تفسير الميزان - السيد الطباطبائي: ج١٦، ص١٩٥.

عندئذٍ يأتي الحديث عن الغاية من بعثة الأنبياء عليهم السلام ونصب الأوصياء عليهم السلام في سياق تحقيق الغاية للكون.

الغاية من النبوة والإمامة:

ونقتصر علىٰ التأكيد في خصوص متعلّق البحث هنا وهو أنَّ أولياء الله سبحانه الصالحين لما يلحظه ربّ التكوين والتشريع من اقتدار فيهم علىٰ تحقيق الإرادة الإلهية أوكل إليهم شأن الخليقة لبلوغ الهدف ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ...﴾ (الأنعام: ١٢٤)، فبعث في أُمَّتنا نبيِّنا محمد صلى الله عليه وآله وجعل الأئمة عليهم السلام من بعده لإكمال المهمة التي أُنيط بها فعَمِل الاثنا عشر بوظيفة واحدة وفق حلقات تكاملية مُترتِّبة طولياً للوصول إلىٰ نتيجة مشروعهم الإلهي الواحد علىٰ يد الإمام المنتظر عليه السلام.

فيحقق غاية النظام الكوني الذي عبَّر عنه القرآن الكريم ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

فالغاية سُنَّة إلهية ثابتة في خلايا مملكته ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣).

ثانياً: خاتمية الولاية للإمام المهدي عجل الله فرجه:

الدعوىٰ في هذه الرؤية علىٰ أنَّ للإمام القائم عجل الله فرجه مقاماً يستدعي تحقيق غرض خلق المنظومة الكونية دون سواه، وذلك مقام الولاية العظمىٰ الخاتمة، وإليك التوضيح:

في مصطلح الولاية – المعني بها هنا – ذُكر في كتاب مفاتيح الغيب: (اعلم أنَّ الولاية مأخوذة من الولي، وهو القرب... وفي الاصطلاح هو القرب من

الحق سبحانه وهي عامة وخاصة... والخاصة هي الفناء في الله ذاتاً وصفة وفعلاً، فالولي هو الفاني في الله، القائم المتخلِّق بأسمائه وصفاته تعالىٰ...)[1].

والولاية ذات معنىٰ مشكّك، حيث تبدأ من المستوىٰ الشخصي للولي فيكون ذا علم وعمل وإخلاص ونطاق ولايته نفسه، وتمر بمن يزيد علىٰ ذلك وتشمل ولايته نفسه وغيره، فتكون أشمل وأوسع، وتنتهي بمستوىٰ الولاية للإنسان الكامل الذي يمثِّل المظهر التام للحق تعالىٰ، والذي يتولَّىٰ أمر تدبير العالم بإذنه تعالىٰ.

ويرىٰ بعض الأعلام أنَّ الولاية هي السبيل إلىٰ بلوغ الحضرة الإلهية، لأنَّه سبحانه قد جعل اسمه (الظاهر والباطن) في وليِّه، فكان عليه السلام حقيقة باطنه وصورة ظاهره لتكون الولاية بذلك جهة لقبول الفيض منه سبحانه والإمامة جهة إيصال الفيض إلىٰ الخلق.

لقد ألقىٰ الباري سبحانه مقادير الأمور إلىٰ وليِّه الأعظم ليخلفه في التصرُّف في الملك والملكوت وأجازه في التصرُّف وخزائن ملكه وملكوته.

ويأخذ مقام الولاية التأييد والقوة والقدرة وكل ما يفيضه سبحانه عليه من الباطن، فلا يمكن لسائر خلقه وبما فيهم بقية الأولياء الوصول إلىٰ الله سبحانه إلَّا بفضل وجهد الولاية وهي المرتبة الأخيرة من المراتب ويسمَّىٰ صاحبها بـ(خاتم الأولياء)، فيكون مقامه أقرب المقامات.

وفي ذلك قالوا: إنَّ الله سبحانه يحفظ بالولي خلقه، كما يحفظ الختم الخزائن.

وبذلك يبقىٰ العالم محفوظاً ببركة الخليفة.

---

(١) مفاتيح الغيب: ج٢، ص٥٧٣.

وقيل أيضاً: إنَّ الخاتم هو الذي قطع المقامات بأسرها وبلغ نهاية الكمال ويختم بموته نظام العالم، وهو المهدي الموعود في آخر الزمان[١].

وورد عن أحدهم: (وقد ظهر وجه تسميته بالخاتم من كونه غاية للكل... وهنا وجه آخر للتسمية، وهو أنَّ كل كمال وجمال وجلال فيما دونه خزانتها عنده...)، وينبغي الالتفات إلىٰ لحاظين في مقام ولاية الختم:

١ - إنَّ الولاية المطلقة عبارة عن مرتبة جامعة لجميع أسمائه وصفاته تعالىٰ، فتكون مرتبة حائزة علىٰ الاسم الأعظم.

٢ - إنَّ الله سبحانه جعل الواسطة سُنَّة للتجلِّي إلىٰ خلقه، ولذلك كان جبرئيل عليه السلام واسطة بينه سبحانه وبين أنبيائه، والأنبياء واسطة بينه وبين مخلوقاته، فكذلك كان الولي الخاتم واسطة بينه سبحانه وبين أوليائه.

وليس الختم بمعنىٰ الأخير زماناً وإنَّما هو المستوفي لمقام العيان علىٰ أساس الخاتم بمراتب الشرف والكمال، واستشهد العرفاء علىٰ أنَّ خاتم الأنبياء والرُسل هو محمد صلى الله عليه وآله بنصوص منها: «أوَّل ما خلق الله روحي»[١]، «أوَّل ما خلق الله نوري»[٢].

وذكرنا فيما سبق نصوصاً أخرىٰ علىٰ هذا المعنىٰ، وفي هذا المعنىٰ قالوا: (إنَّ النبي صلى الله عليه وآله قبل أن يأتي إلىٰ هذا العالم كان نبياً، وخاتم الأنبياء باعتباره الصادر الأوَّل ليقوم بأمرين: يقبل الفيض من الله بالولاية، ويوصله إلىٰ الخلق بالنبوة، فالولاية باطن النبوة...)[٣].

---

(١) معجم اصطلاحات الصوفية - عبد الرزاق القاشاني: ص١٧٨.

(١) ينابيع المودة - القندوزي: ج١، ص٤٥.

(٢) ينابيع المودة - القندوزي: ج١، ص٤٥.

(٣) الخرائج والجرائح - قطب الدين الراوندي: ج٢، ص٨٧٦.

فيكون معنىٰ خاتم الأنبياء أنَّ مرجع جميع الأنبياء والرُسل إليه، كونه وجوداً في عالم الأرواح قبل وجوده المادي الدنيوي (وقد ورد أنَّه صلى الله عليه وآله بُعِثَ وهو روح إلىٰ الأنبياء عليهم السلام وهم أرواح فدعاهم إلىٰ التوحيد)، وأنَّ سائر الأنبياء عليهم السلام لا يصلون إلىٰ مراتب الحق سبحانه إلَّا من خلال مقام ولاية النبي صلى الله عليه وآله، فهو الذي يمدّهم من الباطن، لأنَّه صلى الله عليه وآله المظهر لأسماء الله جميعاً لامتلاكه الاسم الأعظم لكونه خاتم الأنبياء.

وهذا المعنىٰ من الخاتمية يأتي في خاتم الأولياء والذي يكون رجوع جميع الأولياء والأوصياء إليه، وهو الذي يفيض علىٰ أرواحهم وأنفسهم ما شاء الله من العلوم والمعارف والحقائق، وهو مقام الإمام المهدي عجل الله فرجه فهو خاتم الأوصياء، عن إبراهيم بن محمد العلوي قال: حدَّثني طريف أبو نصر، قال: دخلتُ علىٰ صاحب الزمان، فقال: «عليَّ بالصندل الأحمر»، فأتيته، ثم قال: «أتعرفني»؟ فقلت: نعم، قال: «من أنا»؟ فقلت: أنت سيدي وابن سيدي، فقال: «ليس عن هذا سألتك»، قال طريف: فقلت: جعلتُ فداك، فسِّر لي، قال: «أنا خاتم الأوصياء وبي يدفع الله البلاء عن أهلي وشيعتي».

وقد بيَّنا فيما سبق ما ينفع في هذا المقام – فراجع –، وذكرنا أنَّ الحكمة الإلهية تستدعي القول بذلك، فإنَّ الملاك في اختيار الإمام المهدي عجل الله فرجه حاملاً لمشروع القيام، وإنشاء دولة العدل إنَّما هو الحكمة الإلهية بمعية العلم بحيثية تقييدية[1].

---

(١) راجع الدرس الخامس: ص١٥، (التمييز بين صفتي العلم والحكمة...) من هذه السلسلة.

ويمكن الإطناب في ذلك من خلال مقولة: (عالم الملك وعالم الملكوت)[1]، فإنَّهما عالَمان متغايران ولكن لأحدهما - الملكوت - تأثير في الآخر - الملك - بنحوٍ يرسم الخارطة للأحداث الاستراتيجية لهذا العالَم.

نعم، ليس بينهما تطابق من جميع الجهات مثلاً: وجود النبي صلى الله عليه وآله الذي سئل عنه جابر بن عبد الله عندما قال للنبي: أوَّل شيء خلق الله تعالىٰ ما هو؟ فقال: «نور نبيِّك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير»[1]، في حين أنَّه صلى الله عليه وآله كان في عالم الملك متأخِّراً عن وجود الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، إذن العلاقة بين الملك والملكوت - وطيدةً ولكن ليست بنحو العينية، فكلّ ما للأنبياء والأوصياء من مناصب وأدوارٍ في العالَم المُلكي إنَّما تفرع علىٰ وجود مزية في العالم الملكوتي من سنخ المرتبة والمنزلة التي يتمتَّع بها المعصوم في هذا العالم - لا يزيد ولا ينقص -، نعم لهذا العالم قوانين مادية تحكمه استدعت كون السفير السماوي ذو جسدٍ ومادة متفاعلاً مع قوانين الطين، قال تعالىٰ: ﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ (إبراهيم: ١١)، ﴿وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨).

---

(١) عالم الملك هو العالم المادي الذي نعيش فيه وندركه بالحواس الخمسة، ويُعرف بعالم الشهادة ويعتمد علىٰ القوانين الفيزيائية والطبيعية، ومن أهم صفاته أنه محدود بالزمكان ويتَّسم بالتغيُّر والفناء.

أمّا عالم الملكوت: هو العالم الغيبي ويدرك بالقلب وبالبصيرة وينظر إليه أنَّه عالم الأرواح والمعاني، ويشمل الملائكة والأرواح والغيب الذي لا يدرك بالحواس، وأهم صفاته عدم المحدودية بالزمكان والبقاء والدوام.

(١) بحار الأنوار: ج١٥، ص٢٤.

لذلك كان للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله منزلة الخاتمية للدين الأكمل لما له من منزله ودرجة وشرافة، فكان له التأثير النوراني في بقية الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وغيرهم، ليكون هو واسطة الفيض بينه سبحانه وبين بقية الوجودات، والوجودات النورانية وكلّ ذلك في عالم الأرواح، نعم يخلفه فيما بعد واسطة الفيض للعالم المادي المسانخ له وفي كلّ زمان حجة الذي عبَّرت عنه الرواية «لولا الحجة لساخت الأرض».

وما ذكرناه يأتي في واقع الإمام المهدي عجل الله فرجه فهو لولا منزلته ومزيَّته في عالم الأرواح لما كان خاتماً للأولياء، ولما تحقّق (غرض خلقة التكوين وإقامة العدل ووصول البشرية إلىٰ موافقة إرادتهم التكوينية مع إرادة الله التشريعية) علىٰ يديه وببركته، وتشير الروايات إلىٰ هذا المعنىٰ، ورد[1]: أخبرنا محمد بن همام، قال: حدَّثنا محمد بن أبي عمير سنة أربع ومائتين، قال: حدَّثني سعيد بن غزوان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عن آبائه، قال: قال رسول الله: «إنَّ الله اختار من كل شيء شيئاً... - إلىٰ أن يقول - وتكمله اثني عشر إماماً من ولد الحسين تاسعهم باطنهم وهو ظاهرهم وهو أفضلهم وهو قائمهم»[2].

عن خلاد ابن الصفار، قال: سئل الإمام الصادق عليه السلام هل وُلِدَ القائم؟ فقال: «لا، ولو أدركته لخدمته أيَّام حياتي»[3].

---

(١) في كتاب الغيبة للنعماني: ص٧٣.
(٢) وذكر الشيخ الطوسي (في الرسائل العشر) تأويل للرواية.
(٣) النعماني: ص٢٥٢.

وعنه عليه السلام أيضاً: «وسيدنا القائم مسند ظهره إلىٰ الكعبة، ويقول: يا معشر الخلائق ألا ومن أراد أن ينظر إلىٰ آدم وشيث، فها أنا ذا آدم وشيث...»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «أمَّا أنِّي لو أدركت ذلك لأبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»[2].

ثالثاً: مقتضيات الحكمة الإلهية:

وبالبيان المتقدِّم ظهر أنَّ الغاية للمنظومة التكوينية من مقتضيات الحكمة الإلهية حيث لا يتصوَّر في حقِّه العبث والإهمال، فكذلك الحال في بعثة الأنبياء وتنصيب الأوصياء لنفس الغرض والفرض المتقدّم، وفي السياق ذاته كان فرض تحقيق غرض الخلقة وإقامة دولة العدل واتِّحاد الإرادتين (التشريعية والتكوينية) علىٰ يد خاتم الأولياء صلى الله عليه وآله، إذ لم يكن جزافاً وصدفة جَعْلَه في مقامٍ تشرئبُّ إليه أعناق الخلائق لإنقاذها من فساد ضَلالها إلىٰ أمان الهداية والعدالة المترقبة علىٰ يديه وهو الحائز علىٰ مقام الولاية الخاتمة.

ولذلك يصعب تصوُّر المعنيين التاليين:

١ - إنَّه صلى الله عليه وآله واسطة لتأسيس مقدّمات الغاية فقط، ثم يأتي من بعده من يُحقِّق (واقع غاية الخلق):

﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، سواء كان ذلك بالمجتمع المعصوم أو الأولياء الصالحين أو برجعة المعصومين عليهم السلام.

٢ - بقاء عالم التكوين بعد تحقُّق غايته دون تحديد منتهىٰ له، فإنَّ ذلك الأمد - لبقائه - الذي لا منتهىٰ معلوم له ينافي الحكمة في تعيين الغايات والتي

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٣، ص٩.
(٢) البحار: ج٥٢، ص٢٤٣.

فرضناها فيما سبق سنة إلهية -، وكذلك هو مناف لمعنىٰ الغاية في حدِّ نفسه، فإنَّ الغاية تعني أنَّ ذا الغاية يحقِّق التمام والانتهاء ببلوغها والألم يصدق عليها غاية!

فإذا كان كذلك تعيَّن القول بانتهاء لعالَم بمجرَّد بلوغه الهدف المنشود علىٰ يدي صاحب الزمان عجل الله فرجه.

ويظهر أنَّ ذلك سيكون بعد إتمام الأمر وموت الإمام عجل الله فرجه ليفنىٰ العالم فيما بعده، وقد يُستشف ذلك من بعض الروايات التي تربط بين ظهور الإمام عجل الله فرجه وعلامات الساعة الكبرىٰ المماثلة لعلامات الظهور المبارك، فقد روي في عيون الحكم: «عشرة أشياء من علامات الساعة: طلوع الشمس من مغربها والدجال، ودابة الأرض، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وخروج عيسىٰ عليه السلام وخروج المهدي عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج ويكون في آخر ذلك الزمان خروج نار من اليمن من قعر الأرض لا تدع خلفها أحداً تسوق الناس إلىٰ المحشر».

وعن المفضل بن عمر، قال: سألتُ الصادق عليه السلام: هل للمأمول المنتظر المهدي عليه السلام من وقت مؤقت يعلمه الناس؟ فقال: «حاشَ لله أن يوقّت ظهوره بوقت يعلمه شيعتنا»، قلت: يا سيدي ولِـمَ ذلك؟ قال: «لأنَّه هو الساعة التي قال الله تعالىٰ: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ...﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ [لقمان: ٣٤]»[1].

---

(١) مختصر بصائر الدرجات - الحلي: ص١٧٩.

الفهرس

المقدمة ٣

الدرس الأوَّل: قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ضرورة دينية ٥

الضرورة الأولىٰ: إدراك أهمية الدين والتوقُّعات الإيجابية منه: ٧

أمَّا السؤال الأوَّل: ٧

وأمَّا السؤال الثاني: كيف نتصوَّر حاجتنا إلىٰ الدين؟ ١٢

الحاجة الأولىٰ: وهي الحاجة المعرفية: ١٢

الحاجة الثانية: للدين وهي الحاجة الأخلاقية: ١٤

الحاجة الثالثة: الحاجة التشريعية والقانونية: ٢٠

الضرورة الثانية: إدراك الرابطة الواقعية بين الإمام المهدي عجل الله فرجه والدين السماوي: ..٢٣

الدرس الثاني: قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه ضرورة إنسانية بل فطرية ٢٥

المحور الأوَّل: نظرية نهاية التاريخ: ٢٥

مقدمة: ٢٥

مبادئ تصورية: ٢٦

أوَّلاً: نهاية التاريخ في الأديان السماوية: ٢٧

ثانياً: نهاية التاريخ في غير الأديان السماوية: ٢٨
١ - التاريخ القديم: ٢٨
٢ - التاريخ الحديث: ٢٨
نهاية التاريخ عند (كانط): ٢٨
نهاية التاريخ عند (هيجل): ٢٩
نهاية التاريخ عند (ماركس): ٢٩
٣ - التاريخ المعاصر: ٣٠
المحور الثاني: ظهور المصلح في الفكر الإنساني اللاديني: ٣١
المحور الثالث: ظهور المصلح في الديانات غير الإسلام: ٣٢
ففي الديانة اليهودية: ٣٣
وفي الديانة المسيحية: ٣٤
المحور الرابع: ظهور المصلح في الإسلام: ٣٥
ظهور المصلح في فكر السيد الشهيد الصدر قدس سره: ٣٦
ظهور المصلح في فكر السيد العلامة الطباطبائي رحمه الله: ٣٨
الدرس الثالث: محاكمة النظريات في تشخيص المنقذ وبيان أرجحها ٤١
المنقذ في الفكر الوضعي: ٤١
المخلِّص في الديانة اليهودية: ٤٤
المخلِّص في الديانة المسيحية: ٤٥
الدرس الرابع: المنقذ في الفكر الإسلامي ٤٩

الفهرس..... ٢٣٩
الدرس الخامس: موقعية قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في المنظومة المعرفية الدينية (١).....٦٢
إضاءة: المقصود من المتديِّن: ٦٢
مقدمة: ٦٢
المحور الأوَّل: هل القضية الإمامة تاريخية أو فقهية أو عقدية؟.....٦٣
١ - التاريخية:.....٦٣
٢ - الفقهية:.....٦٤
٣- العقدية: ٦٦
وأمَّا نظرية الإمامية في الإمامة: ٦٨
الدرس السادس: موقعية قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في المنظومة المعرفية الدينية (٢) ٧٢
المحور الثاني: هل تستدعي المهدوية علم تقليدي أو تحقيقي؟ ٧٢
المحور الثالث: هل يكفي العلم بالإمامة والإمام أم لابدَّ من الإيمان؟.....٧٦
المطلب الأوَّل: الفرق بين العلم والإيمان فنستطيع التفريق بينهما بعدَّة وجوه: ٧٦
المطلب الثاني: العلاقة بين العلم والإيمان:.....٧٩
المطلب الثالث: هل متعلّق قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه العلم أم الإيمان؟ ٨٠
المحور الرابع: ما هو أقل ما يحقِّق الإيمان؟.....٨٠
المحور الخامس: ما هو متعلّق الإيمان بالمهدوية؟ معرفة هوية أو وصفية؟ ٨٨
المحور السادس: ما حكم غير المؤمن بالإمام المهدي عجل الله فرجه: ٩٠
الدرس السابع: موقع قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في منظومة عالم التكوين (١).....٩٤
إذن الإنسان لماذا خُلق؟ ٩٥
سؤال: ما هو الهدف والغاية من العبادة؟ لماذا يريد الله (سبحانه وتعالىٰ) من الجن والإنس أن يعبدوه؟.....٩٦

إذن لماذا العبادة؟ ٩٦
سؤال: ما هو القرب الإلهي؟ ٩٧
ومن هنا يأتي السؤال أنَّه: ما هي وظيفة هذا الإنسان الكامل أو الخليفة الإلهي؟ . ١٠١
الوظيفة الأولىٰ: واسطة الفيض: ١٠١
الأولىٰ: الاستدلال علىٰ واسطة الفيض من خلال قاعدة الواحد: ١٠١
الثانية: أمَّا من لم يقبل هذه القاعدة فأيضاً انتهىٰ إلىٰ نفس النتيجة - وساطة الفيض -:
..... ١٠١
الثالثة: الروايات التي بيَّنت أنَّ العالم عالم الوسائط: ١٠٣
الرابعة: كلمات بعض الأعلام في وجود الإنسان الكامل: ١٠٣
الخامسة: الروايات التي شخَّصت ذلك الخليفة والإنسان الكامل: ١٠٤
ليلة القدر من تجلِّيات وساطة الفيض: ١٠٨
الدرس الثامن: موقع قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه في منظومة عالم التكوين (٢) ١١٠
القسم الثاني: ١١٠
النوع الأوَّل: الهداية العامة: ١١٠
النوع الثاني: الهداية القولية التشريعية: ١١٣
مَن يُعرِّف للإنسان طريق بلوغ الكمال؟ هل هو العقل أو لابدَّ له من الاعتماد قبلاً علىٰ
دليل وهو الأنبياء عليهم السلام؟ ١١٤
والدليل علىٰ عجز هذه المدارك: ١١٤
أ - الطريق التجريبي واستقراء التاريخ: ١١٤
ب - التقييم الموضوعي للحس والعقل: ١١٤
النوع الثالث: الهداية بالإيصال إلىٰ المطلوب: ١١٦

الدرس التاسع: الغيبة سُنَّة إلهية ثابتة ١٢٢
المحور الأوَّل: الغيبة سُنَّة إلهية ثابتة:..... ١٢٢
معنىٰ السُنَّة الإلهية وخصائصها: ١٢٣
أ - من خلال قراءة السير التاريخي للأنبياء والرُسل عليهم السلام نكتشف أنَّ أبرز المظاهر المرافقة لحياتهم الاستتار والاختفاء والاحتجاب (أي الغيبة) وإليك بعضاً من تلك السيرة:..... ١٢٦
ب - أمّا القراءة القرآنية فهي تُنتج السُنَّة للغيبة: ١٢٧
ج - في النصوص الروائية: ١٢٩
المحور الثاني: هل غيبة الإمام عليه السلام غيبة شخص أم عنوان؟ ١٣٠
المحور الثالث: ما هي فلسفة غيبة الإمام عجل الله فرجه؟ ١٣١
١ - ضرورة أن يجري علىٰ الإمام عجل الله فرجه ما جرىٰ علىٰ الأنبياء السابقين: ١٣١
٢ - الإيكال إلىٰ علم الله لأنَّه سرٌّ لا ينكشف الآن: ١٣١
٣ - رعاية الجانب الأمني: ١٣٢
٤ - عدم حجب الفيض وتهيئة الظروف لكلِّ نطف الخير:..... ١٣٢
٥ - كشف زيف جميع الدعاوىٰ الباطلة وعجز المدارس الأخرىٰ:..... ١٣٣
٦ - حفظه من تقديم بيعة لظالم بعد تماديهم في الطغيان والفساد، وحفظ روح الرفض للظلم بعد مرور البشرية بكلِّ أنواع المظالم:..... ١٣٣
٧ - صلاح أمره وأمر المؤمنين: ١٣٣
٨ - اختبار الشيعة وامتحانهم: ١٣٣
رفع التعارض بين الروايات المباركة:..... ١٣٤

المحور الرابع: لم تكن الغيبة خيارٌ مهدوي، بل هو خيار مجتمعي: ١٣٥
المحور الخامس: بعض الإشكالات علىٰ الغيبة: ١٣٧
الدرس العاشر: عدالة الحكومة المهدوية واقع أو خيال؟ ١٤٢
المجتمع العادل! ١٤٢
الجهة الأولىٰ: كيف يلحظ الفكر الديني عدالة الحكومة المنصبة (غير الديمقراطية)؟
..... ١٤٣
الجهة الثانية: السلطات الثلاث في منظومة الحكم المهدوي: ١٤٥
أ – السلطة التشريعية: ١٤٥
ملاحظة ونظر في عدالة التشريع: ١٤٧
العدل الاجتماعي: ١٤٨
المعايير التشخيصية: ١٤٩
أوَّلاً: متابعة الحق وعلاقته مع خصوص الإنسان ١٥٢
ثانياً: هوية الجاعل والمجعول له: ١٥٢
ثالثاً: مبدأ العقوبة لا ينافي عدالة التشريع: ١٥٥
رابعاً: قسوة العقوبات لا تتعارض مع القانون العادل: ١٥٦
ب – السلطتين التنفيذية والقضائية: ١٦٠
مبادئ تأسيس الجهاز التنفيذي (السلطة التنفيذية): ١٦٢
مبادئ تأسيس الجهاز القضائي: ١٦٥
الجهة الثالثة: مجتمع الحكومة المهدوية: ١٦٦

الدرس الحادي عشر: شبهة أنَّ قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه وليدة الفكر الباطني ١٧٢
الفكر الباطني:..... ١٧٢
مقدمة:..... ١٧٢
الأولىٰ: الفكر المهدوي لقيط الباطنية (قضية ثبوتية):..... ١٧٢
الثانية: هل اخترقت الباطنية بمعالمها الفكر المهدوي (قضية إثباتية): ١٧٣
تمهيد: ما هو الفكر الباطني ومنشأه ومعالمه؟ ١٧٤
١ - المبدأ التصوُّري للباطنية:..... ١٧٤
أقوال في معنىٰ الباطنية: ١٧٤
٢ - ليست الباطنية وليدة فكر بذاته:..... ١٧٥
٣ - الدواعي في التصاق الفكر الباطني بالتشيُّع: ١٧٨
٤ - إخفاق الشبهة في قراءة المهدوية، ومعالجة ذلك: ١٧٩
أمَّا الأوَّل: الهوية المهدوية ومنهجها المعرفي: ١٧٩
الضوابط المشتركة مع بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام: ١٨٠
الضوابط المختصة بالإمام المهدي عجل الله فرجه:..... ١٨١
وأمّا الثاني: مناقشة الدواعي في التصاق الباطنية بالتشيع والمهدوية: ١٨٣
الأوَّل: المنهج التأويلي للباطنية:..... ١٨٤
الثاني: منهج الإمامية عند إرادة التأويل: ١٨٥
ثالثاً: عمق المطالب الدينية العقدية مما ينحصر إدراكها علىٰ فئة خاصة:..... ١٨٦
رابعاً: عُرفت الإمامية بإقامة طقوسهم الدينية وشعائرهم المذهبية علىٰ مرأىٰ ومسمع من جمهور المسلمين: ١٨٦
خامساً: المغالاة وسنأتي علىٰ ذكرها لاحقاً فيتَّضح الإبهام فيها: ١٨٧

الدرس الثاني عشر: القضية المهدوية يحاصرها الريب (غيبية، غلوائية، خرافة)... ١٨٨
١ - غيب القضية يؤول إلىٰ الخطل في الفكرة: ١٨٨
هل المهدوية غيبية؟ ١٨٨
٢ - الغلو في المهدوية: ١٩٠
١ - شبهة الغلو في الفكرة المهدوية: ١٩٠
٢ - المبدأ التصوُّري للغلو: ١٩١
أوَّلاً: المصادر المعرفية للمهدوية: ١٩٢
المصدر المعرفي الأوَّل: الدليل العقلي: ١٩٣
المصدر المعرفي الثاني: القرآن الكريم والسُنَّة الشريفة: ١٩٤
ثانياً: المقياس الموضوعي للغو: ١٩٨
٥ - الإمامة المهدوية أصل للدين فلا مغالاة: ١٩٩
٣ - اتِّهام قضية الإمام عليه السلام بأنَّها خرافة: ٢٠١
١ - معنىٰ الخرافة: ٢٠٢
مناشئ التأسيس للخرافة: ٢٠٢
تحديد منافذ الشبهة: ٢٠٣
إنَّ أحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه علىٰ أقسام: ٢٠٤
الدرس الثالث عشر: ملاحقات فكرية حول الظهور المهدوي ٢٠٦
رابعاً: تستبطن كل عملية تغيير التدرُّج: ٢١١
خامساً: الجانب الإلهي في المشروع المهدوي: ٢١١

الدرس الرابع عشر: ملاحقات فكرية حول الظهور المهدوي..... ٢١٨
أ - الاحتمال الأوَّل: أنَّ غاية الظهور حاكمية المجتمع:..... ٢١٩
ب - الاحتمال الثاني: ٢٢٣
فلسفة الرجعة: ٢٢٦
ج - الاحتمال الثالث: أنَّ غاية الظهور بلوغ نهاية العالم بقيام يوم القيامة بمجرَّد أن يَفنىٰ قطب عالم الإمكان:..... ٢٢٧
أوَّلاً: الغاية (سُنَّة إلهية):..... ٢٢٧
الغاية من النبوة والإمامة: ٢٣٠
ثانياً: خاتمية الولاية للإمام المهدي عجل الله فرجه: ٢٣١
ثالثاً: مقتضيات الحكمة الإلهية:..... ٢٣٦
الفهرس **٢٣٩**

* * *